رواية

مكتبة

إيفان كليما

في انتظار العتمة
في انتظار النّــور

ترجمة: فائزة بودبوس



صفحة

Waiting For the Dark, Waiting For the Light...

Ivan Klima



في انتظار العتمة، في انتظار النور..

تأليف: إيفان كليما

ترجمة: فائزة بو دبوس





الكتاب

في انتظار العتمة, في انتظار النور..

المؤلف

إيفان كليما

الطبعة الأولى: 2021

الترقيم الدوليّ

978-603-91498-9-7

رقم الإيداع

1442/3528

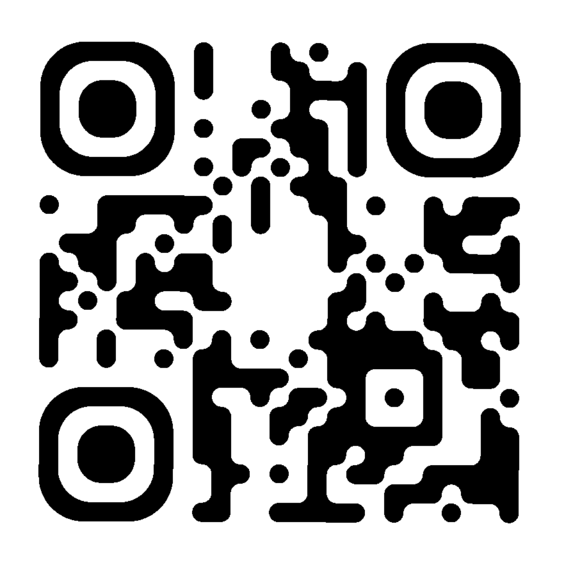
Email: admin@page7.com

Website: www.page7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل، شارع مشهور

المملكة العربيّة السعوديّة



في انتظار العتمة، في انتظار النور..

إيفان كليما

الفصل الأوّل

(1)

بدأ حشد من الناس يتجمهَر عند طرف الساحة السفليّ، وكان معظمهم من الشباب الذين تذكّر «بافل» بعضَهم من مظاهرات سابقة. فذاكرته بارعة في تخزين الوجوه، حتّى إنّه حسبَ وجوه بعض المتفرّجين المتسكّعين على الرصيف مألوفةً لديه. فقد كانوا، مثله، من الوجوه الدائمة الحضور في هذه المناسبات. ويُحتمَل أنّهم هم أيضًا هنا للقيام بمهمّة، وإن كانت من نوع آخر. ليس ببعيد عن مكان وقوفه، وأمام واجهة زجاجيّة كبيرة تزدحم بداخلها الأحذية المعروضة للبيع، وقف رجل يحمل كاميرا أفلام صغيرة. ورغم أنّه يعرف أغلب العاملين في مجاله، فإنّه لم يتعرّف عليه. لعلّه سائح فضوليّ، أو مصوّر فوتوغرافيّ من الهواة أو أحد الذين يلتقطون صورا للمظاهرات لصالح أرشيف الشرطة الأمنيّة .

لكن ما الذي يفعله هو نفسه هنا؟ لماذا يصوّر هذه الأحداث صحبة فريق عمله؟ هل يفعل ذلك لصالح التلفزيون؟ فالقنوات لن تذيع أيّ شيء ممّا يصوّره، أو بالأحرى، لا علاقة لما تذيعه بما يحدث حقّا. لعلّه

يعمل من أجل المستقبل.

لكن ما هو المستقبل؟

المستقبل هو زمن يرتاب في كلّ شيء حدث قبله .

في الأنحاء، على الرصيف، وقف رجال شرطة كثيرون يرتدون الزيّ الرسميّ. إنّها مظاهرة سلميّة كالعادة، فلا أحد يهتف بشعارات أو يتأهّب لرمي الحجارة على واجهات المحلّات أو لقلب السيّارات أو للاعتداء على البوليس. ومع ذلك فقد لاحظ أنّ غالبيّة الوجوه التي كان يراقبها عبر عدسة الكاميرا يعلوها التوتّر، ذلك الترقّب القلق لحدوث المواجهة التي لا مفرّ من وقوعها وفقا لمبادئ محدّدة رغم أنّها غير مكتوبة ولا هي مبادئ سامية .

لماذا جاء المتظاهرون؟ ما الذي كانوا يرغبون في إثباته أو تغييره؟ ما الشيء الذي يؤمنون به ويجعلهم مستعدّين لتحمّل الضرب والسجن والطرد من عملهم؟ هل يحتجّون من أجل قضيّة سامية، أم أنّهم هناك لغياب ما يثير اهتمامهم أو يحرّكهم بشكل كافٍ، هل هم، ببساطة، يشعرون بالضجر؟

أراد أن يسألهم لكنّ حاجزا لامرئيّا كان يمثُل بينه وبينهم، حاجزا يرمز إليه الشعار المرسوم على شاحنة النقل وتمثّله كاميرته، حاجزا بارزا وسميكا سُمك صفّ من الأسلاك اللولبيّة بمثابة أسوار تفصل بلده عن البلدان المجاورة له أو على الأقلّ عن البلد الذي دفعه حُمقه ذات يوم إلى محاولة الفرار إليه. أحيانا كان ينتابه شعور غامض بعدم الارتياح لاستمرار وجوده على هذا الجانب من الحاجز، ويعتريه في

الآن ذاته شعور بالأمان. فلا أحد سيضربه أو يستجوبه أو يتخلّص من وجوده في الشارع بواسطة توجيه خرطوم المياه إليه.

تراصّت صفوف الحشود رغم أنّه لم يتبقّ سوى بعض مئات من الناس. ورفعت امرأة شابّة قطعة من القماش الأبيض فوق رأسها منقوش عليها: «دخان أقلّ، مزيدا من الهواء». فالتقط صورة لتلك اللّافتة متفحّصا وجه المرأة ويديها. كانتا صغيرتين، تقريبا أشبه بيدَيْ طفلة بأظافر غير مطليّة وترتعشان قليلا. لعلّ ذلك بسبب الريح التي كانت تشدّ اللّافتة بقوّة وتهزّها. كان وجهها أيضا طفوليّا وبريئا وساذجا. لوهلة واحدة، ذكّرته الفتاة بـ «آلينا». أين هي يا ترى؟ وماذا كانت ستفعل لو أنّها هنا الآن؟ لعلّها كانت هنا في مكان مّا من هذه الساحة ترفع لافتة فوق رأسها. لقد كفّ عن التفكير بها وقتا طويلا. ما الذي يمكنه قوله لها إذا ظهرت؟ وما الذي يمكنها هي أن تقوله له إذا رأته على الرصيف يحاول التقاط صورة لها ولحضورها على تسجيل من نوع «أمبيكس»؟

كانت ستقول: كيف استطعت القيام بهذا؟ أو لعلّها لن تقول شيئا. فلماذا عليها التحدّث إليه؟

نظر حوله إلى الجموع. وكان ذلك، في جانب منه، بدافع الاهتمام المهنيّ تحسّبا لرؤية لافتة جديدة. لكنّه، في جانب آخر، كان أيضا مدفوعا بالتساؤل عمّا إذا استطاع أن يلمح طرفا منها. طبعا لم تكن هنا، بل كان ثمّة مزيد من الرجال بزيّ رسميّ على الرصيف وشاحنة من خراطيم مياه مرفوعة فوق العربة وقد بدأت تتقدّم ببطء نحو

الأسفل تاركة مكانها في الأنحاء العلويّة للساحة. في اللحظة نفسها تجمّع الحشد وصار يطلق صوتا خاصّا به، طنينا خافتا أشبه بسرب من النحل أو غيمٍ تجمّع ليؤذن برعد مرتقب فشعر بتزايد الهيجان الذي يسبق الاشتباك القادم.

سيكون الاشتباك عبثيّا ككلّ الاشتباكات التي حدثت في السابق، لكن لا مفرّ من وقوعه.

كان الجميع يعرفون مَن الذين سيتولّون الضرب ومن أولئك الذين سيُضرَبون. هذا اليقين التامّ حوّل الإصرار المنفلت من الطرفين إلى تحرّكات، فبدا وقوعها أمرا حتميّا تقريبا. فحتّى «بافل» وجد نفسه يأمل في حدوث الاشتباك عمّا قريب، ليس لأنّه متلهّف إلى العنف بل لأنّه كان يريد لذلك الذي لا مفرّ منه أن يحدث وينتهي، وهكذا سيكون بإمكانه إنجاز عمله والمغادرة.

تحرّكت سيّارة مطليّة باللونَين الأصفر والأبيض في بطءٍ نحو أسفل الساحة، وكان على سطحها مكبّرُ صوت ضخمٌ. فبدا الصوت المنبعث منه ضجرا أكثر من كونه مهدّدا وهو يعلن أنّ التجمهر غير قانونيّ ويأمر الجميع بالتفرّق في هدوء. عندئذ ارتفع الهتاف المحيط بـ«بافل».

التقط صورة لعربة مضخّم الصوت. ثمّ نظر إلى الخلف، إلى تلك المرأة التي تحمل اللّافتة الساذجة بشكل مؤثّر. وكانت قطعة القماش الأبيض تهتزّ بين يديها على نحوٍ أكثر وضوحا الآن.

عندما أنهى عمله توغّل داخل أحد الشوارع الجانبيّة الضيّقة إلى

حيث ركن سيّارته الرياضيّة الحمراء. نظر إليها بعطف، كما يفعل دومًا، ثمّ صعد وانطلق بعيدا. كانت الطريق والأرصفة لا تزال مبللّة والبنايات تغطّيها قطرات المطر المتناثرة. لكن لا أحد ممّن يكون قد مرّ من هنا مصادفة يمكن أن يدرك ما حدث منذ بضع لحظات. قاد سيّارته بأسرع ما سمحت له جرأته عبر الشوارع الضيّقة والملتوية. كان يرغب في الذهاب بعيدا إلى مكان مّا، أبعد ما يمكن عن الناس وعن المظاهرات وعن خراطيم المياه، لكنّه كان قد وعد بزيارة «إيفا» ذاك المساء ووعد ابنها بالمرور إلى الملعب لمشاهدة مباراته. فهو حارس مرمى في فريق كرة قدم لليافعين. كان طفلا طيّبا و«بافل» يشعر نحوه باهتمام أبويّ. وقد كان من المؤكّد أنّ إظهار اهتمامه بالفتى، عبر مشاهدة مباراة، أكثر مبعثا للسعادة في نفس الطفل من التحدّث إليه في المساء عن المدرسة. لكن، قبل ذلك عليه التوقّف في الأستوديو وإلقاء نظرة على التسجيلات ثمّ تسليم الموادّ المصوّرة .

أخبرته سكرتيرة غرفة الأخبار أنّ المدير سأل عنه مرّتين ذلك اليوم، وقد افترضت أنّ الأمر يتعلّق بعيد ميلاد الرئيس، فقد تحدّثوا عن ذلك في الاجتماع. إنّه حدث هامّ وسيكون عليهم تصوير تقرير عن القصر، وكان هو و«سوكول» مناسبَين تماما لهذا العمل.

لم يجبها. لكنّه شعر في داخله ببعض الرّضا الشخصيّ لأنّهم يثقون به، دون الجميع، للقيام بمهمّة ذات مسؤوليّة كهذه، لكنّه يفضّل أن يقول للعموم إنّ الشيء الوحيد والمشترك الذي يجمعه برئيس الدولة هو أنّ كليهما أُطلق سراحه من السجن في السنة نفسها.

كانت درجة حرارة الغرفة الصغيرة المخصّصة للتحرير مرتفعة كالعادة، وكذا كانت مزدحمة وتفوح منها رائحة السجائر والقهوة الرديئة. وما زاد الأمر سوءًا أنّها مكتظّة بالناس الذين يريدون معرفة ما حدث بالفعل في الساحة. كانت على وحدة التحكّم قارورتان من النبيذ وبعض الكؤوس المنتصبة. لا شكّ أنّ أحدهم يحتفل بشيء مّا، فبالإمكان دائما العثور على شيء يدعو إلى الاحتفال. سحب ورقة ماليّة وألقى بها في صندوق لجمع المال ثمّ صبّ لنفسه شرابا وناول التسجيل للمنتج التنفيذيّ، وهو رجل فظّ يدعى «هالاما»، فدسّه في الجهاز.

تفحّص «بافل» الشاشة بإمعان. هناك، كانت المرأة التي ترغب في استنشاق مزيد من الهواء الخالي من الدخان. لكنّه لاحظ الآن وجود رجل شابّ يقف على مقربة منها. كان طويلا ونحيلا يرتدي قميصا ذا مربّعات، ووجهه شاحب وحالم. نظر بكآبة إلى الكاميرا نظرة خاطفة. فقال «بافل» في نفسه وهو يرمقه: إنّه مثلي، يملك عينين زرقاوين. في الواقع إنّه يشبهني إلى حدٍّ بعيد عندما كنت في الخامسة والعشرين منذ سنوات عديدة مضت. هل كان لي أن أكون هناك، أتظاهر، أيضا، لو كنت أصغر بعشرين سنة؟

تحرّك الشابّ خارج إطار المشهد الذي اخترقته العربة ذات مضخّم الصوت. فهاج الحشد وماج في إصرار على الاحتجاج. وتدفّق من أحد الشوارع الجانبيّة فريق من شرطة مكافحة الشغب يحملون هراوات. وأخذت الجموع تنقسم وتتراجع إلى الوراء وهي تهتف: «لمَ

لا تستطيعون أن تكونوا إنسانيّين؟ لمَ لا تستطيعون أن تكونوا إنسانيّين؟»

«لا بدّ من حذف كلّ هذا، قطعًا!» قال «هالاما» بعصبيّة، قاله كما لو أنّه يمكن الاحتفاظ بما تبقّى.

حاول مرّة أخرى التعرّف على الفتاة التي تحمل لافتة، ولم يفلح في ذلك. لكنّه لاحظ أنّ الشابّ صاحب القميص ذي المربّعات يرفع يديه ليحمي بهما وجهه بينما كانت الهراوات تهوي على الأجساد محدثةً صوت ارتطام. فتعالت الصيحات والشتائم. كان أحد مّا ينتحب خلفه. التفت مندهشا، لقد كانت سكرتيرة «هالاما» تمسح دموعها. ثمّ سرعان ما هزّت رأسها معتذرة كما لو أنّها فعلت شيئا غير لائق وقالت: «لا شيء، لا شيء».

تدفّق من الخراطيم تيّارٌ من الماء في اتّجاه هدف محدّد، فارتفع الصياح أكثر وازداد عدد الفارّين ثمّ ظهرت صورة قريبة لوجه يغمره الماء وشعرٍ مبلّل وعينين أعماهما الماء .

نظر «بافل» إلى «هالاما» الذي كان يزمّ شفتَيه الرفيعتين وتعلو وجهه الكئيب ملامح النفور. هل كان ذلك تأثير ما حدث عليه؟ كلّا. الراجح أنّه بسبب ما تمّ تسجيله بوضوح شديد على الشريط. ثمّ قال: «لا تفكّر مجرّد التفكير في عرض أيّ شيء من هذا!».

همست السكرتيرة من وراء «بافل»: «لماذا يفعلون هذا؟»

لم يكن سؤالها موجّها إليه بل كان أحد الأسئلة التي طرحها هو

نفسه. ولكنّه الآن فقط، وعندما طرحه غيرُه، عثر على إجابة: «إنّهم يريدون شيئا مختلفا.»

«لكنّهم لن يحصلوا عليه هكذا».

«لعلّهم لا يبحثون عن شيء محدّد بالمرّة.»

التفت إلى الشاشة، لقد نجح في التقاط صورة شاملة للجموع الفارّة. كان التراجع إلى الخلف قد نُفِّذ بشكل جيّد، بالإضافة إلى أنّه منظّم.

منذ ما يقارب ثلاثين سنة، أراد هو أيضا شيئا مختلفا، أراده بشدّة إلى حدٍّ جعله يحاول الهرب من البلاد. لم يكن ذلك بسبب مطاردته بالهراوات مثلما يحدث اليوم. ففي ذلك الزمن، لم يكن التظاهر مُجديًا، فلا أحد كان سيحضر المظاهرة. لماذا حاول الخروج من البلد إذَن؟ لقد كان سؤالا مازال يجد صعوبة في الإجابة عنه. ربّما لأنّ والده هجر أمّه ولم يكن يتحمّل البقاء في بيت نصف فارغ. كان يرغب أيضًا في السفر ومشاهدة الهنود وجزيرة «اليوكاتان» وأهرامات «المايا». حتّى إنّه ذهب إلى السفارة المكسيكيّة وعرض عليهم العمل دون مقابل. فسألوه عن المهارات التي يمتلكها. ورغم أنّه كان يجيد التصوير الفوتوغرافيّ والقليل من اللغة الاسبانيّة، فقد اعتذروا منه متعلّلين بوجود أناس كثيرين مثله، فلو كان طبيبا لفكّروا ربّما في تشغيله. لذلك فكّر في الهرب وقرّر «بيتر» الذهاب معه.

التقى «بيتر» مصادفة. كان كلّ منهما يلتقط صورا في حديقة الحيوانات، في الجزء المخصّص للزواحف، عندما تجاذبا أطراف

الحديث أوّل مرّة. قال «بيتر» إنّه يريد صنع أفلام عن الحيوانات البرّيّة: أسود الصحراء والنمور في الأدغال والكنغر في الأحراش والأفاعي الجرسيّة وأفاعي الرمال التي تتشمّس على الصخور. كان «بيتر» مهتمّا بالأفعى لما تحمله من رمز. «إنّ الثعبان أكثر مكرًا من أيّ حيوان خلقه الله على الأرض»، قال مستشهدا من الإنجيل. فالأفعى أغوت الإنسان ليكون فضوليّا وجعلته يتوق إلى المعرفة وهكذا أمست ترمز إلى الشرّ والإرادة الشيطانيّة رغم أنّها لا ترمز إلى ذلك في كلّ مكان ولا عند الجميع. لقد كان «بيتر» يحبّ استعراض معارفه. كان بعض الفراعنة المصريّين يرتدون أربطة للرأس برونزيّة اللون على شكل أفعى يعتقدون أنّها ستحميهم من الشرّ. وقد اعتقدت بعض القبائل الإفريقيّة أنّ الأفعى كائن سماويّ. أراد «بيتر» دراسة علوم الدين، فقد كان مأخوذا بكلّ أوجه العلاقة بين الإنسان والإله، وبأيّ شيء يحيل على قوّة خارقة. كان ثمّة شيء دغمائيّ في طريقة كلامه، كما لو أنّه يحاول دوما بإلحاح تبليغ شيء مّا بصوت حادّ وبصورة مزعجة ممّا قد يمثّل له إعاقة إذا فكّر في أن يصبح واعظا دينيّا، لكن لم يكن لذلك أيّة أهميّة في المحادثات مع «بافل». فقد كان أهمّ شيء لديه أنّه هو أيضا يتوق إلى السفر وزيارة الأرض المقدّسة وروما وأثينا ومدينة كورينثوس اليونانيّة وإفسوس ومعابد الأقصر وبالينكو. لقد تقاسما أمانيهما السرّيّة في أوّل لقاء لهما، وحاول كلٌّ منهما التفوّق على الآخر من خلال استعراض معارفهما. لكن لا أحد منهما كان يملك أيّ أمل في رؤية ما كانا يتوقان إلى رؤيته يتحقّق أو حتّى إلى اجتياز الحدود لأنّها كانت مغلقة بواسطة الأسلاك الشائكة التي ترمز إلى شيء مّا، مثل

الأفعى. فكيف لك أن تعيش كلّ حياتك وأن تتعلّم أو تحقّق أيّ شيء في بلد مسيّج بالأسلاك الشائكة؟

بدآ في وضع خطّة للهرب. في البداية كان الأمر بمثابة اللعبة لكنّهما استسلما تدريجيّا لغواية رغباتهما وخطواتهما المتكاملة التي ستأخذهما نحو هدفهما. من كان المحرّض على هذا الفعل الذي غيّر مجرى حياتهما؟ لقد كان أكثر براغماتيّة وله أفكارٌ أكثر عمليّة، لكنّ له أيضا أكبر قدر من المخاوف. أمّا «بيتر» فكان أقلّ اكتراثا بالإضافة إلى إيمانه الشديد بأنّ رحمة الله ومحبّته ستحميانهما عند قيامهما بما يرتّبان له، وهو ما قد يكون منافيًا للدين.

تبيّن أنّ «بيتر» كان على خطإ بشأن العناية الإلهيّة، لكنّ إيمانه جعل «بافل» يشرع أيضا في الإيمان بشيء مّا.

ما الذي كان يؤمن به فعلا؟

بألّا ينبغي أن تعيش بلا هدف وأن تتوقّع نتائج أفعالك وأن تعيش بطريقة لا تجلب الضرر ولا الألم لأيّ كان وأن تترك أثرا منك قبل رحيلك وأن يكون ذلك الأثر قطعة فنيّة. لم يكن، في ذلك الوقت، واثقا تمامًا من الشكل الذي ستأخذه لكنّه كان يعلم أنّه يملك القوّة لخلقها.

بدت خطّة الهرب النهائيّة بسيطة على نحو بارع. سيجتازان الحدود من ناحية الشمال حيث لا توجد أسلاك شائكة ويواصلان المسير في اتّجاه البحر ثمّ يأخذان قاربا. فالهرب بعيدا في قارب يبدو أسهل من اختراق الأسلاك وتسلّق الجدار والسباحة عبر النهر المراقب بشدّة

بواسطة دوريّات عسكريّة. لكن لسوء الحظّ لم يكن الأمر سهلا كما كانا يتخيّلان. فالإله الذي ظنّ «بيتر» أنّه يحميهما، كان منشغلا على نحوٍ واضح بمخاوفه ذات الأبعاد الكونيّة حيث لا وجود لمكان لهما.

شارف التسجيل على الانتهاء، وكلّ ما تبقّى في المشهد هم الفائزون وبرك المياه الموحلة ورجال كثيرون كانوا يراقبون ما يحدث من فوق الرصيف باهتمام احترافيّ. حاول «بافل» تثبيت وجوههم في ذاكرته. لماذا؟ تحسّبًا، لا غير.

وقف «هالاما» في ازدراء وبدأ أحدهم بالتصفيق خلفه وانضمّ إليه آخرون كثرٌ. هل كانوا يصفّقون لإنجازه المهنيّ، أم للفائزين، أم لبرك المياه الموحلة، أم للعدوّ الذي تلاشى للتوّ؟

كلّنا نصفّق بناء على الطلب، غير أنّنا نخاف الجميع.

(2)

كان الولد يرتدي بذلة حارس مرمى لائقة، بلونَي الفهد: قميصا أسود جيرزي وشورت رياضيّا أصفر. كان طويلا بالقياس إلى سنّه، لكنّه يظلّ قصيرا جدّا لقطع الطريق على رميةٍ أدنى من العارضة قليلًا.

وقف «بافل» وراء المرمى وسأله عن سير المباراة.

«جيّدة، لكنّ الحظّ حالفني، فقد اصطدمت الكرة بالقائم»، قال الولد مشيرا إلى جانبه الأيمن. «لم ألمس الكرة بعدُ. من الجيّد أنّك أتيت، «بافل». فلم أعرف البتّة متى أتحرّك إلى الأمام».

«أوّلا عليك أن تقرّر بسرعة. فعندما يأخذ خروف أو خنزير برّيّ

في أحلام اليقظة، يفوّت على نفسه اللحظة الحاسمة للهرب ويفهم الفهد ذلك». شعر أنّه يتكلّم مع الصبيّ بغرابة، وكان في الواقع يتحدّث عن تجربته مع «بيتر».

تحرّكت اللعبة في اتّجاه المرمى فشعر بالسعادة لأنّه لن يكون مضطرّا إلى الكلام. فمتى كان قادرا على التصرّف بسرعة وبحزم؟ لقد أمسكوا به مرّة، ومنذ ذلك الحين وهو لا يحاول سوى الابتعاد عن طريقهم، فقد يكون الحيوان قادرا على معرفة متى تكون حياته وحرّيّته مهدّدتين. ولكن هل يستطيع الناس ذلك؟ إنّهم يعتقدون أنّهم يركضون نحو حرّيّتهم، وهم في الواقع يندفعون بتهوّر نحو الفخّ.

«الآن، الآن!» صاح في الصبيّ وهو في زيّه الأسود والأصفر. غادر الصبيّ مكانه ليواجه لاعبي الهجوم، ونجح في الوصول إلى الكرة، وتصدّى لها بقبضته، وأعادها إلى أرض الملعب. ثمّ وقف بعض الوقت عند حافّة المربّع ونظر إلى تراجع مجموعة اللّاعبين نحو الوراء.

«كيف كان ذلك؟» قال عندما عاد إلى البيت.

«كان رائعا، «روبين»، لقد وصلت إلى الكرة أوّلا».

فقال الفتى: «أحتاج إليك كي تقف هناك طوال الوقت وتخبرني متى أتحرّك».

أراد إخباره بأنّ ذلك لن يؤدّي إلّا إلى تدميره بوصفه حارس مرمى، لكنّه تمالك نفسه .

كم كان لعمر ابنه أن يكون اليوم؟ لو كان فعلا صبيّا. كلّما فكّر

بالطفل، فكّر فيه بوصفه ابنًا له. كيف كان سيعامله؟ هل كان سيكون أبًا جيّدا؟

ربّما قمت بشيء جيّد، قال في نفسه، سآخذ هذا الفتى معي في سيّارتي وأنصحه متى ينطلق لالتقاط الكرة. لكنّي أعرف أنّي أستطيع التخلّي عنه وعن أمّه متى أردتُ دون أن أفقد شيئا. غير أنّه ليس ابني في الحقيقة، ولن يكون أبدا، ويُحتَمَل ألّا تصبح أمّه زوجتي أبدا.

إثر المباراة، انتظر الصبيّ حتّى يستحمّ ويغيّر ثيابه. وعندما صعدا إلى السيّارة لاحظ الخاتم الذهبيّ اللمّاع الرخيص في إصبع «روبن». لم يكن متناسقًا مع بنطاله الجينز مطلقًا. لا شكّ أنّ «إيفا» هي التي اشترته له. فقد كان ذلك في صلب عملها، بل عملهما. لم يسأل يومًا عن شيء أكثر ممّا كان يحتاج قطعًا إلى معرفته.

كانت «إيفا» تقطن في الطابق السابع لبرج سكنيّ وتتكوّن شقّتها من غرفة واسعة واثنتين أصغر حجما منها. وكان زوجها السابق يسكن في الحجرة الكبرى. إنّه شخص هادئ ودمث، ويعمل ميكانيكيّا، يقضّي أغلب الوقت خارج البيت في أعمال الإنشاءات. ربّما كان بوسعه أن يجد لنفسه شقّة جديدة، لكن لا يبدو أنّه يبحث عن واحدة. فهذا النظام يلائمه حتّى يبقى قريبا من ابنه وربّما يريد أن يبقى قريبا من زوجته السابقة أيضا.

لم تخبره قطُّ بسبب انتهاء زواجها. لكنّه يفترض أنّ السبب هو أنّ زوجها لم يكن ناجحا أو مهمّا بما يكفي. فقد كانت ترى «بافل» رهانا أفضل، فالنجاح مثل الأهميّة، كلّها أشياء نسبيّة. «إيفا» هي من عثرت

عليه بنفسها منذ سنتين عندما شاهدت فيلما له عن الطلاق وتأثيره على الأطفال وكتبت له عنه. لقد كانت في وضعيّة مشابهة وأرادت أن تلتقي به وتطلب نصيحته.

كان الفيلم وثائقيّا، وقد أخرجه هو وظهر فيه وهو يعالج قضيّة طاردته منذ طفولته. وقد أسعدَه أنّ الفيلم وجد صدًى لدى أحدهم. فردّ على رسالتها وأعطاها عنوان بيته. وذات مساء، بعد أيّام عديدة، دقّت جرس منزله. قدّمت نفسها وسألته في تردّدٍ عمّا إذا كانت أزعجته أو أزعجت زوجته. كانت ترتدي تنّورة قصيرة بلون أزرق مائل إلى البنفسجيّ وكنزة بلون أحمر يميل أيضا إلى البنفسجيّ وحذاء جلديًّا طويل العنق بنفسجيًّا داكنا وتضع شريطا بلون اللّازورد الأزرق على شعرها المصبوغ بالأحمر وتتدلّى من أذنيها أقراط من اليشب الأخضر. أكّد لها أنّها لا تزعجه وأنّه غير متزوّج وأنّ أمّه ليست بالبيت. كان من الواضح أنّها فرحت لسماع ذلك، وخَطَت إلى الداخل دون دعوة ووركاها يتمايلان فتحدث أساورها رنينا مع كلّ خطوة. جلست على كرسيّ مواجه له ونظرت إليه بشغف وهي تضع ساقا فوق الأخرى ما جعل تنّورتها ترتفع إلى أعلى. سألها كيف يمكنه مساعدتها فقالت إنّه سبق وقدّم لها الكثير إذ صوّر الفيلم ومنحها فرصة مشاهدته. أخبرته، دون أن تزعجه بالتفاصيل التافهة، أنّها كانت تعيش مع رجل لا يمكنها الشعور نحوه بالاحترام. تزوّجته لأنّها كانت حاملا ولم يكن بينهما حبّ. كانت طريقتها في الحديث غريبة، تتلعثم وسط الجُمل وأحيانا لا تكملها. ورغم أنّ ملامح وجهها عاديّة، فقد كان كلّ ما تقوم به من حركة أو نظرة يوحي بشيء

من الوقاحة والجرأة. عندما فرغت من قصّتها التزمت الصّمت وبدا أنّها تنتظر أن يعانقها. وإذ لم يفعل نهضت وتقدّمت نحوه وقالت: «أريدك أن تمارس الحبّ معي».

عندما دخل بافل إلى شقّة إيفا، أطلّ الكلب «آرغوس» برأسه ليلاقيه، غرس مخالبه الكبيرة في صدره ولعق وجهه. عندها فقط ظهرت إيفا، بماكياج وضعته حديثا مثلما تفعل دائما، فطَلَت شفتيها بأحمر الشفاه وجدّدت ظلال العينين على جفنيها ورفعت شعرها الأحمر إلى أعلى. كانت جاهزة تماما لتمرّ مباشرة أمام الكاميرا. وكان عليه أن ينحني قليلا حتّى يطبع قبلة على شفتيها. ابتسمت له. لقد فعلت كلّ ما في وسعها لتشدّه إليها. إذ حاولت أن تعامله بلطف وأن تكون متسامحة مع تصرّفاته الغريبة الأطوار، ومع غيابه من حين إلى آخر وحالات صمته. بل إنّها ذهبت معه لزيارة والدته، دون أن تنسى أخذ الزهور معها دومًا رغم أنّ والدته لا تلبث أن تنسى أمرها بمجرّد مغادرتها. كانت تغسل له ثيابه وتطبخ له الأكل وتمارس معه الحبّ وتصغي إلى ما يقوله. وعندما يلوذ بالصمت وقتًا طويلًا، كانت تتذمّر من كونه لا يتحدّث إليها إلاّ نادرا.

ما الذي كان يتحدّثان عنه؟

عن الحياة، طبعًا.

ما الحياة؟

الحياة كومة من أشياء عديدة، تراكمٌ هائل لثياب قديمة وأنابيب وكريات وآلات للفرم ومطاحن قهوة. إنّها أيضا أعداد ضخمة من

الأسلاك والمصابيح والمرايا والكاميرات والأشرطة المسجّلة والمقصّات وخراطيم المياه.

خلع كنزته ودلف إلى غرفة الجلوس.

كان التلفاز يعمل في الزاوية كالعادة ولا أحد يشاهده. وكان الصوت منخفضا، فظلّ برهةً يشاهد مغنّية صامتة تلوّح بيدها على نغمات الإيقاع بينما ترتطم الأمواج بالصخور خلفها ويحلّق طائر النورس في الأعلى. صور باهتة وخاوية من أيّ معنى، ولكن مَن ذا الذي مازال يملك أفكارا جيّدة؟ من ذا الذي يملك وجهة نظر؟ من ذا الذي يقوم بعمل لائق؟ هو. أو على الأقلّ مازال بوسعه ضخّ الحياة في أكثر المواضيع قسوة عندما يسمحون له، يوما مّا، بعرض ما يستطيع القيام به حقّا...

قال الصبيّ وهو يقترب منه: «خمّن ماذا لدينا على العشاء؟».

فهزّ رأسه نافيًا.

«دجاج مقليّ. إنّها وجبتك المفضّلة».

«أنا آكل كلّ شيء».

«ما عدا فطائر البطاطس».

«يمكنني الاستغناء عن فطائر البطاطس، فأنا لا أستطيع ابتلاعها». قال ذلك متظاهرا بالتقيّؤ.

فضحك الصبيّ قائلا: «أبي يحبّها». ثمّ توقّف قبل أن يستأنف

الكلام وهو يشعر بشيء من الإحراج:

«كان بالأمس هنا، لقد اشترى لي هذا الجينز».

«والخاتم».

«أجل، هل أعجبك؟»

«دعني أرى». أخذ الخاتم من الصبيّ يتفحّصه وقال وهو يتحاشى إجابته على السؤال: «لم أضع يوما خاتما في إصبعي». كان الخاتم يحمل علامة مميّزة، وربّما كان إرثا عائليّا، فذات يوم كان لجدّ الصبيّ من والده مصنع ووقع تأميمه، لكن يبدو أنّ الدولة أجازت للعائلة الاحتفاظ بالمجوهرات. ولعلّ المجوهرات هي التي جعلت إيفا تنجذب في البداية إلى زوجها. لكن إمّا أنّه لم يكن ثمّة ما يكفي من الميراث للجميع أو أنّه لم يكن ثمّة ما يكفي ليعوّض عن عيوب هذا الوريث المعدم.

لم يرث بافل شيئا. فعندما ألقي القبض عليه كان يلبس معطفا ثقيلا رثّا ويملك عشرين ماركة في جيبه وبعض الخرائط في حقيبة ظهره، خريطة ألمانيا، وواحدة لبلجيكا وأخرى لمكسيكو تعود إلى أربعين سنة. كان ذلك هو كلّ ما استطاع امتلاكه. ولمّا سألوه: فيمَ تحتاج إلى خريطة مكسيكو هنا؟ قال: كنت أريد مقايضتها بخريطة محلّيّة. فسدّدوا إليه لكمة على وجهه وأمَروه بالتوقّف عن الكذب. لكنّه صمد أيّاما عديدة رغم ذلك. أخبروه أنّه لا جدوى من الإنكار لأنّ بيتر اعترف. وقد كان ذلك متوقّعا، فالكذب ليس من طبع بيتر. لكنّ بيتر لم يتكلّم، في الواقع، إلّا عندما أخبروه بأنّ بافل اعترف. لقد وقعا

كلاهما ضحيّة أقدم حيلة في الكتاب، فقد كانا لا يزالان شابيّن، ساذجين وتنقصهما الخبرة.

عندما يعود بذاكرته إلى تلك المرحلة الفاشلة من حياته، يخطر له أنّ أسوأ ما فيها لم يكن الأبواب المقفلة ولا صراخ الحرّاس ولا حقيقة أنّه لا وجود لما يكفي من الطعام وأنّ القليل الذي يملكونه كان يسرق منهم غالبا، بل أسوأ شيء أنّ كلّ شيء كان متخمًا بالأكاذيب. كانت الوضاعة والخبث والخسّة تختبئ وراء كلّ كلمة وكلّ إيحاء وكلّ وعدٍ وكلّ ابتسامة. ولم يفهم إلّا لاحقا أنّ الوقت الذي أمضاه في السجن كان أفضل تمرين يمكنه أن يحظى به للحياة التي تنتظره في الخارج. كان على الجميع أن يستعدّوا لذلك، أمّا هو فقد حظي على الأقلّ بدورة مكثّفة .

غادر الصبيّ الغرفة وعندما فتحت إيفا الخزانة لأخذ غطاء الطاولة، رأى كثيرا من الكنزات الملوّنة والملفوفة بورق السيلوفان فسألها: «ما تلك الأشياء؟»

«لقد أحضروها لي بالأمس إلى المحلّ فاحتفظت ببعضها. بالتأكيد سوف تحقّق مبيعات جيّدة. فهي مصنوعة من صوف جزيرة الشاتلاند». ثمّ أخذت واحدة من فوق الرفّ ونزعت عنها الغطاء.

«أعلم. فأنت تملكين حرفاءك الخاصّين بك».

«أملك حرفاء أكثر من البضاعة».

«يوما مّا ستمتلكين متجرَك الخاصّ ولن يكون عليك جرّ هذه

الأشياء معك إلى البيت».

«هل تعتقد ذلك؟» قالت مبتسمة بسعادة كما لو أنّه أخبرها بأنّه يحبّها. كانت تتوق إلى فتح متجر خاصّ بها، لكنّها في الحقيقة لا تستطيع تخيّل ذلك. فأغلب الناس لا يستطيعون تخيّل أيّ حياة مختلفة عن التي يعيشونها في حاضرهم. يمكنهم أن يحلموا بها، يمكنهم حتّى الخروج إلى الشارع والتظاهر من أجلها لكنّهم مازالوا لا يستطيعون تخيّل شكلها.

ذكّرته ابتسامة إيفا بابتسامة ديتا الخجولة في فيلم «الجينسن» وقد مسّ ذلك مشاعره. ربّما عليه أن يمضي معها مزيدا من الوقت وأن يعاملها بلطف أكبر، فهي كلّ ما لديه. وبينما كانت منحنية على الخزانة، اقترب منها وداعب شعرها.

نظرت إليه مندهشة وقالت: «هل من أمر مّا؟»

«لا، لا شيء، لا شيء على الإطلاق. لماذا؟»

ذهبت إلى المطبخ لتعود بالعشاء بعد وقت قصير. فتلاشى، في الأثناء، شعوره المفاجئ بالدفء نحوها. فلا وجود لشيء مشترك بينها وبين ديتا، ثمّ إنّ سلوكها لا ينمّ عن الخجل، فضلا عن يقينه من أنّها تقدّر النجاح أكثر من اللطف والرحمة. فالنجاح يعني الربح، أي الشراء بثمن رخيص والبيع بثمن باهظ. معادلة بسيطة، وسواء كانت تحمل بداخلها الرحمة واللطف أو لا تحملها، فمن الواضح أنّه تأقلم معها. كان يعرف كيف يبيع مهاراته وذاته.

لم تتناول إيفا سوى لقمتين. فقد كانت تخشى زيادة وزنها رغم أنّه لا وجود لخطر كهذا. فهي ذات قوام جميل بنهدين صغيرين، ووركين نحيفين ورقبة طويلة. لقد صوّرها عارية مرّات عديدة، غالبا دون أن يكشف وجهها. فقد يبدو وجهها جميلا وراء النُّضد لكنّه ليس ملائما للظهور على غلاف مجلّة. كان ينقصه شيء مّا، ذاك الشيء الذي يجعله مميّزا مثل وحمة، أو ندبة صغيرة أو شامة ولكنّ الأهمّ من كلّ ذلك أنّه غير مثير للاهتمام.

قال لها: «يبدو أنّني سأصوّر فيلما عن الشيف العظيم».

«فكرة جيّدة، أليس كذلك؟»

«أفضّل تصوير الحيوانات على تصوير البشر. الحيوانات الضخمة بالتحديد، لكن من ناحية أخرى ليس بمثل ضخامة هذا بالذات ولا في مثل سنّه، وطبعا ليس من النوع الذي قد يرسلونه إلى المسلخ».

نظرت إليه في اندهاش، فهي لم تتعوّد الاستماع إليه يتحدّث بتلك الطريقة. «هل هذا يعني أنّك سترفض العمل؟»

«إنّهم لم يعرضوا عليّ العمل بعد».

عندما كُلّف، أوّل مرّة، بتصوير الرئيس، شعر بالفخر. فبلوغ ذاك المستوى الرفيع عزّز من مكانته وجعله أقلّ هشاشة. ثمّ إنّ حياة الرئيس، المليئة بالنجاحات والإخفاقات، كانت موضوعا مغريا لفيلم. لكنّ أشياء كثيرة تغيّرت في السنوات الأخيرة. فنفوذ الرئيس تراجع وكذا مكانة كلّ الذين كانوا على صلة به. وربّما من الأفضل

رفض العمل. لكن ماهي الحجج التي يمكنه تقديمها؟ هل يقول إنّه متعب؟ أو إنّه يعاني من اضطرابات في القلب؟ قد يحتاج إلى طبيب يدعم رأيه. لكن في المقابل، لم تكن تروق له فكرة أن يتحصّل أحد آخر على العمل. فالرّؤساء يأتون ويذهبون والرئيس الذي سيأخذ مكان الرئيس الحاليّ سيحتاج إلى أحد لتوثيق إنجازاته. وعندها مَن سيختار؟ سيختار ذلك الذي يستطيع التأثير في الآخرين بفضل مهارته وخبرته. كلّا، يجب ألّا ينسحب من اللعبة، ولا لثانية واحدة. فالأمر الوحيد والأكثر أهميّة، الأمر الذي يجب أن يدركه في الوقت المناسب هو متى تنتهي اللعبة القديمة وتبدأ لعبة جديدة.

ازدرد لقمة من الطعام بسرعة. فسواء عرضوا العمل عليه أو على غيره، لن يسمح له أولئك الذين يتحكّمون بزمام الأمور بعرض أفلام حقيقيّة، ولن يتطلّعوا إلى أعمال فنيّة أصيلة وفريدة من نوعها. .سأل إيفا مغيّرا الموضوع: «هل تلقّيت أيّ ردّ على الإعلان؟»

فأجابته بغبطة: «أجل، هل تريد أن ترى؟»

كانت تتوق إلى الحصول على منزل خاصّ بها وتجمع المال من أجل ذلك، وتفترض أنّه هو أيضا يفعل هذا. لكن حتّى حدوث ذلك كانت تحاول على الأقلّ الانتقال إلى شقّة أخرى. فلعلّها تعتقد أنّها حالما تمتلك شقّة خاصّة بها ستمتلكه هو أيضا وسيتزوّجها في النهاية وينسى أمر الرحيل في أيّ وقت يشاء. لكنّه لم يؤكّد ظنّها ولا نفاه. تفحّص الإعلانات. سيكون عليهما، من حين إلى آخر، أن يدقّا الأجراس ويلقيا نظرة على الشقق التي كان بإمكانه، لحسن الحظّ، أن

يعتبرها سيّئة أو تلك التي لم تعد متاحة. فلم تكن لديه أيّ رغبة في اقتناء قفص سيكون عليه أن يتّخذ منه بيتا يجمعه بها .

التقط الملفّ الجلديّ وتصفّح الأوراق داخله.

«هل أعجبك شيء؟»

هزّ كتفَيه غير عابئ.

«جاء كوسيرا أمس»، دائما ما تدعو زوجها السابق باسم عائلته. «لا أرغب في مصادفته طوال الوقت».

«أخبرني روبن بذلك»، قال بافل ذلك ونهض من الطاولة دون أن يكون هناك مكان يذهب إليه. إنّه يرتاد هذا البيت منذ سنتين، لكنّه لم يجد بَعْدُ ركنًا في الشقّة يمكنه أن يسمّيه ملكه .

نهضت هي أيضا ووقفت على مقربة منه في انتظار أن يعانقها، ثمّ قالت له: «أفكّر أحيانا أنّك لا ترغب حقّا في أن تكون معي».

«ما كان لي أن أكون مع أيّ كان لو أنّي لم أرغب في ذلك». أجابها مستخدما سطرا كان قد سمعه في سلسلة تليفزيونيّة، لكنّ ذلك الردّ أراحها في تلك اللحظة أو ربّما تظاهرت بذلك.

ما معنى أن تكون مع أحدهم؟

أشعل سيجارة وانتظر. جاء الصبيّ ليتمنّى له ليلة سعيدة، وفتحت إيفا الأريكة وحوّلتها إلى سرير، ثمّ دلفت إلى الحمام.

منذ زمن طويل لم يكن على علاقة بأحدٍ. وفي وقت مّا كان لديه

عدد من الأصدقاء لكنّهم ابتعدوا وأخذ مكانهم زملاؤه في العمل، وكان البعض منهم يتزلّف إليه بينما يراقب الآخرون وينتظرون أن يرتكب خطأً ليأخذوا مكانه. حتّى زمن قريب، كان من حين إلى آخر يبقى مع أمّه لكنّها شاخت فجأة وبدأت تفقد إحساسها بالزمن واهتمامها بالعالم من حولها. كانت أحيانا تتحوّل فجأة ومن دون توقّع إلى عدائيّة. قد يشفق عليها لكنّه لم يعد قادرا على البقاء معها.

كان يغمره شعور بالقلق، فهو يرغب في الذهاب إلى مكان مّا وفِعْل شيء مّا وتغيير شيء مّا والعودة إلى مكان مّا.

فتح خزانة الشراب، كانت هناك قنّينة كونياك وكأس واحدة فقط من أجله. فنزع السدّادة وارتشف منها جرعات .

كان الحمّام فارغا، فدخل للاغتسال ثمّ مشى في هدوء على أطراف أصابعه أمام الغرفة التي يعيش بداخلها أحيانا الزوج السابق، ثمّ انزلق في الفراش إلى جانب إيفا. أخذها بين ذراعيه ودون أن يتفوّه بأيّ كلمة داعبها بعناية، تماما مثلما فعل بالأمس ومنذ سنة، ثمّ وضع كفّ يده على بطنها لأنّه يعلم أنّها تحبّ ذلك وتستطيع أن تنام بشكل أسرع. وبينما كان يفعل ذلك نظر إلى العتمة التي تخترقها إضاءة خافتة منبعثة من مصابيح الشارع وإلى نوافذ البرج السكنيّ المقابل. كان يخشى ألّا ينام، ففي الآونة الأخيرة غدا يعاني من اضطرابات في النوم أكثر فأكثر. ليته كان فقط يملك شيئا يفكّر به، لكن لا شيء في مستقبله القريب يبدو جديرا بذلك الجهد. فما جدوى أن يعيد في رأسه تقليب الصور القديمة نفسها والقصص القديمة ذاتها؟ كان عليه أن يخترع

صورا وقصصا جديدة. لكنّه الآن أتعبُ من أن يفعل ذلك. فكلّما بدأ قصّة جديدة هذه الأيّام، شعر بالضجر منها قبل أن يفرغ من أمرها.

أرسلوه إلى غرفة عمليّات ليصوّر كبير الجرّاحين الذي كان على وشك أن يُمنح جائزة من الدولة. فلم يسمح له الجرّاح بإضاءة الغرفة كما ينبغي، إذ يبدو أنّ الأسلاك لم تكن معقّمة. غضب بافل جدّا وأراد أن يجمع كلّ عدّته ويغادر المكان أو يرفض على الأقلّ تشغيل الكاميرا لولا أنّه كان مأخوذا بيدَي المرأة الشابّة التي تمرّر الأدوات إلى الجرّاح. أراد أن يرى الوجه الذي يتماشى مع تينك اليدين لكنّه كان مخبّأ خلف الكمّامة. فلم تَبِنْ غير عينين زرقاوين وحزينتين تحت جبهة عريضة، وكان لون عينيها الأزرق نادرا إلى درجة جعلتهما تبدوان غريبتين.

سأل رجلا يلبس مئزرا أبيض عن اسمها.

«تلك ألبينا»، أجابه الرجل.

«اسم غريب».

«إنّه يناسبها».

كم مضى من الوقت منذ ظهورها في حياته؟ وكم مرّةً كرّر ذلك المشهد في ذهنه؟ غير مهمّ. لعلّ ذلك يساعده على النوم. إنّه الخريف والأوراق تتمايل متهاوية على البوّابة .

لم يتعرّف عليها تقريبا لأنّها لم تعد ترتدي الأبيض، وكانت الريح تعبث بتنّورتها الحمراء فبدت شفتاها الكبيرتان شهيّتين .

«عذرا آنسة ألبينا، هل تسمحين لي ببعض الوقت؟».

«كيف تعرف اسمي؟ أنا لا أعرفك».

«كنت ذلك الذي وراء الكاميرا في غرفة العمليّات هذه الظهيرة».

«ماذا تريد؟»

«لا شيء، حقّا».

«إذَن لا تزعجني، فأنا على عجلة من أمري».

«هل يمكنني أن أرافقك قليلا؟».

«شكرا. أشعر أنّني بخير وأنا بمفردي».

«هل تمانعين في أن نلتقي هنا يوما مّا عندما لا تكونين على عجلة من أمرك؟».

«أنا دائما على عجلة من أمري».

تظلّ بعض المحادثات راسخة في الذهن. ويكون الحديث الأوّل هو الأكثر ثبوتا في الذاكرة عادةً، يليه الحديث الأخير. فعادة ما تصاحبهما تعابير الوجه ذاتها. حاولت أن ترسم تعابير صَدٍّ قاسية على وجهها لكنّ ذلك لم يغيّر من ملامحها الرقيقة. ظلّ يراقبها وهي تبتعد، وكانت تبدو أصغر حجما ممّا هي عليه في الحقيقة كما لو أنّها قد انسحبت إلى داخلها. قد يكون ذلك بسبب البرد، فقد بدأ المطر بالهطول ولم تكن ترتدي معطفا .

كان اليوم الموالي هو آخر أيّام التصوير في المستشفى، لكنّها لم تكن تعمل. قال له الرجل الذي كشف له عن اسمها بالأمس إنّها تعمل في

المناوبة الليليّة.

في صبيحة اليوم الموالي كان بانتظارها في مدخل المستشفى يحمل باقة من الزهور.

لمَ فعل ذلك؟ لم يكن يعرف. قد يكون مدفوعا بكبريائه الجريح، فلم يرغب في الاعتراف بأنّها رفضته.

«لا يمكنني أن أقبل منك الزهور».

«لكنّي ابتعتها من أجلك».

«لماذا؟».

«لإسعادك».

«لماذا تريدني أن أكون سعيدة؟».

«لأنّي أجدك جذّابة».

«لا أحبّ الذين يعملون في التلفزيون».

فقال معترضا: «هذه تفرقة».

«لا أحبّ الناس الذين يعملون في تلفزيوننا». صحّحت قولها مضيفة: «بسبب ما تفعلونه، وبسبب الناس الذين تعدّون عنهم برامج، مثل الجرّاح -إنّه ليس شخصا جيّدا».

«لماذا تعملين لديه إذَن؟»

«لأنّني ممرّضة. وقد كنت أعمل في غرفة العمليّات قبل مجيئه».

«ألا يمكنك ترك العمل؟»

لاذت بالصمت بعضَ الوقت ثمّ قالت: «ثمّة فرق. ربّما لا تستطيع الشعور بذلك، لكن لمَ عليّ أن أشرح لك؟» ثمّ هزّت كتفَيها غير عابئة وتركته وابتعدت. فأخذ الزهور إلى والدته.

بعد أسبوع حاول معها مجدّدا تاركا تذكرتين لحفلة عند بوّابة المستشفى مع بطاقة كُتب عليها: أرغب في أن تأتي. لكنّها لم تفعل.

سيبلغ الخامسة والأربعين خلال أسابيع. ما الذي حقّقه في كلّ هذه السنوات؟ لقد صوّر أشرطة وثائقيّة قصيرة عديدة وقصصا كثيرة سرعان ما نُسيت. وهو نفسه نسي معظمها. رمّم بيتًا ريفيًا اقتناه بسعر زهيد من شخص ذهب في الآونة الأخيرة إلى المنفى (الحياة مليئة بالتناقضات.)، وملأه بأشياء لا تبعث في نفسه سعادة خاصّة. ونام مع نساء كثيرات لكنّه لم ينجب أيّ طفل .

تنام إيفا الآن نوما عميقا. لقد كانت جلّ النوافذ في البنايات الأخرى معتمة. فنهض من السرير، وارتدى ملابسه، ثمّ انسلّ خارج الغرفة وغادر الشقّة وهو يشعر بالارتياح.

كانت الشوارع أشبه بمقبرة. تذكّرنا المقابر بغطرسة البشر في كلّ مساعيهم. صعد إلى سيّارته «الفيات» الحمراء. الليل يساعده على القيادة بسرعة أكبر، وسيكون في بيته الريفيّ خلال نصف ساعة.

ما الذي سيفعله هناك؟

يمكنه العمل على بعض السيناريوهات والنصوص السينمائيّة التي

قد ينهيها يوما مّا ويصوّرها. ويمكنه أيضا أن يفكّر في مستقبله ويتأمّل ماضيه.

الصورة هي ذاتها دومًا: مكتب يثير الاشمئزاز يذكّره بغرفة تحقيق وبرئيس الموظّفين وهو يتصفّح بعض الوثائق وأغلب الظنّ أنّها ملفّات بافل: مجموعة من أعماله وذنوبه وجرائمه وادّعاءات ملفّقة وشعارات وتنديدات وأكاذيب. أخيرا رفع الرجل عينيه الداميتين المحاطتين من الأسفل بهالات سوداء قائلا: «تريد العمل في التلفزيون إذَن؟».

كان ذلك منذ سبعة عشر عامًا. في ذلك الوقت هزّ رأسه موافقا، وهكذا قرّر الانضمام إلى العدد القليل الذي تمّ اختياره لأخذ مكان أولئك الذين طُرِدُوا للتوّ. كان يساعد على تعويض أولئك الذين كان متعاطفا معهم حتّى تلك اللحظة.

غير أنّ ذلك لم يبدِ قرارا حقيقيّا على الإطلاق: كان ببساطة قبولا بالعمل. فالوظيفة كانت حقيرة وتافهة إلى حدّ أنّه لم يجد أيّ سبب لرفضها. ومع ذلك تناقش حولها مع والدته ومع بيتر وآليس. وكان رأي والدته أن يقبل بها. أمّا بيتر فقال إنّه شخصيّا لن يجتاز عتبة مصنع الأكاذيب ذاك. لكنّ آليس لم تكن توافقه، فقد قالت إنّ الأمر يعتمد على العمل الذي سيقوم به هناك وكيفيّة تصرّفه. فلدى الجميع الحقّ في القيام بالعمل الذي يتقنونه وما يريدون عمله حتّى لو أنكر الآخرون عليهم ذلك الحقّ. فلا ذنب له في الظروف التي نعيشها كلّنا، حسب قولها، حتّى إنّه حاول الفرار منها لكنّه لم ينجح. وتبعا لذلك أصبحت

حياته أكثر صعوبة على امتداد زمن طويل. كانت آليس تفهمه.

بدأ يعمل مساعد كاميرا مان، يجرّ الأسلاك هنا وهناك ويجهّز الإضاءة مثلما يُطلب منه.

ولكن من المؤكّد أنّه كان قرارا حقيقيّا في نهاية المطاف. فقد اعتقد أنّه سيحظى بترقية في عمله وسيتمكّن في النهاية من إنجاز برامجه وأفلامه الخاصّة به.

لقد كان مثابرا وصبورا ويعرف أنّهم سيسمحون له في النهاية بفعل ما يريده، وقد فعلوا هذا رغم أنّه كان عليه انتظار سنوات عديدة ليحدث ذلك.

كان القدر إلى جانبه، فقد اختطف رجلان باص مدرسة وطلبا أن يُسمح لهما بعبور الحدود. خلال العشرين سنة الماضية، أي منذ أن حاول الهرب، عرف العالم مزيدا من الأساليب المتطرّفة في اختراق حدود لم يكن مسموحا بها في السابق.

قطع حرّاس الحدود وعدًا للمختطِفَيْن بأنّهم سيحصلون على ما يريدون إذا تركوا الأطفال في حال سبيلهم. وافق المختطفان، لكن حالما تمّ إطلاق سراح الأطفال تراجع الحرّاس عن وعدهم. وسدّوا الطريق على الحافلة، ثمّ فتحوا عليهم النار فقتلوا أحد المختطِفَيْن وسائق الحافلة.

اكتشف بافل أنّ واحدا من الحرّاس المتورّطين في تلك الحادثة زميل دراسة قديم له. جعله هذا يسارع إلى اقتراح إنجاز

شريط وثائقيّ عن الحدث. فأعطاه المنتج الإذن بذلك ووافق زميل الدراسة على الالتقاء به حتّى إنّه وعده بأخذه للصيد في منطقة الحدود.

وما إن وصل، حتّى أعطاه زميل الدراسة عُدّة الصيد وزوجا من بناطيل الصيد وسارا على طول صفّ من علامات التحذير عبر منطقة مسيّجة بالأسلاك الشائكة إلى أن بلغ نهرًا يشكّل الحدود. مرّت قرابة العشرون سنة على محاولة هربه الأولى، ومع ذلك كان يشعر بالارتجاف مع كلّ خطوة.

انعطف النهر عبر وادٍ مشجّر، فلم تعد الأسلاك مرئيّة من تلك النقطة. جلس زميله في الدراسة، وهو الآن برتبة رائد، على صخرة مسطّحة ورمى الصنّارة. وكما لو كانا هناك حقّا من أجل الصيد، بدأ يحدّثه عن صعوبة اصطياد سمك الغرايلينغ المراوغ .

رمى بافل أيضا صنّارته في الماء لكنّه عوض أن يراقب حركة خطّاف الصنّارة وطَفْوَه فوق الماء، ظلّ ينظر إلى الحدود. فلأوّل مرّة في حياته، يرى بلدًا آخر على مرمى البصر، لكنّه لم يعد يرغب في الذهاب إلى هناك. لم يكن يشعر سوى بالفضول حول وجود جاسوس أو سائح تائه أو أحد حرّاس الحدود الذي قد يظهر فجأة من الجانب الآخر ليجده يشقّ مياه النهر على مسافة قريبة من الحدود التي تعبر منتصفه.

قفز الرائد من فوق الصخرة وسار أسفل مجرى النهر قائلا: «كن حذرا يا بافل من أن تتعثّر وتقع في الجانب الآخر. لا أحد يدري من

قد يكون مختبئا هناك خلف أشجار التنّوب تلك».

أومأ برأسه موافقا. فقد أدرك أنّ زميله في الدراسة، ذاك الذي يلبس زيّه العسكريّ، قد يتورّط في المتاعب حتّى لو لم يدُس على الخطّ الوهميّ. لقد جلبه هنا وهو يعلم علم اليقين أنّه منذ سنوات مضت، عندما حاول بافل الوصول إلى الطرف الآخر، قبض عليه سارقو الجثث من القبور، أولئك الذين كانوا يرتدون الزيّ نفسه الذي يرتديه الرائد الآن. لكنّ ذلك حدث منذ زمن طويل، والآن تغيّر كلّ شيء، وبافل هنا اليوم من أجل إعداد فيلم عنه وعن بطولته. إنّه يأمل أن تتمّ ترقيته من قبل رؤسائه عندما يشاهدون الفيلم على شاشة التليفزيون .

سأله بافل: «هل تأتي إلى هنا كثيرا؟»

«كلّ يوم إذا تسنّى لي ذلك»، أجابه زميله في الدراسة مواصلا: «لكنّي لا أكاد أفعل هذا إلّا مرّة واحدة في الشهر. ويصبح الأمر أسوأ عندما يؤدّي كبير الضبّاط زيارة. أودّ أن أحضرهم إلى هنا، لكنّهم يثملون دومًا ولا يمكن لأحد مجاراتهم. بالإضافة إلى أنّهم جميعا يريدون اصطياد طنّ من الأسماك، لذلك فقد خصّصنا بحيرة من أجلهم. إنّها في منطقة الحدود أيضا، لكن قبل بلوغ الأسلاك. كلّ ما عليك فعله هو رمي حبل صنّارتك وسحب السمكة. هذا لا يسمّى صيدا، إنّه أمر في غاية السهولة».

«وماذا عن كلا هذين المختطِفَيْن؟ ألم يكن أمرا في منتهى السهولة أيضا؟ أنا آسف، أعرف أنّك كنت تقوم بواجبك فقط».

«إنّه لأمر سيّئ جدّا أن يدفع السائق ثمن ذلك وليس الآخر ابن

الحرام. هذا ما يزعجني حقّا».

«ولكن هل كان يجب أن يحدث ذلك؟».

«ماذا تعني؟»

«أنا أسأل فقط».

«كانت لديهم بنادق وحافلة مليئة بالأطفال».

«لكنّهما أطلقا سراح الأطفال!».

«حالما قطعنا لهما وعدا بعبور خطّ الحدود».

«هذا ما أريد قوله -لقد قطعتم وعدا».

«هل تعني أنّه كان علينا أن نفي بوعدنا».

«أسأل فقط».

«لو تركناهما في حال سبيلهما لشهدنا محاولات أكثر خلال أسبوع واحد وأربعةً إضافيّة إثر ذلك. ثمّ سيأتي يوم ولن يُطلق سراح الأطفال أو يفقد أحدُهم أعصابه داخل الحافلة ويطلق النار عليهم جميعا».

«كنت فقط أسأل».

بدأ يشعر بالندم على مجيئه إلى هنا والسماح لنفسه بأن يُجرّ إلى هذا المكان وفي مثل هذه المناسبة. كان يشعر بالخجل من نفسه لعدم طرحه أسئلة أكثر حدّة والتعبير عن احتجاجه في وجهه بشكل أكثر وضوحا. فلو كانت الحدود مفتوحة من الأساس، لما دخل السجن في ذلك

الوقت ولما اضطرّ أحدٌ إلى اختطاف باص مليء بالأطفال فقط من أجل العبور إلى الطرف الآخر.

فجأةً تجمّد وجه الرجل الذي يرتدي الزيّ. ثمّ سحب الصنّارة على نحو مباغت. في مياه الجدول الصافية كان في وسع بافل أن يرى سمكة سلمون مرقّطة عالقة في خطّاف الصنّارة تتخبّط بشدّة محاولة إيجاد سبيل للنجاة تحت صخرة قريبة. أيّ أمل هناك في الهرب عندما نبتلع الطعم؟ وهل نحن على وعي بذلك أصلا؟

«هما من بدآ بإطلاق النار أوّلا وتفجير نوافذ مبنى الحراسة وسط صراخ الأطفال: اسمحوا لهما باجتياز الحدود وإلّا فإنّهما سيقتلاننا! فماذا كان بوسعنا أن نفعل إذَن؟ لا تظنّ أنّني أستمتع بإطلاق النار على الناس. إنّها المرّة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا منذ أن بدأت العمل هنا. وعلى أيّة حال فهو لم يكن قراري. في البداية جاء الجنرال ثمّ المدّعي العامّ وبعض الرجال الآخرين من الإقليم والمقرّ الجهويّ. هم من تفاوضوا وقطعوا لهم الوعود. ثمّ تلقّيت الأوامر: لا تسمحوا لهم بالعبور! لقد اتُّخِذ القرار في مكان آخر». قال زميله في الدراسة ذلك مشيرا بيده إلى القمّة وإلى المكان الذي طالما اعتقد الناس منذ الأزل أنّ السلطة التي تقرّر مصيرنا تقيم فيه .

انعرج بافل عن الطريق الرئيسيّة وهو يقود السيّارة عبر غابة صغيرة وقرية نائمة، ثمّ انعطف مرّة أخرى نحو طريق ضيّقة تحيط بها من الجانبين أشجار تفّاح قديمة. بعد مسير دقائق قليلة توقّف أمام البيت الريفيّ. كان يربض هناك وحيدا مهجورا ومظلما وكان المرج المحيط

به يغرق وسط ضوء القمر .

عندما خطا داخل البيت استنشق مزيجا من الهواء العفن ودخان الحطب والحشائش الجافّة. فأشعل الضوء وفتح النافذة على مصراعيها، ثمّ أسدل غطاء المنضدة المخصّصة للكتابة.

صبّ لنفسه كأسا من الفودكا وشغّل جهاز التلفاز الرابض على طاولة باروك صغيرة، ثمّ جلس بعض الوقت على أريكة يشاهد فيديوهات موسيقيّة. شاهدها حتّى يقنع نفسه بأنّ تلك الفيديوهات أو على الأقلّ تلك التي صُوّرت وفقا لآخر الصيحات صمّمت ببساطة لقصف المُشاهد بواسطة أجزاء مفكّكة من المعلومات وأشكال غريبة ومشوّهة حتّى ينتهي أخيرا إلى الإيمان بأنّ العالم فعلا بمثابة مستشفى للمجانين المبهمين والمنحرفين.

كان كلّما ذهب لزيارة والدته في الآونة الأخيرة يشغّل لها التلفاز، فتشاهده بعض الوقت ثمّ تقول: لقد رأيت هذا سابقا. ولا فرق إن كان ما يبثّ على التلفاز فيلما يُعرض لأوّل مرّة أو نشرة الأخبار أو حدثا رياضيّا: فقد كانت تقول دومًا إنّه شيء شاهدته في السابق. ومع هذا كان ذلك يعكس حكمة ما تزال تمتلكها رغم خرفها. أطفأ التلفاز من جديد. إنّها الثانية والنصف صباحا. يمكنه الذهاب إلى السرير الآن لكنّه لم يكن يشعر بعدُ بالنعاس. يمكنه الجلوس على مكتبه أمام حاسوبه ومواصلة العمل على كتابة السيناريو لكنّه كان متعبًا جدّا إلى حدٍّ يمنعه من ذلك. حدّق برهةً بمتعة في تصميمات إنتارزيا على ظهر المنضدة المخصّصة للكتابة، كان الرسم على شكل صورة رجل يجلس

وعلى رأسه ببّغاء. منذ زمن ليس ببعيد، حاول زميله وشريكه في لعبة التنس، وهو يدعى «سوكول»، أن يبيعه خزانة بزخرفة مشابهة لكنّه طلب فيها مبلغا باهظا.

ما مقدار المال الكثير؟ فلا شيء سيكون أقلّ سعرا من ذلك. لو أنّه امتلك بيتا حقيقيّا وليس فقط هذا البيت الريفيّ المعزول، الذي يمكن أن يقع اقتحامه وسرقته في أيّ وقت، لكان اشترى الخزانة. لكنّه لا يملك بيتا. ولو كان كذلك فمن ذا الذي سيدعوه لزيارته؟ أمّه، ربّما. لكنّ أمّه لن تعرف أنّه بيته. كانت ستنتبه إلى التغيير فحسب، والتغيير سيكون مؤلما بالنسبة إليها. لّما ذهب في الأسبوع الماضي لزيارتها، وجد صورة والده. نظرت إليه بريبة ثم سألته: «من الذي في الصورة؟».

«لا تقولي لي إنّك لا تعرفين مَن في الصورة؟».

فتردّدت بعض لحظات ثمّ قالت: «كان والدك رجلا وسيما جدّا. يمكنك الآن أن تأخذه بعيدا مرّة أخرى».

لذلك أخذ الصورة معه ووضعها في أحد أدراج المكتب. وها هو الآن ينهض ويخرجها من الدرج، لقد كانت من الصور الأولى التي التقطها في حياته. ولم تكن سيّئة بالقياس إلى مبتدئ. كان التناقض يبدو حادّا بشكل جليّ، وبدا وجه والده كما لو أنّه منحوت من الخشب، وهكذا فقد نجح بافل في الإيحاء إلى مهنة الرجل.

كان والده نجّارا متمرّسا، ينقش على الخشب في أوقات فراغه. وكان أيضا يحبّ قراءة السير الذاتيّة للمشاهير. فقد تعرّف بافل من خلال مكتبته الصغيرة على «شابلن» و«أينشتاين» و«هوس» و«بلزاك»

و«هنري الثامن» وتعيس الحظّ «ماكسمليان هابسبورغ» والأقلّ حظّا «آن بويلان». وباستثناء الاسمين الأخيرين فقط كان يتطلّع إلى أن يكون شبيها بكلّ واحد منهم على نحو مّا.

عندما اضطرّ إلى الانتقال بعيدا عن بيت والده تخلّى عن القراءة وبدأ يذهب إلى السينما. لكن لسوء الحظّ، كان اختيار الأفلام محدودا وكان معظمها أفلاما مملّة. فقد كانت تحثّ الناس على الاجتهاد في العمل ومحاكاة حياة الثوريّين، أو تعرض بؤس الفقراء خارج الوطن إذا كان المقصود هو الحاضر، وفي البيت إذا كان المقصود هو الماضي. لكنّه تأثّر بقصّة ابنة «ديتا» التي شاهدها مرّات ومرّات وصوّر فيلما بعنوان: أنشودة جنديّ .في ذلك الوقت كان يظنّ أن لا شيء يفوق روعة إخراج الأفلام وإن بدا له ذلك الطموح بعيد المنال. في نهاية المطاف صار يشعر بالسأم من الذهاب إلى السينما، لكنّه لم يكن يستمتع بالبقاء في البيت أيضا. فيظلّ يتجوّل في الغابات على تخوم المدينة مع الأصدقاء أحيانا وغالبا رفقة كلبه من نوع «كوليويدعى لاسي»، الكلب الذي كان يطارد أرانب حقيقيّة أو خياليّة بينما يعمل هو على اختراع قصص يلعب هو نفسه فيها دور البطل، القويّ الذي لا يُقهَر .

بعد ذلك، قرّر التقاط صور لأشياء كان يراها خلال نزهاته. فصنع الكاميرا بنفسه، من جهةٍ لأنّ أمّه لم يكن في وسعها توفير ثمن واحدة جديدة، ومن جهةٍ أخرى لأنّه كان يستمتع بصنع الأشياء ويريد امتلاك شيء فريد من نوعه. استخدم علبة سيجار وبلوّرا من نظّارات قديمة كعدسة للكاميرا. في البداية كان يلتقط صورا لكلّ ما تقع عليه

عيناه، وعندما عرض صوره المفضّلة على أمّه لم ترمقها سوى بنظرة خاطفة، وقالت: «ثمّ ماذا؟ إنّ الكاميرا هي التي فعلت ذلك لا أنت».

انزعج من ذلك وكاد يتخلّى عن كلّ شيء، لكنّه بعد ذلك قرّر أن يثبت لها أنّه هو من التقط تلك الصور في الواقع وليست الكاميرا. فأخذ يصوّر الغيوم والحيوانات وأيدي العجائز. وكي يلتقط صورا للأيدي ذهب إلى دار للمسنّين حيث يمكنه تصوير وجوههم أيضا، لكنّه كان مهتمّا أكثر بأيديهم. فقد كان الجميع يصوّرون الوجوه، وبها تعجّ أسوأ الأفلام.

ومن أجل التقاط صور للحيوانات كان يذهب إلى حديقة الحيوان وهو المكان الذي التقى فيه بيتر وخطّطا فيه للهرب. في الواقع، كان عليه أن يقنعه بالاستمرار في الخطّة، إذ كانت تعوزه الشجاعة للقيام بشيء كهذا بمفرده ولم يكن يقوى على إيذاء عائلته. فهو يعتقد أنّه ينبغي تكريم الوالدَيْن وطاعتهما. لكنّ بافل لم يكن يملك عائلة عدا أمّه التي يعتقد أنّ الحياة أساءت إليها وستواصل فعل ذلك. كانت تشتكي باستمرار من شعورها بالوحدة ومن الأرق والمرض.

صبّ بافل لنفسه كأسا أخرى وأشعل سيجارة، ثمّ فتح الخزانة حيث يحفظ بعناية عددًا من الأشرطة. اختار شريطا وحوّل التلفاز إلى صيغة الفيديو، ثمّ وضع الشريط في الجهاز وعاد إلى الجلوس في الكرسيّ.

لاحت في الصورة طريق ونقطة تفتيش حدوديّة ثمّ غابات، تلي ذلك صورة لباص بداخله أطفال (باص آخر بأطفال آخرين طبعا)

ثمّ صورة ثابتة لشابّ هو الناجي الوحيد، فلم يكن قادرا على إيجاد صور لرجال موتى. وظهر ضابط يرتدي زيّا عسكريّا مشيرا إلى مكان خلفه قائلا: لقد جاؤوا من ذلك الاتّجاه.

فجاء صوته قائلا: «هل تلقّيتم أيّ تحذير؟».

«بطبيعة الحال».

«هل كانت لديكم خطّة؟».

«لقد كان من الصعب إعداد أيّ خطّة وكلّ أولئك الأطفال بالباص. كانت أولويّتنا هي استعادتهم».

«وماذا لو لم تنجحوا في ذلك؟».

«لم يكن في وسعنا المخاطرة برمي الرصاص طالما أنّ الأطفال بالباص».

«إذَن فهل كنتم ستسمحون لهما بعبور الحدود؟».

«إلّا في أقصى الظروف».

«ماذا يعني هذا؟».

«كانت الخطّة أن يتمّ اعتقالهما لأطول فترة ممكنة والتفاوض معهما. فهذا ما تعلّموه بالخارج، أنّه حالما يوافق الخاطفان على التفاوض، فقد قطعت بذلك نصف الطريق إلى غايتك. ولن يشرعا بإطلاق الرصاص، طبعا ليس على الأطفال».

«أين أوقفتموهما؟».

«أوقفناهما مرّتين».

وأشار الضابط إلى نقطة التفتيش: «هنا تفاوضنا معهما، وعندما أطلقا سراح الأطفال رفعنا الحاجز. لكن في الأثناء أقيم حاجز طريق، واتّخذت مجموعة من القنّاصين مكانها».

تغيّر المشهد وأشار الضابط إلى الأماكن التي اختبأ فيها القنّاصون ثمّ إلى شجرة خُرّب لحاؤها بالرصاص فبان الخشب أبيض من تحته.

«ألم يحدث شيء للآخر؟»

فأجاب الضابط، لكن بعيدا عن الكاميرا الآن: «كلّا، سيذهب إلى المشنقة دون خدش واحد»، قال ضاحكا وهو يضيف: «أرجو ألّا تسجّل هذا».

أطفأ جهاز الفيديو وسحب الشريط. لن يذاع الفيلم أبدًا.

تشير الساعة إلى الثالثة وخمس عشرة دقيقة. صبّ لنفسه كأسًا أخيرة. لقد بدأ رأسه يؤلمه وشعر بانقباض مؤلم في صدره.

كان سريره في الغرفة الأخرى، وعلى الرفوف تنتصب منحوتات باروك من الخشب لقدّيسين محاذيةً لمنحوتات والده لغير القدّيسين. فقد كان يحبّ نحت العصافير أكثر من أيّ شيء آخر. ذات مرّة أخبر بافل أنّ للحيوانات شيئًا واحدا يجعلها تتفوّق على البشر: إنّها لا تدّعي ولستَ مجبرا على الادّعاء أمامها. فكّر كثيرا في ذلك خلال السنوات الأخيرة، فقد كان منجذبا إلى الحيوانات، ثمّ إنّ الأفلام التي صوّرها عنها كانت أفضل من أفلامه عن البشر.

نزع حذاءه وبنطاله وقميصه ثمّ انزلق تحت الغطاء. في الخارج وعبر النافذة تجمّعت غيوم بيضاء تلوح معلّقة فوق المروج. لكنّ السماء كانت صافية ومرصّعة بالنجوم.

على امتداد فترة من الزمن نسي أمر الممرّضة «آلبينا». ثمّ، وبشكل غير متوقّع، ظهرت مرّة أخرى. كان يقف في الصفّ في انتظار مصعد التزلّج عندما ظهرت هناك في آخر الصفّ. وكان شعرها وجزء من وجهها يختبئان تحت قلنسوة حمراء. ولحسن الحظّ كان بإمكانه تذكّر وجهها جيّدا.

قال لها: «هاه، أترين؟ لقد وجدتك أخيرا».

صعدا أعلى التلّة على مصعد التزلّج نفسه، وتجاذبا أطراف الحديث دون الخوض في شيء مخصوص. كان يشعر بتردّدها وتساؤلها عمّا إذا كان عليها تقبّل لقاء الصدفة هذا على أنّه نذير شؤم. تزلّجا أسفل التلّة ثمّ انتظرا المصعد معًا من جديد. وبينما كانا يتحدّثان، تفادى أيّ ذكر لعمله، لكن بما أنّهما كانا على بعد مسافة قصيرة من الحدود فقد أخبرها عن محاولته المجهضة للهرب منذ زمن بعيد. وذكر أيضا عقوبة السجن التي تلت ذلك. لقد نجح في تطويق حياته بحالة من غموض قد تجدها جذّابة. فهي على الأقلّ، لم تمنعه من مرافقتها حتّى باب الشاليه.

مساء اليوم الموالي تناولا العشاء معًا واستمرّا في الحديث عن أشياء غير مهمّة. شعر بأنّ عالمها مختلف تماما عن عالمه، إذ تحكمه قوًى لا يمكنه الإيمان بها مثل الاعتقاد في قانون علويّ وقوّة كلّيّة. كانت

مستعدّة للبحث عن دليل على هذه القوّة في مواقع النجوم وفي نذر الشؤم. فخطر له أنّها قد تحدث تغييرا في حياته إلى الأفضل.

(3)

بعد الغداء من يوم الأحد ذهب إلى زيارة والدته. كان من عادته تناول الغداء معها كلّ يوم أحدٍ لكنّها في السنة الأخيرة توقّفت تقريبا عن الطبخ وأصبحت وجباتها تأتيها إلى البيت. لذلك صار يزورها بعد الغداء. لم يكن يقوى على عدم المجيء وتركها وحيدة. بالإضافة إلى أنّ مكان إقامة منزلها ما يزال هو المسجّل في أوراقه الرسميّة. فهو لم يحاول قطّ العثور على مكان آخر ينقل إليه كلّ هذه الأشياء. مازال سريره هناك وكذا مكتبه بأدراجه المليئة برسائل قديمة ودفاتر لن يفتحها أحدٌ أبدا. فرز «نيجاتيف» الصور الباهتة والصور القديمة وحفظها في خزانتين. وقد بدأت ثيابه القديمة التي لن يرتديها أحد تهترئ هي أيضا على التدريج في خزانة البهو.

منذ أسابيع عديدة خلت، مات آخر أصدقاء والدته ولم يتبقّ لها الآن سواه. كانت تجلس في البيت طوال اليوم رافضة الخروج إن هو لم يصطحبها. إنّها تبدو أكثر اكتئابا وغرابة تملؤها شكوك سوداء حول عالمٍ لم تعد تراه مفهوما. وفي فترة مّا، لم يعد يشعر بالراحة في حضورها–هذا إن حدث وشعر بالراحة أصلا. لكنّه رغم ذلك لا يزال يتذكّر لحظات من السعادة عاشها في طفولته، عندما كان والده يستمتع بنُكَتِه وأمّه تضحك وهو يداعبها. وكان في العطل الصيفيّة يلعب التنس وكرة الطائرة مع بافل ويحبّ الإصغاء إليها تتحدّث عن

المسرح حيث تعمل رغم أنّها كانت مجرّد خيّاطة. لقد كان زمنا لم تنجح فيه مسرحيّة جيّدة واحدة في أن تُعرض على الركح، وكان معظم عملها خياطة كنزات للعمّال الروسيّين أو أزياء عمّال المناجم. ربّما كانت ستعيش حياة مختلفة تماما لو بقي والده معها وكذا بافل.

«هل هذا أنت يا بافل؟» لعلّ تفاجُؤها بقدومه حقيقيّ، فقد كانت تجد صعوبة في وضع ذلك اليوم موضعَه من الأسبوع.

«لقد أحضرت لك شيئا»، ثمّ أخرج من حقيبته زوجا من النعال وناولها إيّاهما مضيفا: «إنّهما مصنوعان من الفرو».

«لماذا تنفق نقودك على هذا؟»، ثم انحنت بمرونة فاجأته ودسّت قدمها داخلهما، «سيكونان دافئين بشكل رائع»، قالت وهي تقف باستقامة من جديد. كانت أقصر منه بقليل وضئيلة الحجم، فقد ورث طوله عن والده لكنّ بنيته تشبه بنية أمّه أكثر.

اقترحت عليه قائلة: «سأعدّ لك الشاي».

«شكرا، لكن هيّا دعينا نخرج».

«لقد اشتريت بعض المرطّبات اللذيذة».

ثمّ دلفت تعرج إلى المطبخ، وتسلّل هو إلى غرفتها. ثمّ فتح خزانة الملابس. ومن تحت كومة مناشف، أخرج علبة الشاي التي تخبّئ فيها نقودها. رفع الغطاء وأضاف ورقتين نقديّتين خضراوين إلى العلبة وأغلقها من جديد ثمّ أعادها إلى مكانها.

لم تكن أمّه تتفقّد البتّة كم من المال أصبح لديها. في صغره كان

يستغلّ هذا ويسرق منها بعض القطع النقديّة بين فينة وأخرى ليشتري تذاكر السينما أو السجائر. لكنّها لم تكتشف ذلك قطّ وحتّى لو حدث فهي لا تفصح عنه مطلقا. وعندما يضع لها الآن النقود سرّا فهو ببساطة يدفع دَينًا قديما.

«أين أنت وماذا تفعل؟»، تناهي إليه صوتها من الغرفة الأخرى.

على منضدة متآكلة، لكنّها نظيفة، انتصب كوبان طافحان بالشاي. ورشّت أمّه السكّر على الكعك الحلو قبل أن تسأله: «ما الذي تفعله هذه الأيّام؟».

«لقد انتهيت لتوّي من تصوير مظاهرة، وبعد غدٍ سأذهب إلى القصر. إنّنا نعدّ شريطا وثائقيّا عن الرئيس».

«أيّ رئيس؟».

«رئيسنا. إنّه عيد ميلاده».

«كم ستصبح سنّه؟».

«خمسا وسبعين».

قالت: «إنّه أصغر منّي، فقد كبرت، أليس كذلك؟».

فقال: «يوجد من هم أكبر منك سنّا».

«لم أعد أحتمل النظر إلى وجهي في المرآة».

«ولا أنا»، قال ذلك وتجهّم مفكّرا في المعنى المزدوج لما قاله.

فقالت: «لا أدري، ربّما عليك تصوير أفلام عن مزيد من

الأشخاص العاديّين، فمثل ذلك الشخص يمكن أن يدمّرك إذا لم يعجبه ما تقوم به».

«وماذا لو أعجبه؟»

«إذَن فقد يدمّرك أحد مّا لا يحبّه».

«لماذا يجب أن يوجَد من يريد تدميري؟».

«لأنّ العالم يسير هكذا وليس ثمّة ضرورة لترفع صوتك بهذه الطريقة»، قالت خافضة صوتها ومشيرة إلى الجدار. «فليس على العالم كلّه أن يعرف. ثمّ إنّ قميصك متّسخ لماذا لا تغسل امرأتك الملابس بعناية؟».

«هي تفعل ذلك، ثمّ إنّها ليست امرأتي».

«لا أفهم هذا».

«نحن لسنا معا تماما».

«ماذا يعني هذا، لستما معا تماما؟».

«هيّا بربّك أنت تعلمين أنّها ليست زوجتي».

فقالت أمّه: «حسنا، مازال يُعتبر أمرا مخزيا، أن يعيش معك رجل دون أن تتزوّجيه».

«إنّه ليس خطؤها، بل خطئي. فأنا لا أرغب في الزواج».

«ألا تحبّها بما يكفي؟».

هزّ كتفيه غير عابئ.

«لقد حان الوقت كي تستقرّ. فلا شكّ أنّك لا تريد البقاء وحيدا طوال حياتك؟ كم من الوقت ستنتظر؟».

«إلى وقتٍ لا أكون فيه على قيد الحياة؟».

«أووه، هيّا بربّك يا أمّي توقّفي عن هذا!».

هي لا تتحدّث عادة عن موتها، لكنّه كان مندهشا من كونها لا تزال تعتقد أنّها الوحيدة التي بوسعها التخفيف من شعوره بالوحدة. «لمَ لا نخرج للمشي؟».

نظرت إلى الخارج من النافذة ثمّ قالت: «أظنّ أنّ الجوّ سيكون باردًا وأنا لا أكاد أشعر بقدميّ. أعتقد أنّ علينا فقط ألّا نبرح مكاننا. لستَ على عجلة من أمرك، أليس كذلك؟».

«سألعب التنس هذا المساء».

«مع مَن؟ مع والدك؟».

«أووه، بحقّ السماء يا أمّي! سألعب مع «سوكول»، إنّه أحد المنتجين، إنّه ذاك الذي ذهبت معه إلى مكسيكو».

فقالت بغتة: «لا أعرف شيئا عن مكسيكو هذه، كان والدك يلعب التنس أيضا».

مات والده منذ عشر سنوات خلت، ولم تذهب إلى جنازته. فقد تركها، وبفعلته تلك أساء إليها. لقد أساء إليها معظم الناس بما في

ذلك بافل. فقد حاول الهرب من البلد عندما كانت في حاجة إليه ممّا عمّق القلق الذي كان يلازمها. لم يكن بوسعها أن تفهم أنّها حياته وأنّ له الحقّ في عيشها وفقا لمقاييسه. وخلال الحرب، أُرسل والده إلى معسكر، وهناك لقي حتفه. فقلقها كانت له في الواقع جذور في تلك التجربة، ثمّ لم ترَ بعد ذلك شيئا في حياتها يقنعها بأنّ ذلك القلق بلا أساس.

«لقد جاء أمس ليراني»، قالت له أمّه .

«من؟»

«من الذي كنّا نتحدّث عنه؟ إنّه والدك. حتّى إنّه جلب لي خاتما ليعوّضني عمّا حدث. لكنّه ليس معي الآن، لذلك يُحتمَل أنّي لم أقبله. فأنا لا أستطيع التذكّر».

ربّما كان عليه أن يحاول جعلها ترى الحقيقة، لكن ما الفائدة من ذلك؟ إنّه هذيان لا يضرّ وربّما يجعلها تشعر بالتحسّن.

«عليك ألّا تذهب إلى أيّ مكان آخر اليوم. تبدو متعبًا. لا شكّ أنّك تعمل كثيرا». رفعت والدته كوبَي الشاي من فوق المنضدة وذهبت لغسلهما .

«سأسمّيك «الأخت»، هكذا اقترح على آلبينا في ذلك اللقاء بالجبل».

«كلّهم ينادونني هكذا في المستشفى».

«لكنّ ذلك سيكون له معنى مختلف لديّ».

«ما الذي سيعنيه ذلك لك؟».

«أنّي لا أعرف أحدا أقرب منك إليّ».

«كيف يمكنك قول هذا وأنت لا تعرفني على الإطلاق؟».

«أنا جادّ. ثمّ إنّني أحبّ كلمة: الأخت».

«توقّف!»

«هل تحبّين العمل هناك؟».

«تقصد في المستشفى؟ لا أعرف. لا أعرف القيام بشيء آخر أفضل من عملي».

«توجَد أعمال عديدة أخرى، ولست مضطرّة إلى مراقبة الناس يموتون».

«إنّ الموت جزء من الحياة، والناس الذين يحتضرون يحتاجون إلى من يساندونهم أكثر من أيّ أحد آخر. لأنّهم... غالبا ليسوا مستعدّين لذلك».

«ماذا تقصدين؟».

«عندما يكونون على قيد الحياة لا يفكّرون في الموت، ثمّ عندما تأتي اللحظة يشعرون أنّهم خُدعوا. فيكون الموت قد أمسك بهم وهم لم يحظوا بعدُ بفرصة واحدة للحياة الحقيقيّة، ولم ينجحوا بعدُ في فهم معنى الحياة. إنّهم يغادرونها قبل أن يتصالحوا مع فكرة الموت».

«هل أنت متصالحة مع فكرة الموت؟».

«لا أعرف»، أجابته، «لكنّي أحاول قدر الإمكان أن أذهب بالحياة إلى مداها».

«ما معنى أن يذهب المرء بحياته إلى مداها؟».

«يعني ألّا نضيّع الوقت».

«هذه ليست إجابة جيّدة. ماذا يعني ألّا نضيّع الوقت؟».

«يعني أن تكون إلى جانب شخص تحبّه».

«وماذا لو لم تكن تحبّ أحدهم؟».

«إذَن لا بدّ لك من العثور عليه».

لقد كان غريبا أنّهما عندما تحدّثا عن الحبّ أوّل مرّة تحدّثا في الآن ذاته عن الموت. هل كان ذلك نذير شؤم؟ أم هو لا يتعدّى إدراك أنّ الحبّ والموت لا ينفصلان؟

مع حلول فصل الصيف كانا قد انتقلا للعيش معًا. وذات مرّة بينما كانا في السيّارة يتّجهان نحو كوخ مستعار، انتبه في الطريق إلى أجمة من الأشجار رابضة في المروج ومحاطة بأسوار متداعية فلم يكن من الصعب إيجاد فجوة للمرور عبرها. وعندما زحفا عبر مجموعة الشجيرات المتشابكة اعترضتهما صخور حادّة ومبلّلة بمياه المطر وكان بعضها مثبّتا في الأرض من زوايا غريبة، بينما كانت الأخرى ملقاة على العشب مقلوبة ومحطّمة. مازالت الصخور تحمل آثار حروف عبريّة. فسحب الكاميرا من حقيبته والتقط صورة لشاهدة قبر مقلوبة بعد أن أطيح بها .

فسألته: «لماذا تفعل هذا؟».

- إنّه عملي.
- هل تريد بيع صور القبور؟
- كلّا، أريد فقط التقاط صور لما يوجد هنا.
- يجب ترك الميّت في سلام.
- هل أزعجهم؟ لكنّي لم أسطُ على هذه الصخور.
- ليس من الضروريّ التقاط صور لكلّ شيء.
- ألم يحدث لك أن أردت الاحتفاظ بصورة شيء أبهرك؟
- ليس الأمر هكذا.
- كيف إذَن؟
- أحتفظ به في داخلي.

أغضبته ملاحظتها. فقال: «إنّي أتضوّر جوعا».

ما معنى أن يحتفظ أحد بصورة شيء مّا داخله؟

من خلال التلميح إلى ما هو خفيّ تحت سطح شيء مّا، والتحرّر منه بإدراك معناه.

ومَن يمكنه الاهتمام بتلك الصور؟

شخص آخر يكون حرّا أيضا.

ما معنى أن تكون حرّا؟

قالت له أمّه: «بافل، لماذا ظللت صامتا وقتًا طويلًا؟».

- إنّي سعيد فقط لأنّ بوسعي الجلوس إلى جانبك دون أن أكون مضطرّا إلى قول أيّ شيء.
- ولماذا تجلس معي هنا؟ إنّه شيء لا يدعو إلى المرح.
- أنت أمّي.

قالت كما لو أنّ إجابته فاجأتها: «أجل، أنا أمّك».

بعد ساعة كان يسير نحو ملعب التنس مرتديا بذلته البيضاء. لقد كان منافسه سوكول يكبره تقريبا بعشر سنوات، وكان على شيء من البدانة لكنّه رشيق على نحو مدهش. بيد أنّ رشاقته لم تكن كافية لجعله يفوز باللعبة. فقد كانت تنقصه القدرة على العودة في اللعبة بشكل نظيف وجيّد وتعوزه الدقّة في استخدام اللّغة تماما مثلما تعوزه في العمل. غير أنّه يعوّض عن خرقه في استعمال اللغة بدهائه السياسيّ الحادّ، فقد كان فطنا جدّا لما يعتمل داخل المجتمع الذي يبدو ظاهريّا هادئا. لم يكن فقط قادرا على استباق ما هو مطلوب في اللحظة الراهنة ولكن أيضا ما هو مطلوب في المستقبل القريب. ثمّ إنّ الأفكار التي تدور حولها قصصه مناسبة دومًا. فقد كان يمرّ بنوبات من الديناميكيّة تتبعها فترات من اللّامبالاة التامّة نحو كلّ شيء خارج المحيط اللصيق به. كان يحبّ أن يأكل ويشرب جيّدا وعندما كانا معا في مكسيكو، كان يفضّل الذهاب إلى الشاطئ واحتساء كأس من «التكيلا» في الحانة على القيام بالعمل. أمّا بافل فكان في وسعه اختيار اصطحابه إلى هناك أو الذهاب بمفرده لتصوير ما يشاء. وقد أحبّ ذلك النوع من التعاون لأنّه لا يضع له حدودا.

كالعادة، هزم منافسه بسرعة ودون عناء.

وبينما كانا يستحمّان قال له سوكول على نحو تلقائيّ: «أظنّ أنّ من الأفضل أن نفكّر في إحداث مشروع. ما رأيك في تأسيس وكالة إعلانات؟».

«أنا؟».

«سنكون شريكيْن».

«وما الذي سنقوم بالدعاية له؟».

فشرح المنتج قائلا: «عندما تنشأ شركة خاصّة جديدة، تحتاج إلى الدعاية. ففي غياب الإعلانات لا وجود للأعمال. لذلك فإنّ العمل في هذا المجال سيكون مشروعا جيّدا والإعلانات التلفزيونيّة هي الأفضل».

«الإعلانات ليست من اختصاصي».

«كلّ هذه البروباغاندا مجرّد دعاية».

«هل تظنّ أنّ ما أقوم به بروباغاندا؟»، كان قد اتّخذ في سؤاله وضعا دفاعيّا.

غمغم المنتج بشيء في منشفته، فهو لا يرغب في الجدال ولا يحبّ الأسئلة المباشرة.

لكنّ سوكول على حقّ. قال في نفسه، فالأفلام إعلانات لنمط من الحياة لا أحد سيشتريه لو عُرض للبيع، بما في ذلك هو. ثمّ إنّه سيكون

مشروعا جيّدا.

فقال: «لم يخطر لي هذا الأمر قطّ. لكن ليس ثمّة شركات خاصّة، فكيف يمكن أن توجَد أيّة دعاية لها؟».

«افترض أنّ الأمور تغيّرت؟».

«لو تغيّرت الأمور فلن يجني أيّ منّا المال من وراء ذلك».

«لِمَ لا؟ سيعتمد الأمر فقط على ما يمكننا فعله. ومَنْ أكثر مهارة منك؟ فهذا كلّ ما تحتاج إليه الدعاية، الأفكار والمهارة».

إذا كان الأمر يعتمد فقط على ما يمكنه فعله فعليه أن يمارس مهارته في مكان آخر وبطريقة أخرى. عليه أن يصوّر أفلامه الخاصّة فهو يعلم أنّها أفضل من تلك التي يتمّ إنتاجها وتتحصّل على جوائز.

خرجا من الحمّام وصَبَّا كأسا من الفودكا ثمّ دردشا بعضَ الوقت حول إمكانية تغيّر الأشياء. كان لسوكول تصوّرٌ لما يمكن أن يحدث. فهو يتوقّع حدوث سلسلة من التغييرات التدريجيّة التي ستبدأ بسياسة رسميّة لكنّها سرعان ما ستتحوّل إلى طوفان لا يمكن إيقافه وسيزاح المبادرون بالتغيير جانبًا وسينهار العالم الذي يعيشون فيه.

كان بافل يصغي باهتمام متسائلا عن الدور الذي تخيّله زميله لنفسه كي يقوم به بعد السقوط. يتذكّر أنّه هو أيضا كان منذ زمن بعيد مهووسًا ويحلم بأفكار عن التغيير. واشتدّت أحلامه في السجن إلى حدّ جعله يعتقد أنّها ستتحقّق. لكن لم يعد بوسعه الآن تخيّل ذلك وأصبح يفضّل ألّا يفكّر في الأمر.

عندما افترقا قال سوكول: «لا تنسَ أنّنا سنصوّر في القصر الأسبوع المقبل».

يبدو أنّه لم يتوقّع حدوث التغييرات في القريب العاجل، وإلّا كان سيعثر على أحد آخر ليرسله إلى القصر عوضا عنه.

(4)

انتهى التصوير ولم يكن بافل متأكّدا من وجود أيّ شيء يمكنهما استخدامه. فكان عليهما استعمال الخدع البصريّة حتّى يخفيا عجز الرجل العجوز عن رفع ذراعه اليسرى وحتّى يجعلا الخشونة المتأصّلة في وجهه تبدو أكثر لينًا ونعومة. كان عمل بافل أكثر سهولة. فقد اضطلع سوكول، الذي كان يُجري المقابلة معه، بأسوإ جزء من المهمّة. إذ ليس من الهيّن انتزاع تعاليق مرحة ومثيرة للاهتمام من رئيس الدولة، فما بالك بالأفكار الفريدة. فقد ظلّ سنواتٍ يكرّر الشيء نفسه مرّات ومرّات: مجرّد أمنيات غامضة أن يتقبّل الناس، وهم غافلون عن واقعهم الخاصّ، الأهدافَ والقيم التي مازال يؤمن بها. وعند نقطة مّا كان يبدو على وشك قول شيء مؤثّر ونابع من القلب: «عندما تلقّينا التعاليم الدينيّة، كانوا يعلّموننا أنّنا لو آمنّا سينقذنا إيماننا. لقد غيّرنا تلك العقيدة التقليديّة بواحدة أخرى وهي ألّا نؤمن إلّا بما يصمد أمام اختبار العقل. لكن...» توقّف عن الكلام ثمّ لوّح بيده معترضا. لا شكّ أنّ الأمر كان محبطا بالنسبة إلى سوكول، فلا جدوى من نصف فكرة. فاعتراض رئيس على فكرته بإشارة من يده أمرٌ لن يسمحوا له قطّ بعرضه على شاشة التلفزيون.

ليت الرجل الذي شغل منصب رئيس دولة لسنوات بإمكانه على الأقلّ فعل شيء لافت على نحو حقيقيّ وأصيل، شيء يمكنهما تصويره من أجل الفيلم، كأن يمتطي حصانا مثلا أو يلعب التنس أو يحلّق في الهواء. قيل إنّه كان يعمل في ورشة صفائح معدنيّة عندما كان في السجن. وبطبيعة الحال، لا أحد صوّره وهو يفعل ذلك. واليوم، باتوا يفضّلون التكتّم عن تلك المرحلة من حياته. فثمّة أشرطة قديمة ممتدّة على طول أميال في الأرشيف لكنّ جميعها متشابهة: فكلّها عن عجوز كئيب يقف وراء ميكرفون ويلقي خطابا، ويصافح مجموعة من رجال الدولة، ويقبّل آخر ويستجوب أحد الحرّاس الشرفيّين ويصعد أو ينزل من الطائرة ويحتضن رفاقا يودّعونه أحيانا وينتظرون عودته بخنوع أحيانا أخرى. كانت توجَد أيضا صور للزعيم وهو يلوّح للجماهير الهاتفة ويستقبل العروض الاحتفاليّة للقرويّين الذين يرتدون أزياء شعبيّة وكذلك يتلقّى باقات الزهور من الفتيات الصغيرات المذعورات. في بعض الصور كان لا يزال يبدو شابّا مفعما بالطاقة والسلطة. غير أنّ جميعها متشابهة في إبراز شعور موحّد وبائس بالضجر.

ما الضجر؟

إنّه وقت مليء باللقاءات التي لا تترك علينا أثرا.

ليت للرئيس بعض الأشياء المميّزة حوله، أشياء تخصّه حقّا، مثل مأرضة للثعابين أو دبّ محشوّ أو ببّغاء في قفص. أو ليته كان محاطا بأناس مفعمين بالنشاط ومثيرين للاهتمام، لكنّ الوحيدين الذين كان

يتحمّل وجودهم قربَه هم خادمة قديمة، لازمته منذ شبابه وبقيت حيّة بعد وفاة زوجتَيه وخادمان آخران. وفي مكان مّا بالخلفيّة مازال يمكن للمرء الشعور بحضور عصابة كاملة تواطأ معها لكسب السلطة، عصابة لا يمكنه أبدا فصل نفسه عنها تمامًا، فهو متورّط معها من خلال العمل المشترك والجرائم.

لفّ تَقنيّو الضوء أسلاكهم وأخذوا مصابيحهم وعاكسات الضوء بعيدا، فعادت الغرفة نقيّة مرّة أخرى تُستخدم كحجرة انتظار بطابع أرستقراطيّ. ورغم أنّه لم يكن لبافل الاعتراف بذلك، فإنّ وجوده هناك وقدرته على التحرّك بحريّة في المكان منَحَاه شعورا جيّدا. فقد بقيت الأبواب المزدوجة والمؤدّية إلى مجموعة من الحجرات الملحقة بتلك الحجرة مفتوحة، فكان يراقب تلك الثريّات الكريستال الضخمة والساطعة بسخاء في كامل جناح القصر.

نهض الرجل العجوز ثمّ سار نحوهما وصافحهما، سوكول أوّلًا ثمّ هو. وقال متكلّفا الابتسامة: «شكرا لمجهوداتكما».

بدا جليّا أنّه يتساءل في نفسه عمّا إذا كان ينبغي له أن يستمرّ أم لا، ثمّ قال أخيرا: «هل ترغبان في البقاء وتناول مشروب؟».

كانت الدعوة مفاجئة وكان من الواضح أنّ رفضها أمر مستحيل. أشار الرجل العجوز إليهما فتبعاه إلى غرفة ملحقة حيث يقف نادل خدوم يحمل صينيّة من الكؤوس ويتأهّب لتقديمها إليهم. جلس الرئيس على كرسيّ بذراعين فكانت إشارة إلى أنّ بإمكانهما الجلوس أيضا وحتّى الحديث إليه. فالرجل العجوز الجالس مقابلا لهما الآن

لديه السلطة لتحقيق أيّة أمنية من أمانيهما، لكن لمَ عليه استعمال سلطته من أجل ذلك؟

«في صحّتكما أيّها الرفاق!» قال الرئيس رافعا كأسه.

ما الذي يتمنّاه بافل؟ أن يحصل على أعلى منصب في عمله؟ ليس الوقت مناسبا لذلك. أم أن يصوّر فيلما خاصّا به؟ لم يكن الوقت مناسبا لذلك أيضا. فقد لا يكاد هذا الزعيم بالذات يفهم أفلامه. هل عليه أن يذكر أنّ أربابه في العمل حظروا مؤخّرا الشريطَ الوثائقيّ الذي أعدّه عن مستشفى للأمراض العقليّة رغم أنّه ما كان له أن يضُرّ أحدًا؟ لكنّ لدى الرئيس أشياء أخرى يُقلقه شأنها أكثر أهميّة من فيلم عن ذوي الأمراض العقليّة. فأكثر ما في وسعه القيام به هو تعيين أحد لاستجوابه وسيتمّ استجواب رؤساء بافل في العمل وفي نهاية المطاف سينقلب الأمر برمّته عليه.

«إذَن، ما رأيكما في الوضع الراهن؟»، سأل الرجل العجوز محدّقا فيهما عبر نظّارتيه السميكتين. كان السؤال مفاجئا. ما الذي يرغب في سماعه؟ الحقيقة؟ أو خرافة أخرى من تلك الخرافات المريحة التي يجب أن يسمعها كلّ يوم؟

«بماذا يفكّر النّاس في مجال عملك، في التلفزيون؟» لكن من حسن الحظّ أنّه إمّا لم يكن ينتظر إجابة أو نسي على الفور أنّه طرح سؤالا. ذكّره الرئيس بأمّه، مع فرق أنّها لم تكن في موقع سلطة ولا تملك امرأة ورجلين يقومون على خدمتها.

استمرّ العجوز قائلا: «الوضع ليس مثاليّا تمامًا. من المؤسف أنّنا قد

نبدو في الظاهر عاجزين عن الحفاظ على المعايير التي يتوقّعها الناس. فقد يكون المرء، كما تعرف، في رأس السلطة لكنّه مع ذلك يبقى عاجزا. غير أنّي أفعل كلّ ما في وسعي، وأعمل ستّ عشرة ساعة في اليوم. لعلّي أحتاج إلى ثلاث حيوات، وليس إلى كلّ هذا»، قال وأدار إصبعا في الهواء كما لو أنّه يهزأ بذلك البذخ المحيط به. «إنّ خدمة قضيّة نبيلة وتغيير العالم هو ما ينبغي علينا فعله. لكن مَن مازال يرغب في هذا؟ ومن يمكنه مواصلة الأمر؟ عندما كنّا شبابا، كان لدينا نوع آخر من الحماس. كنّا مستعدّين للمعاناة، وحتّى للجوع لكنّنا نعلم أنّنا نناضل من أجل قضيّة ومن أجل نظام أكثر عدالةً. لم نكن نملك أحيانا ما يكفي من الأكل لكنّي نجحت في جمع ثمن تذكرة القطار الذي أخذني للقاء رفاق كانوا في انتظاري ذلك المساء».

فسأله سوكول: «هل حدث ذلك عندما كنت في الجامعة؟».

«في الجامعة، قبل الجامعة، وبعد الجامعة. أحيانا كان أفضل وأحيانا أخرى أسوأ لكنّه لم يكن قطّ أمرا سهلا». ثمّ ارتسمت على عينَي الرجل العجوز نظرة بعيدة وقال: «عندما كنّا صغارا، كنّا نمشي حفاة معظم السنة ما عدا في الشتاء. عندما تهبط قطرات الندى في الصباحات، كان البرد قارسا. لكن لم يعد أحد يرغب في سماع هذا. عندما حصلتُ أخيرا على زوج من الأحذية، كنت قد ورثتهما عن شقيقتيّ»، واستمرّ مستسلما لسيل الذكريات ذاك قائلا: «لكن لم يكن بإمكاني ارتداؤهما إلّا أيام الآحاد في الكنيسة». ثمّ توقّف كما لو أنّه خشي فجأة أن يكون قد قال أكثر ممّا ينبغي.

ففي النهاية، كان الرجل يتحدّث عن نفسه لكن لحسن حظّه لم يكن يفعل ذلك أمام الكاميرا. لو تحدّث عن طفولته في التسجيل لكان بافل أضاف مشهدا مصوَّرا عن قريته ونبش عن بعض الصور لوالديه اللذين كانا عاملين بسيطين-هذا إن لم يكن الرئيس قد زوّر سيرته لتناسب أسطورة الزعيم الذي خرج من رحم الشعب ليخدم الشعب. توفّيت أمّه عندما كان رضيعا، وحسب روايته لم يعش طفولة سهلة.

«ومع ذلك، فقد كانت تلك السنوات أفضل ممّا جاء بعد ذلك. إذ مازال الرفاق وقتئذٍ أوفياء لجوهر القضيّة وما كان لبعضهم أن يخون بعضًا حتّى تحت التعذيب. ثمّ إنّ زوجتي الأولى كانت لا تزال على قيد الحياة في ذلك الوقت». اصطبغ صوته بنبرة أسف فمدّ يده بسرعة ليلتقط كأسا ويمحو أثر ذلك الشعور. ثمّ واصل: «لكن بعد ذلك تغيّر كلّ شيء ووجدتُني بين براثن الجلّاد الذي كان يعمل على مدار الساعة. كان أسوأ ما في الأمر أنّ شعبنا سلّمني وسلّم أفضل مَن فينا إليه. لكن على الأقلّ، كانوا يتظاهرون بأنّهم شعبنا. كانت كلّها ادّعاءات بالولاء بيد أنّ سكاكينهم كانت مشهرة. كتبت رسائل أثبت فيها براءتي لكنّهم لم يردّوا عليها. طلبت منهم أن يقدّموا شهودا على الأقلّ لكنّهم لم يحقّقوا لي هذا الطلب مطلقا. فأصدر الجلّادون عقوبة في حقّي بالحبس مدّة ستّ سنوات في السجن الانفراديّ دون أن أعرف أيّ أخبار عن العالم ودون أن أتلقّى أيّ زيارات من عائلتي. ستّ سنوات لم أرَ فيها وجوها إلّا وجوههم، وجوه الجلّادين. برأيك، أين يكون هؤلاء الناس الآن؟» ثمّ أخذ جرعة أخرى من

مشروبه وقال كما لو أنّه أصبح فجأة نشطا: «يقال إنّهم يعيدون هيكلة الأشياء حتّى تصبح أفضل، غير أنّ كلّ ما سيحقّقونه هو هدم بناء لا يزال متماسكا، ربّما ليس متماسكا تماما، لكنّه كذلك على نحو مّا. وعندما يهدمونه سيحاولون إلقاء اللوم على عاتقي. فهكذا كان الأمر دائمًا. لكن سيأتي زمن يقولون فيه: «دُفن الخير مع عظامه». ضحك ضحكة جافّة ثمّ أضاف: «لقد صمدنا تحت التعذيب! سيدمّرنا المال، فقد يتخلّون عن كلّ شيء، عن الأفكار، ويتخلّى بعضهم عن بعضٍ، ليحصلوا عليه».

عندما يقول الناس 'هم'، فإنّهم يقصدون غالبا أولئك الذين في السلطة. من يقصد رئيس الدولة بهذه الكلمة الصغيرة؟ إنّهم أولئك الذين يخضعون لسلطته، وأولئك الذين يحيطون به وكلّ شخص آخر.

يظهر النادل مجدّدا حاملا الصينيّة فيومئ إليه الرئيس برأسه ليقدّم لهما الشراب لكنّهما يرفضان، فهما لا يجرؤان على تناول كأس أخرى بينما كفّ مضيّفهم عن الشرب.

قال الرئيس: «لا تنسَ أن ترسل إليّ الفيلم حالما يكون جاهزا، ليس لأنّني أريد أن أمارس عليك رقابة، لكنّك تعرف الوضع. ففي سنّي هذه قد لا أعيش طويلا حتّى أشاهده».

فوعده سوكول قائلا: »سأفعل ذلك».

نهض الرئيس، فقد انتهت المقابلة غير الرسميّة ولم يستفد منها بافل بأيّ شيء وربّما لا يمكن الاستفادة منها على أيّة حال لأنّ السلطة

والحياة لا يقيمان إلّا في تلك الأماكن. فأين يقيمان حقًّا؟

لم يكن واثقا من الإجابة وأربكته الفكرة.

الفيلم

(I)

تدفّق المدعوّون لحفل الزفاف من مدخل قاعة البلديّة الرئيسيّ. وترجّل أمامنا رجل طويل يحمل كاميرا. كان عليه أن ينحني قليلا حتّى يتمكّن من تصويرهم جميعا بعدسة الكاميرا، هذا إذا كان يريد أن يلتقط الساحة داخل الصورة أيضا. في الأسفل، كانت ثمّة مظاهرة تختمر.

كانت الشمس تبزغ من خلف البرج، وكان المدعوّون لحفل الزفاف يحاولون رسم تعابير سعادة على ملامحهم انغلقت لها أعينهم.

«أرجوكم لا تتوقّفوا بسببي».

كان العريس عجوزا ضئيل الحجم وممتلئ الجسم، تفوقه العروس طولا وتصغره بخمس عشرة سنة على الأقلّ. كان شعرها طويلا وأشقر إلى حدّ يجعله يبدو أبيض مثل شعر المصوّر الفوتوغرافيّ. بل يُحتمَل أن تكون بينهما صلة قرابة، لكنّ هذا مجرّد عمل آخر بالنسبة إليه، وربّما هو ذريعة للحصول على كاميرا لتصوير المكان بشكل لا يلفت الانتباه.

«الآن، أريد أن يقف العريس في المنتصف والعروس على اليسار». ضغط بشدّة على زرّ التصوير ثمّ غيّر العدسة فاختفى العروسان من

مجال عدسة الكاميرا، وأصبح المصوّر الفوتوغرافيّ يشاهد الآن المتظاهرين والميليشيات وضبّاط الشرطة بزيّهم الرسميّ.

«شكرا، والآن فليأخذ الآخرون خطوة في اتّجاه أحد الجانبين، وتتحرّك العروس قليلا نحو اليمين. نعم هكذا، شكرا لكم». وضغط على الزرّ ثمّ انحنى قليلا مصافحا المدعوّين ثمّ ابتعد. حالما انعطف مع الزاوية سدّ رجلين طريقه. كان الرجل الأكبر سنّا بينهما يبدو مثل موظّف بائس، أمّا الثاني الذي كان شعره طويلا ويرتدي بنطال جينز، فقد ذكّره بعازف طبل في فرقة موسيقيّة بمحطّة الأنفاق.

أراه الرجل العجوز بطاقة هويّة وسأله: «حسنا سيّد فوكا! ماذا لدينا من صور اليوم؟». تفاجأ المصوّر، فقد أراد أن يخفي الكاميرا لكنّه لم يستطع ذلك فقال: «صور زفاف».

أشار الرجل الذي أراه بطاقة الهويّة إلى الكاميرا وقال: «ظننت أنّك توقّفت عن التصوير».

خبّأ المصوّر الكاميرا وراء ظهره ربّما في اعتقاد سخيفٍ منه أنّها ستصبح غير موجودة إن لم تكن مرئيّة. «أنا أعمل في المناوبة الليليّة الآن».

«سنتثبّت من روايتك، زفاف من؟».

«أحد معارفي».

«هل بإمكانك أن تذكر لنا اسمه؟».

«كلّا، لا أرى سببًا لفعل ذلك».

«سنعرف ذلك، على أيّة حال. هل أنت مستعدّ لتسليم الفيلم بإرادتك».

«كلّا، لمَ عليّ فعل ذلك؟».

«ربّما لتوفّر على نفسك عناء الرحلة». كان الرجلان ينتظران إجابته.

نظر المصوّر الفوتوغرافيّ حوله ليرى ما إذا كان ثمّة منفذٌ للهرب، لكنّ الساحة كانت تعجّ برجال يرتدون الزيّ الرسميّ، لذلك هزّ كتفيه غير مكترث وسأله: «هل يعني هذا أنّني موقوف؟».

تكلّم الرجل الأصغر سنّا لأوّل مرّة: «لماذا تكون أصلا موقوفا؟ هل تشعر بالذنب أم ماذا؟».

فأجابه: «لسوء الحظّ، لا علاقة للأمر بكوني مذنبا أم لا ولا بالأفعال أيضا».

«بعبارة أخرى، من الأفضل أن تأتي معنا؟».

هزّ المصوّر الفوتوغرافيّ كتفَيْه، فمن المحتمل ألّا يستطيع إنقاذ فيلمه، لكنّه لن يتنازل عنه بإرادته وليس لهم حقّ المطالبة به.

قادوه بعيدا إلى حجرة كريهة وسيّئة الإنارة داخل شقّة باهتة حيث أمطروه بأسئلة لم يُجب على معظمها. لقد أرادوا أن يأخذوا منه معلومات عن صديقٍ له يعمل حارسًا في قصرٍ وعن زوجة هذا الصديق. وسألوا حتّى عن المرأة التي يعيش معها الآن ولم يتزوّجها بعدُ.

قال الرجل العجوز: «لو تصرّفت على نحو أكثر عقلانيّة، لتسنّى لك القيام بشيء أفضل من العمل وقّادًا في غرفة تسخين بنزل. ففي النهاية أنت متخرّج من أكاديميّة السينما وقد صوّرت حتّى بعض الأشرطة الوثائقيّة عن الحيوانات. أم أنا مخطئ؟».

«ما معنى التصرّف على نحو معقول؟».

قال قارع الطبل في فرقة الروك: «عليك أن تكون محاطا بأناس أكثر عقلانيّة حتّى يقدّموا لك الفكرة الصحيحة عن ذلك».

نصحه الرجل العجوز: «لم يكن عليك البتّة التقاط صور لحركة احتجاج من قبل أعداء الدولة، لعلّك وُعدت مبلغا كبيرا من المال مقابل تلك الصور من قبل بعض الوكالات الأجنبيّة، لكنّي أؤكّد لك أنّك لو قارنت بين ما ستكسبه وما ستخسره، فستجد نفسك من الخاسرين».

فأجاب بأن لا أحد عرض عليه المال مقابل أيّ شيء وأنّه لا يبيع صوره للوكالات أو للأفراد العاديّين. فهو يلتقطها فقط من أجل متعته الشخصيّة.

كان آخر شيء فعلاه أن ناولاه ورقة تفيد أنّهما صادرا الفيلم من كاميرته ثمّ تركاه يغادر.

في ذلك المساء اشتكى إلى المرأة التي يعيش معها فقدانَه الفيلم. فلسوء الحظّ، بداخله بعض الصور عن المظاهرة، إلى جانب صور الزفاف. هو يعتقد أنّه في ورطة حقيقيّة.

فقالت له صديقته: «كان يجب أن تكون أكثر حذرا». وكانت هذه ثاني نصيحة جيّدة تُقدّم له اليوم.

قال بحدّة: «أنا أحاول أن أكون حذرا قدر الإمكان».

«ربّما عليك القيام بشيء مّا حيال الأمر».

«ماذا تعنين؟».

فقالت: «ثمّة امرأة، وهي إحدى زبائني، زوجها يعمل في أرشيف الأفلام. إنّه يختار الأفلام ليشاهدها رجال الحكومة وكبار الشخصيّات وهو من ينتقي الأفلام للقصر».

«لماذا تخبرينني بهذا؟».

«يبدو أنّه يحبّ الأفلام التي تتحدّث عن الحيوانات ولاسيّما الأفاعي»، قالت وهي تشدّد في كلّ مرّة على كلمة «هو» حتّى لا تترك له مجالا للشكّ في أنّها تعني الرجل الذي يقطن القصر، وهو مركز إقامته الرئيسيّ. ثمّ واصلت: «لو أرسلوا إليه أحد أفلامك، فقد تثير إعجابه».

«لا يهمّني البتّة إن أعجبته أم لا».

«لكن قد يكون بإمكانه مساعدتك».

«ألا تعتقدين أنّ ثمّة أشياء أخرى تشغل باله؟».

«حسنا، ربّما ليس هو. فلا شكّ أنّ الرجل الذي يعمل في الأرشيف يعرف الكثير من الأشخاص المؤثّرين. وقد يكون بإمكانه ترتيب شيء

مّا».

«توقّفي! لا أرغب في سماع المزيد».

قالت: «لقد ظننت فقط...»، ثمّ لاذت بالصمت. فنهض عن الطاولة ودخل إلى الغرفة الأخرى وأخذ يذرعها جيئة وذهابا لبعض الوقت مثل حيوان في قفص. ثمّ توقّف عند النافذة ونظر إلى الخارج نحو السياج الحديديّ. كانت السيّارات مركونة خلف السياج وسط أكوام من الخردة المعدنيّة. ذكّره السياج بذلك الذي على الحدود. فاستدار بعيدا وفكّر بامرأة وقع في حبّها ذات مرّة، المرأة الوحيدة التي كان مولعا بها حقّا. لقد رآها في زيّ ممرّضة أبيض تسير على طول الرواق الطويل للمستشفى. فناداها باسمٍ كان له وقع غريب. ظلّ ينادي، وكاد يستعطفها: «آلي»، «آلينا». لكنّ المرأة ظلّت تمشي، دون أن تسمعه، أو على الأقلّ تتظاهر بعدم سماعه.

(II)

سقطت خيوط ضئيلة من الشمس على أرضيّة الزنزانة. عندما ضرب القاضي بمطرقته وأُصدر حكما بالإعدام في حقّه، حُشِر في زنزانة أفضل. فأصبح في وسع روبرت أن يرى الآن حتّى بعض قمم التلال الرابضة هناك وهو واقف على أطراف أصابعه. لكنّهم حشروا هذا الشخص المدعوّ غابو في الزنزانة نفسها معه، إنّه معتوه ومنحرف، ويتحرّش بالفتيات الصغيرات ويقتلهنّ ويعوي من الرعب عندما يفكّر في ما سيأتي. وفوق كلّ ذلك، كان وجهه الغبيّ يذكّره بالأحمق «ميلا» الذي أقحمه في هذه الورطة منذ البداية ثمّ ذهب ليموت،

وتركه لحتفه. عندما يحكمون على رجل بالإعدام، فانّهم يتخلّون عنه. فليس عليه إذَن أن يطرق المعدن أو يلمّع الخرز الزجاجيّ... لكنّ ذلك يعني أيضا أنّه لا يملك شيئا يطرد به الملل ويطرد الأفكار التي تعصف به.

مثل غابو كان يُسمح له بالحصول على كتاب، ومجلّات عديدة ورقعة شطرنج. لم يكن أيّ منهما يهتمّ لرقعة الشطرنج، فلا أحد منهما يعرف كيف يلعبها. حاول رفيق غابو السابق في السجن شرح أسس اللعبة له لكن لا شيء يمكنه اختراق تلك الجمجمة السميكة. لم يكن غابو يعرف القراءة أيضا، لذلك فهو حالما يرتّب سريره ويغتسل، لا يتبقّى له شيء آخر يفعله. فيظلّ منذ اللّحظة التي يستيقظ فيها صباحا وحتّى موعد انطفاء الأنوار يذرع الزنزانة جيئة وذهابا. فلا يتوقّف سوى مرّة واحدة ليزدرد لقمتين من الطعام أو ليعدّل من نعله أو يحملق في يديه الضخمتين والمنمّشتين، اللتين كان يستخدمهما لخنق أولئك الفتيات الصغيرات المثيرات للشفقة. كان أحيانا يتمتم بكلمات قليلة عن كيفيّة قيامه بذلك، لكن دون شعور بالذنب وبسهومٍ كما لو كان يتحدّث عن شخص آخر أو عن شيء غير مهمّ تماما. وفي أحيان كثيرة يأخذ في الانتحاب بصوت مرتفع مثل كلب يعوي أو مثل صفّارة إنذار .

كان ذلك كافيًا لدفع المرء إلى الجنون، لكنّ الغريب في الأمر أنّ روبرت، بعد فترة قصيرة، تعوّد وتوقّف عن الانتباه إلى ذلك. فهو يحاول القراءة، ولحسن الحظّ أنّ كتابا واحدا يأخذ منه أسبوعا كاملا.

فيما تعرضه مكتبة النزلاء كان مسكّنا على نحو كامل. وكان أمين المكتبة يرسل روايات تاريخيّة. لذلك كان يقرأ لأوّل مرّة عن شيء لا علاقة له بحياته بتاتا. مناظر طبيعيّة بريّة ومواثيق الشرف القديمة والولائم والبطولات وغرف التعذيب وعمليّات الإعدام والحبّ الرومانسيّ وأسماء أجنبيّة غريبة مثل «روبسبيار» و«غاندي» و«آن بولين». وكان أكثر ما فتنه بخصوص قصّة «آن بولين» أنّ الملك إذا أراد التخلّص من زوجة غير مناسبة لم يكن عليه خنقها، بل قطع رأسها فحسب. حاول أن ينقل رؤيته إلى «غابو» لكنّه لم يفهم الفكرة التي أراد تبليغه إيّاها. ليته فقط لم يكن يذكّره بـ «ميلا» وبكلّ ما حدث وكلّ ما أخفقا فيه بشكل ميؤوس منه. حاول إقناع «غابو» بالاستماع إلى القصّة كاملة مرّات ومرّات، فحتّى ذلك الأحمق يجب أن يكون قادرا على فهم أنّ خطّتهما كانت مثاليّة وأنّ «ميلا» هو من أفسد كلّ شيء. لقد ظلّا يراقبان حافلة مليئة بالأطفال، فلا أحد سيجرؤ على إطلاق النار عليها. صعدا بسهولة إلى الحافلة يحملان بنادق صيدٍ، صرخ في وجه السائق بجملة طالما كان يتوق إلى قولها منذ أن كان في السجن آخر مرّة وعندما فكّر فيها أعطته دفعا للمضيّ قُدُما: «هيّا دُس بقدمك اللعينة على البنزين! إنّنا ذاهبون إلى الحدود».

بدأت الفتيات الصغيرات يصرُخن خلفه لكنّه لم يحفل حتّى بالالتفات نحوهنّ. كان يكتفي بتركيز اهتمامه على المكان الذي يتوجّهان إليه. سيكونان خلف الحواجز خلال نصف ساعة، وعندما يفتحان النافذة الصغيرة سيفرغان بعض الرصاصات في مبنى الحراس حتّى يعرفوا أنّهما جادّان. وصلتهم الرسالة بسرعة فبدؤوا بالركض

وقد انتابتهم حالة من الرعب متوسّلين إلى روبرت وميلا أن يتحلّيا بالصبر إلى حين مجيء كبار الضبّاط.

ثمّ ظهر جنرال بزيّ مدنيّ وبدأ يحاول التقرّب منهما والتملّق إليهما. كان عليهما أن يطلقا النار عليه ويردياه قتيلا -لكنّ ميلا ذلك اللعين ابن العاهرة، أخذ يتحدّث إليه. فإمّا أنّه فقَد عقله أو أنّ رؤية هذا الجنرال يقف ذليلا أمامه مثل جنديّ بائس منحه شعورا بالرضا وهو يعده بحقّ السماء أن يسمح له بالعبور لو قام فقط بترك الأطفال يذهبون. بعد ذلك جاء المزيد من الجنود وكلّهم أقسموا بشرفهم- بشرفهم يا إلهي!- على السماح لهما بذلك وأيضا بأخذ السائق رهينة. يجب أن يكون هذا كافيا، أليس كذلك؟ لكنّ ميلا جُنّ حقًّا. حسنا لقد جُنّ كلاهما عندما صدّقوهم، أولئك المخادعون أولاد الحرام الذين لم يَصدقوا القول يومًا، ولا حتّى من قبيل الصدفة. لقد نسي عندما كسروا ساقه وطعنوه بسكّين أثناء شجار، وعندما لم يسمحوا له بالأكل مدّة يومَين في منزل الأطفال وتُرك هناك ليفنى. لا أحد حرّك ساكنا من أجله، ولا أحد فكّر به من حيث هو إنسان ولم يكن أكبر سنّا ولا أسوأ من هؤلاء الأطفال في الحافلة. لكنّه يشعر فعلا بالرضا عندما يتحدّثون إليه ويقطعون له وعودا وينادونه «سيّدي». لذلك فقد سايراهم وسمحا للأطفال بمغادرة الحافلة. ثمّ رُفع الحاجز فأخذا يهتفان لكنّ أولئك المخادعين سدّوا عليهما الطريق أكثر بواسطة سيّارة مصفّحة قبل أن يدركا حدوث ذلك وبدأ الرصاص يُطلق نحوهما من كلّ حدب وصوب.

لقد كان شيئا لم يشاهده من قبل سوى في الأفلام، لكنّ سيْلًا ثابتًا من اللّهب تدفّق من فوّهة السلاح. فلم يلق عليه سوى نظرة خاطفة قبل أن يسقط أرضا ويسقط جسد ميلا إلى جانبه. كان ميلا يصرخ كالمجنون وقد انتابته حالة من الدهشة أكثر من كونها حالة رعب وهو يشاهد خطّا من الثقوب تخترق زجاج الحافلة الأماميّ والتصدّعات التي شكّلت خطوطا متعرّجة تذهب في كلّ الاتّجاهات على الزجاج. ظلّ يشاهد انهيار الزجاج ويرى جسد السائق المتصلّب خلف المقود قبل أن يتمدّد إلى جانب ميلا غارقا في دمائه. أصابه رعب كامل واقترب دون تردّد من الباب وتدحرج على السلّم قبالة الباب مباشرة وقد أدرك لاحقًا أنّ ذلك هو ما أنقذه لأنّ أولئك الأوغاد كانوا ينبشون كامل الحافلة ويطلقون الرصاص مخترقين النوافذ والمقاعد. لذلك فقد أخذ يتلوّى على الباب الموصد وهو يصرخ: «أيّها الأوغاد، أيّها الأوغاد»، رغم أنّه لم يكن في وسعه سماع صوته وسط تلك الجلبة.

ساد الصمت أخيرا لكنّه لم يمتلك الجرأة للتحرّك، أو النظر حوله أو حتّى تفحّص نفسه. كان يسمع صوت وقع أقدام، فقد أشرع أحد أولئك الأوغاد الباب وهو ينظر داخل فوّهة بندقيّة آليّة فصرخ أحدهم: «يديك إلى أعلى!» مثلما يفعلون في الأفلام لكنّه بدلًا من ذلك تدحرج خارج الباص على الأرض تماما وسط بركة من النفط المتسرّب من الصهريج بعد أن ثقبه الرصاص.

مات ميلا لكنّ السائق مازال يئنّ. وضعوا الأصفاد في يديه وأخذوه إلى مبنى الجمارك. لقد دخل ذلك المكان مرّتين من

قبل، وكان يُزَجّ به دومًا داخل سجن من النوع الذي يمكنه العثور على طرق للنجاة منه. لكنّهم حشَروه الآن بمفرده داخل حفرة لا يخرجونه منها إلّا من أجل التحقيق معه محاولين جعله يعترف بوجود مَن حرّضه على القيام بهذا وأملى عليه ما عليه فعله، وبأنه إرهابيّ وقاتل أطلق الرصاص على السائق المسكين، وهو أب لطفلين. ظلّ فمه مغلقًا أغلب الوقت، فكيف سيفهمه هؤلاء الأوغاد على أيّة حال؟ فهو لم يُرِد غير الخروج من هذا البلد القذر والبائس حيث الشيء الوحيد الذي يحفلون به هو إرغامه على العمل بلا كلل ثمّ الظهور أمام الملإ والإعلان عن مدى سعادته بذلك، قبل أن يُعدَم.

لم يكن روبرت يعرف ما الذي يمكن قوله أيضا. ليته كان يستطيع التحدّث إلى هذا المعتوه فربّما يجدان كلاهما طريقة للفرار رغم أنّه ليس في وسعه تخيّل طريقة للتخلّص من هذه الحفرة، فما بالك بحكم الإعدام وتسلّق جدار بطول خمسة أمتار وتجاوزه والتسلّل أمام الأسلحة الآليّة المكدّسة في كلّ ركن من المحيط الخارجيّ. لكنّهما سيبذلان على الأقلّ نوعًا من المجهود الذهنيّ بدلا من انتظار فتح الباب وقدوم الحرّاس لمناداتهما قائلين: أحضرا أمتعتكما، أو بعد إعادة التفكير، لا تنزعجا فلا داعي لذلك، فلن تحتاجا إليها بعد الآن. انبعث صوت رنين المفاتيح من القفل وانزلاق المزلاج إلى الخلف ثمّ فُتح الباب. تجمّد في مكانه فقد كان الرعب ينتابه دومًا من ظهور الحارس على نحو غير متوقّع. وقف في وضع انتباه ونظر إلى عينَي الحارس الخاليتين من التعبير ثمّ استجاب بانضباط. كلّا لا يمكن لهذا أن يحدث. لقد تقدّم بطلب عفو ولا يمكن أن يكونوا قد رفضوه بهذه

السرعة. ولو فعلوا ذلك، لكانوا أعلموه.

وضع الحرّاس الأصفاد في معصميه ثمّ قادوه خارج الزنزانة. كان ثمّة حارسان آخران ينتظران في الممرّ فأشارا إليه بالذهاب معهما. فخطر له أنّ هذه هي اللحظة الوحيدة التي بإمكانه أن يحاول فيها الفرار، بهذه الأصفاد حول يديه وبوجود مرافقين يتعقّبانه في ممرّ مغلق.

إنّه لا يقوى الآن إلّا على التفكير في المكان الذي سيأخذانه إليه وفي سبب ذلك. لعلّهم رفضوا طلبه وأشفقوا على «غابو» لأنّهم يعتقدون أنّ محاولة التسلّل خارج البلد جريمة أسوأ من خنق الفتيات الصغيرات. إنّهم يأخذانه الآن إلى الساحة أو إلى حيث كان لنصب تلك المشنقة اللعينة.

دلفوا إلى المصعد ونزلوا إلى الطابق الأرضيّ. وكان المحامي الخاصّ به ينتظره في حجرة الزائرين. لقد تمّ تعيينه من طرف الدولة للترافع في قضيّة روبرت وهو رجل شابّ ببشرة ورديّة وجبين مرتفع، تبرز الشرايين على سطحه عندما يتكلّم. طبعا، لم يكن روبرت يعلم ما إذا كان محاميا جيّدا أو خنزيرا على شاكلة كلّ المحامين الآخرين. ولعلّ الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الحقيقة، رغم أنّه فوجئ عندما حاول المحامي إقناع أولئك الجرذان الملتحفين بالأردية أنّه، أي روبرت، لم تكن له نيّة قتل أيّ كان وهذا يتبيّن من خلال سماحه للأطفال بالنزول من الحافلة.

نهض المحامي، ذلك الرجل النحيف صاحب القامة الطويلة، ببطءٍ

وبهدوء كي يلقي عليه التحيّة، قائلا: «لم تتبقّ إلّا بعض أشياء صغيرة، سيّد «بارتوس»، فقد أودعنا المطلب ونتوقّع ردًّا خلال أربعة أسابيع». في هذا المكان، تبدو التحيّة الرسميّة مثل الشتيمة.

«أيّ نوع من الردّ؟».

«علينا أن نأمل في الأفضل. لكنّي سأزفّ لك خبرين سارّين».

تطلّع «روبرت» إليه في ترقّب .

«عندما سألتك آخر مرّة عن تاريخ ميلادك المحدّد، كان ذلك لأنّ أحد معارفي ضالع في علم التنجيم وهو يرغب في قراءة طالعك».

«لا أعرف –لا أفهم ما تتحدّث عنه».

«ألا تعرف ما معنى الطالع؟».

هزّ رأسه نافيًا.

«إنّها محاولة لتوقّع مستقبل شخص مّا من خلال موقع الكواكب لحظة ميلاده». شرح له المحامي ثمّ أضاف آسفا: «لكنّنا لسوء الحظّ لا نعرف تاريخ ميلادك بالتحديد».

«لم تخبرني أمّي بذلك قطّ. فعندما كنت صغيرا، حبسوها وقد قضى هذا عليها، فلم تعد من ذلك المكان إلّا لتموت».

قال المحامي بسرعة: «أعرف ذلك، لكنّ أحد أصدقائي نجح في تحديد خريطة الأبراج الخاصّة بك وقد عثر على ذلك الحدث بالذات داخلها ووجد أيضا أنّ كامل السنة الفارطة كانت مرحلة حسّاسة في

حياتك، وبالخصوص شهري مايو وسبتمبر. لكنّ هذا العام يبشّرك بمنعطفات واعدة». ثمّ مال المحامي نحوه فجأة وقال بصوت أشبه بالهمس: «لقد تمكّنا من ربط اتّصال مع الرجل الذي سيقرّر بخصوص طلبك في العفو. هذا مهمّ جدّا. وأنت تعرف كيف تسير هذه الأمور».

قال: «شكرا». لا يتكلّم المحامي أبدا بشكل مباشر ومن الصعب فهم ما يفكّر به حاليّا.

«علينا أن نأمل في الأفضل. فقد فعلنا كلّ ما في وسعنا وكلّ ما عدا ذلك، بين يدي الله. هل تصدّق هذا سيّد بارتوس؟».

«لا أعرف».

كان المحامي يتصرّف اليوم بغرابة، إنّه يبدو رسميّا جدّا ومتملّقا جدّا. وقد أشعره ذلك بالخوف.

«عليك أن تؤمن بذلك، ولا شكّ أنّ هذا سيجعل انتظارك أسهل».

«أنا حقّا لا أعرف الكثير عن ذلك». أجابه وهو يحاول أن يكون مهذّبا.

«أجل، حسنا، لم أكن أظنّ ذلك. وعلى أيّة حال فهذا كلّ ما أردت قوله. هل لديك أيّ شكوى تخصّ المعاملة التي تتلقّاها؟».

فحرّك نفسه نافيا.

أومأ المحامي قائلا: «جيّد، إذَن علينا أن نؤمن -أو بالأحرى عليك أن تؤمن- بذلك الطالع». خفض المحامي صوته من جديد وقال: «وفي اتّصالنا بالرجل الذي يستطيع منحك العفو». ثمّ عاد إلى التكلّم بنبرة صوت عاديّة: «أنا متفائل جدّا في خصوص قضيّتك. حاول أن تفكّر برحمة الله حتّى لو لم تكن تعرف الكثير عنها. فالناس الذين في مثل وضعيّتك يكتشفون هذه الأشياء بأنفسهم. فلا بدّ من وجود من يتحكّم بكلّ هذا في الأعلى. أعلى من العالم، أعلى من العدل، أعلى من التاريخ-هل تعرف ماذا أقصد؟».

لم يقل «روبرت شيئا». بل حدّق في الطاولة التي أمامه، فقد نحت أحدهم رسوم فروج على سطحها إلى جانب تعليق يشرح الرسوم لكنّه مُحي بسبب الخُدوش بينما ظلّت الرموز على حالها.

انحنى المحامي بالقرب منه وهمس: «الآن وقد انتهى كلّ شيء، أعني الآن وقد قدّمنا الطلب، أريد أن أطرح عليك سؤالًا، سيّد «بارتوس»، لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي يمكن أن يكون قد خطر لك؟».

إذَن فمن المحتمل أنّ الرجل في النهاية مجرّد واحد منهم، وقد أوكلت إليه مهمّة انتزاع اعتراف أخير منه .

«مثلما قلت لك سابقا، كنّا نرغب في الخروج من البلد».

أومأ المحامي قائلا: «أجل، لقد قلت ذلك فعلا لكن لماذا؟ ما الذي كنت تتوقّع أن تجده على الجانب الآخر؟ هل كنت تعتقد أنّك لن تكون مضطرّا إلى العمل هناك أيضا؟».

«اللّعنة، أجل لقد اعتقدت ذلك!» قال وقد تدفّق الدم إلى وجهه في شعور مفاجئ بالغضب ثمّ واصل: «لمَ لا تغرب عن وجهي أيّها الحقير!».

(III)

يتكوّن الموكب من سيارتَي شرطة بيضاء وصفراء وثلاث سيّارات ليموزين بشعة ومطليّة باللون الأسود الداكن، أمّا نوافذها الجانبيّة فتغطّيها ستائر بيضاء. ثمّ أخيرا سيّارة شرطة أخرى. فُتحت بوّابات حديديّة مزخرفة على مصراعيها ومرّت العربات عبر مدخل البوّابة أمام مجموعة من أشجار البقس وطبقات من الزهور التي تغطّي الأرض لتتوقّف أمام مدخل القصر. كان ثمّة خادم يقف أسفل الدرج. انحنى انحناءة وتقدّم نحو إحدى سيّارات الليموزين وفتح الباب ثمّ قدّم تحيّة رسميّة: «مساء الخير، إنّه لشرف لي أن أعمل معكم أيّها الرفيق الرئيس».

في السيّارة كان رجل عجوز يجلس بمفرده. لا شكّ أنّ جسده كان في وقت مّا فارعا وقويّا. لكنّه انحنى الآن بفعل الزمن. وكانت عيناه الداكنتان لا تكادان تبرزان من تحت حاجبيه الكثيفين وقد كان ينظر بفراغ عبر زوج من نظّارات سميكة نحو الرجل الذي فتح له الباب. ثمّ لمعت عيناه بإدراك مباغت. فالتفت العجوز ومدّ يده نحو حقيبة تنام على الكرسيّ إلى جانبه وناول الخادم إيّاها. ثمّ شرع في النزول فتأرجحت ساقاه أوّلا خارج السيّارة قبل أن يثبّتهما على الأرض بشدّة قائلا: «أجل، هذا صحيح»، ثمّ نظر أمامه بعينين ثابتتين وغائبتين، وتسلّق السلّم ودخل إلى البهو عبر المدخل الرئيسيّ ثمّ توقّف وقال في

تردّد: «كم السّاعة الآن؟».

«إنّها الثامنة فقط، أيّها الرفيق الرئيس».

«قد لا أستطيع النوم قبل منتصف الليل. ما الذي سنفعله؟».

«هل أدعو عارض الأفلام؟».

حرّك العجوز رأسه في نفي يكاد يكون لامرئيّا.

«أمين المكتبة؟ أو الخادمة؟».

تردّد العجوز هُنيهة ثمّ هزّ رأسه نافيا وسار عبر البهو ودلف إلى المنبت حيث يحتفظ بالأفاعي في صناديق زجاجيّة. توقّف أمام أحد الصناديق حيث تعيش أفعى الغابون. مال نحو الزجاج وبدا أنّه يتفحّص الناب الذي يخرج من وسط رأس الثعبان المسطّح. وقال: «لقد كانت زوجتي المسكينة تحبّهم» ثمّ سالت الدموع على وجنتيه. فوجّه أمرا إلى الخادم وهو لا يزال يدير له ظهره: «أحضر الشاي إلى مكتبي».

كانت ثمّة رفوف تعجّ بالكتب تغطّي اثنين من جدران مكتبه الأربعة، من الأرض حتّى السقف. بيد أنّه على مدى سنوات طويلة لم يجد الوقت لقراءتها. تقدّم الآن متجاوزا رفوف الكتب ليتوقّف عند طاولة تنتصب فوقها كومة من الملفّات مرتّبة بعناية في المسافة التي بين جهازي هاتف. فتح الملفّ الذي في الأعلى وتصفّحه وهو ينظر حول الغرفة بينما يفعل ذلك. أغلق الملفّ مجدّدا ومشى نحو النافذة واتّكأ على العتبة ومن وراء الستائر التي تحجبه مدّ بصره إلى الخارج، نحو

الحديقة. كان يفصل ممرّات الحديقة رمل أبيض ناصع، فتتباعد وتتقارب حينا وتتقاطع حينا آخر فوق مساحات من العشب المشذّب بعناية. وفي الجانب العلويّ من المنحدر بعثرت الشجيرات التي تهزّها الريح وأزهار الروديندرون بتلاتها على العشب. وفي الجزء السفليّ من الحديقة الصخريّة كان ثلاثة رجال يتسكّعون بين الصخور متظاهرين بزرع شيء مّا.

لعلّهم فعلا بستانيّون لكنّه لا يعرف بتاتا الهويّة الحقيقيّة للأشخاص المحيطين به.

لوهلة واحدة فكّر في الذهاب إلى الحديقة والتكلّم مع أحد منهم وسؤاله عن عمله الحقيقيّ هنا أو عن رأيه الحقيقيّ: ما رأيك في مجتمعنا الجديد؟ وما الذي تنتظره من المستقبل؟

سواء أكانوا بستانيّين حقيقيّين أم لا فهم سيظلّون غير قادرين على إجابته بصدق. فقد تمّ انتقاؤهم بعناية وتدريبهم بعناية أكبر، لا على الاهتمام بالأزهار بل على ما يجب أن يقولوه له إذا تعيّن عليهم لقاؤه.

يتقدّم الآن أحد الرجال الثلاثة سالكا الممرّ نحو القصر حاملا في يده باقة من الأزهار البيضاء. ظلّ الرئيس يراقبه حتّى غاب الرجل في مدخل القصر، ثمّ التفت مبتعدا عن النافذة وغرق في كرسيّ ذي ذراعين. مدّ يده إلى الملفّ الذي ألقى عليه نظرة قبل قليل وتصفّحه من جديد مدقّقا في مجموعة الحروف التي لم يعد يميّز أشكالها المنفردة بعضها من بعض.

طرق أحدهم الباب، وعندما أذن له بالدخول دلف الخادم يطأُ

الأرضيّة بخطى لا تُسمع قطّ، وبحوزته الشاي والأزهار. بحركات سلسة وضع فناجين الشاي الصينيّة والصحون على سطح الطاولة الزجاجيّة، ثمّ وضع إناء الأزهار البيضاء على حافّة النافذة. كان الخادم رجلا ضئيل الحجم ونحيلا، وكانت ملامح وجهه الرماديّ المائل إلى الشحوب غامضة لا تكشف طاعة ولا إذعانا.

«ما هذا الذي أحضرته؟».

«إنّها زهور الفاونيا البيضاء المفضّلة عندك، أيّها الرفيق الرئيس».

فتمتم الرئيس قائلا: «المفضّلة عندي؟ لقد كانت زوجتي تحبّها، زوجتي المسكينة. كانت تحبّ النظر إليها. أنا...». توقّف، ثمّ أضاف مشيرا إلى عينه: «لقد أصبحت في الآونة الأخيرة أرى الأشياء بضبابيّة. إنّهم يريدونني أن أُجري عمليّة. لكن ماذا سيحلّ بهذا المكان عندما أدخل المستشفى؟ ثمّ إنّه سيكون ثمّة أطبّاء بمشارط ومن سيؤكّد لي أنّهم أطبّاء حقيقيّون؟» توقّف عن الكلام لأنّه قال شيئا كان يمكن أن يقوله لزوجته التي مازال يتجاذب معها أطراف الحديث رغم أنّ ذلك لا يحدث عادة أمام الخادم. مدّ يده إلى كوب الشاي وصرف الخادم بإشارة من يده.

لقد كان بالفعل يتحدّث إلى زوجته، منذ موتها المأسويّ، أكثر ممّا كان يفعل وهي على قيد الحياة. ولعلّ ذلك لأنّها الآن تستطيع أن تكون إلى جواره طوال الوقت.

بعد مغادرة الخادم، اشتكى لها أنّ رفاقه يتآمرون عليه على نحو متزايد وينشرون حوله إشاعات خبيثة بين الناس عن طريق القنوات

المألوفة. تظنّ زوجته، رحمها الله، أنّ عليه القيام بشيء مّا حتّى يستعيد تأييد الشعب له. يمكنه التخفيض في الأسعار أو منح أحدهم عطفا خاصّا.

لكنّه تساءل: لمن سيمنح ذلك العطف؟ هل نسي بسرعة أنّه عندما أمسك بالسلطة منذ سنوات، كان عليه نفي عدد من المسؤولين المهمّين الذين رفضوا التسليم بواقع حكومته الراكد من الحياة العامّة، وأنّه تخلّص من أغلب الحرس القديم وحلَّ معظم وحدات القيادة العسكريّة؟ وأنّه طرد أساتذة الجامعة، وأسكت كلّ الصحفيّين وصنّاع الأفلام والأدباء الذين أبدَوْا أدنى علامة تمرّد؟ أمّا أولئك الأكثر تمرّدا فقد فرّوا خارج البلاد وانتهى كثيرون منهم في السجون. لكنّ أغلبهم لاذوا بمناطق الظلّ وقاموا بتلك الأعمال الوضيعة في المستودعات وفي غرف مراجل التدفئة وأماكن لجوء أخرى. ماذا لو تصرّف بشهامة نحو بعضهم؟ فالقيام بذلك كان سيبعث ببصيص أمل في نفوس عدد من الآخرين وبذلك يُضعِف مقاومتهم لحكومته ويلقي بخصومه في حالة من التخبّط. كان يمكنه أيضا أن يمنح عفوا لمتّهم محكوم عليه بالإعدام، وهكذا يعزّز من سمعته بالخارج. فهو يتذكّر كيف انتظر هو نفسه محاكمته من داخل الزنزانة وكان الإعدام هو النتيجة الوحيدة الممكنة رغم أنّه كان بريئا. فحكموا عليه بالسجن مدى الحياة.

ومن الغريب أنّه في ذلك الوقت، لم يكن قلقا بشأن الموت ولا فكّر في وضعه الميؤوس منه. على العكس من ذلك، فقد كان يتخيّل نفسه

يغادر السجن ويعود إلى رفاقه الذين انفصل عنهم بالقوّة بسبب المؤامرات التي حاكها أعداؤه ضدّه وكان على يقين من أنّه سيواصل طريقه لبلوغ هدفه النهائيّ بأن يكون الأوّل بينهم جميعا. تخيّل أنّه حالما يمسك بزمام أمور الحكومة بين يديه، سيجمع كلّ الذين أخطؤوا في حقّه: المستجوبين الذين عذّبوه أيّاما وليالي طويلة بسحب اعترافات عبثيّة منه، وحرس السجن الذين عذّبوه بحرمانه من الماء وتركه للبرد أو جرّه إلى داخل حبس منفرد شديد البرودة والرطوبة عقابا على أصغر ذنب يرتكبه. وبالتأكيد سيستدعي المدّعي العامّ وهو ابن ناجح ووفيّ لهذه الأمّة والعمّال الذين ثاروا ضدّه كما لو كان دكتاتورا وخائنا لمبادئه. وسيستدعي أيضًا شهود الزور ورئيس المحكمة المتآمر الذي لم يتردّد في إصدار حكم بالسجن المؤبّد في حقّه. سيجمعهم كلّهم ويجعلهم يقفون في صفّ بالبهو حيث يستقبل عادة الوجهاء الأجانب ورؤساء الدول وسيسألهم عن رأيهم فيه الآن وسيراقبهم وهم يتصبّبون عرقا وقد انتابهم شعور بالرعب وسيستمتع برؤيتهم يتلعثمون وهم يشرحون بأنّهم كانوا دومًا معجبين به وأنّهم كانوا فقط ينفّذون الأوامر وأنّهم تصرّفوا ضدّ قناعاتهم.

إنّه لم يحقّق سوى حلمه الأوّل والأكثر صعوبة: لقد أصبح رئيس الدولة، الرجل الأوّل في البلاد. لكنّ أولئك الذين حكموا عليه في السابق مازالوا يحكمون، ومازال مستجوبوه يستجوبون. إنّه يفضّل ألّا يبحث عمّا حلّ بهم. لقد فهم الآن أنّه يصعب تمييز كلّ أولئك الذين أخطؤوا في حقّه من أولئك الذين لم يفعلوا. فهؤلاء لم تسنح لهم الفرصة فقط للقيام بذلك. والفرق الوحيد أنّ الخوف حوّل الآن

أولئك الذين أساؤوا إليه حقّا إلى حلفاء له مخلصين.

إنّ زوجته، رحمها الله، تنتظر الآن إجابة. أجل، سيفعل شيئا مّا لكن عندما يحين الوقت المناسب لذلك. سيأتي غدا زنجيّ من بلد مّا -وهو لا يعرف حتّى أين يقع- في زيارة رسميّة. ومازال يتعيّن عليه قراءة أوراق الإحاطة وتفقّد قائمة الطعام ليتأكّد أنّهم لم ينسوا إدراج فيليه «سمك السلمون المرقّط».

أجل سيقوم بحركة عظيمة لكنّها لن تحقّق شيئا. فالجميع ينتظرون ارتكابه أيَّ زلّة كي يتخلّصوا منه. هكذا هم النّاس، حسودون ويسعوْن فقط إلى مصلحتهم. فلو مُنحوا نصف فرصة فقط، لهدموا بيوتهم وسوّوها بالأرض وقلّصوا الجسور إلى براغيّ ومسامير والطرقات إلى حصى والمكنات إلى تُرُس، وسيطحنون العظام ويحوّلونها إلى غبار. سيحرقون كلّ شيء لأنّ النار عشقهم. فمن خلال دراسته للتاريخ، يعلم أنّ البشر في جوهرهم مفتعلو حرائق. إنّهم يرمقون الكنائس والقلاع والقصور ويحلمون برؤية ألسنة اللّهب تأكلها.

وفي وجه كلّ هذه القوى، ها هو يقف الآن وحيدا. وكلّ ما تبقّى له هم السائقون والبستانيّون والخدم والأطبّاء.

طفق العجوز ينتحب ثمّ اتّخذ قراره وضغط على زرّ فدخل الخادم في الحال تقريبا كما لو كان على أهبة الاستعداد أمام الباب.

فأمره: «أريد شرابا، هل مازال هناك القليل من ذلك الكونياك الجيّد؟».

«طبعا، أيّها الرئيس الرفيق».

«أحضر لي كأسين، يا رفيق»، قال له آمرا، ثمّ راقب الخادم وهو يفتح باب ثلّاجة صغيرة تختفي بين رفوف الكتب وسحب قنّينة بصليّة الشكل بداخلها سائل ذهبيّ ضارب إلى اللون البنّيّ. وكان للكأسين الضخمين جذعان بطول متفاوت. سيحصل هو على الكأس الأطول. صبّ الخادم السائل في الكأسين وبقي ينتظر.

فأمره قائلا: «اجلس».

«شكرا لكم أيّها الرئيس الرفيق».

جلس الخادم بجمود على المقعد الجلديّ وهو متأهّب للقفز على قدميه من جديد في أيّ لحظة.

«هلاّ ذكّرتني باسمك ثانية؟».

«كارل هوسكا، أيّها الرئيس الرفيق».

أومأ الرئيس، فقد بدا الاسم مألوفا لديه، ولا شكّ أنّه سأل عنه قبل الآن. ثمّ قال: «حسنا، اشرب إذَن».

تفحّص الخادم كأسه، ثمّ قال باحتفاليّة: «لو سمحت لي، أيّها الرئيس الرفيق أريد أن أشرب نخب صحّتك».

أخذ الخادم رشفة واحدة، أمّا الرئيس فقد سكب كلّ الكأس في جوفه دفعةً واحدةً. هو يعرف أنّه ليس من اللّائق الشرب بهذه الطريقة، وهو لا يفعل ذلك عندما يشارك في حفلات الاستقبال

الرسميّة لكن ليس ثمّة داع للمراسم هنا.

ثمّ قال: «إنّه مشروب قويّ، أليس كذلك؟».

«قويّ أيّها الرئيس الرفيق». ثمّ أعاد ملء كأسه.

فأمره الرئيس: «صبَّ لنفسك البعض أيضا». وسأله: «هل أنت متزوّج؟».

«أجل، أيّها الرئيس الرفيق».

«ألا يزعجك عملك بهذا الشكل؟».

«لقد تعوّدت على ذلك الآن».

«وماذا كنت تعمل قبل الآن؟ هل عملت في الخدمة ذلك الوقت أيضا؟»

«لقد كنت نادلا. كان عملا أقلّ مسؤوليّة لكنّه أكثر مشقّة».

«هل أفهم من كلامك أنّك سعيد هنا؟».

«أنا فخور جدّا أيّها الرئيس الرفيق بالحصول على هذا المنصب».

فسأله وقد خطر له أنّ بإمكانه معرفة شيء مّا من خلاله: «وماذا يقول الناس؟ هل يطرحون عليك أسئلة كثيرة؟».

«لعلّهم يفعلون، لكن لا أحد يعلم أنّي أعمل هنا».

«وماذا عن زوجتك؟».

قال الخادم محافظا على خلوّ وجهه من التعابير: «إنّ قول أيّ شيء

لامرأة، أيّها الرئيس الرفيق، هو بمثابة نشر خبر في الصحف».

فحثّه قائلا: «هيّا، اشرب!».

رفع الخادم كأسه بطريقة احتفاليّة وظلّ يرفعها هكذا لحظةً في مستوى العين ثمّ أخذ جرعة.

«هل لديك أطفال؟».

«أجل، أيّها الرفيق الرئيس. اثنان».

«هل يدرسان؟».

«لقد أنهيا الدراسة، أيّها الرئيس الرفيق. أحدهما جنديّ والآخر مهندس».

فمدحه قائلا: «جيّد جدّا، نحن نحتاج إلى جنود ومهندسين. هل تحصّلا على وظائف جيّدة؟».

«أجل إنّهما على ما يرام».

أومأ العجوز. يبدو الخادم شابّا في غاية اللطف. فهو يعرف أنّ أحد خدمه شابّ لطيف وصادق وثابت وربّما يكون هذا. يُحتمَل أن يكون للخادم الآخر طفلان أيضا. يبدو أنّ للجميع طفلَين أو على الأقلّ فهم يدّعون ذلك. «هل تحمل معك صورا لهما؟».

«في الحقيقة، أجل أيّها الرئيس الرفيق».

ثمّ أخذ محفظة من جيب صدر جاكيته المصمّم بشكل مثاليّ وسحب صورتين.

نظر الرئيس إلى الوجهين غير المألوفين بعينين فارغتين وقال: «ولدان وسيمان، لك أن تكون فخورا بهما».

سمع صوت صرير خافت يأتي من خلفه فأدار رأسه قليلا كما لو كان يطمئن نفسه أنّ كلّ كتبه في مكانها.

هي بالتأكيد في مكانها. لكن يوجد هناك، أمام رفّ الكتب الذي تغرق أرجله في السجّاد السميك، ذلك الشيء ثانية، ينتصب مثلما يفعل كلّ مساء تقريبا: نعش يحمل تابوتا مفتوحا. يوجد الليلة واحد فقط لكن في بعض المساءات يكون عدد منها مصفوفا بعضه بجانب بعض إلى حدّ يجعل الاقتراب منها أمرا لا يكاد يكون ممكنًا. لقد نجحوا اليوم في جلب واحد فقط منها. إنّه تابوت زوجته، كانت ترقد داخله وكان يكاد يرى ملامحها تحت الملاءة البيضاء الناصعة. لم يسمحوا له قطّ برفع الملاءة، فقد قالوا إنّ رؤيتها ستكون مريعة وإنّ جسدها تضرّر عند السقوط وأصبح من الصعب التعرّف عليه. إنّه يطيعهم دومًا رغم أنّ هدفهم الوحيد هو تعذيبه ومطاردته تدريجيّا حتّى الموت. لهذا فهم يدفعون بها إلى هنا كلّ مساء صحبة كلّ الآخرين أيضا رغم أنّه لا يعرف معظمهم ولا ذنب له في موتهم. مثل عمّال المناجم الثمانية، أولئك الذين جُلِبُوا يوم الأحد الفارط ولم تقع حتّى تغطية وجوه بعضهم المشوّهة كما ينبغي. هل هو المَلُوم عن موتهم؟ هل هو من أمر بمناوبات يوم الأحد؟ وحتّى لو كان هو من أمر بذلك، ألم يكن الجميع يتذمّرون من عدم حصولهم على ما يكفي من الفحم؟ لقد كان ثمّة دومًا شيء غير متوفّر، شيء منسيّ، شيء مهمل ثمّ لقي الناس حتفهم، مسمومين بالمياه الرديئة، ومختنقين بالموادّ السامّة، ومنفجرين إلى أشلاء، ومُعرّضين للإشعاعات -رغم أنّ الخبراء

أكّدوا له أن لا أحد تعرّض للإشعاعات- ومقتولين بسبب الشوائب التي تحتوي عليها الأدوية أو بسبب نقص الأدوية أصلا، ثمّ يستعرضون جثثهم هنا حتّى تظلّ تطارده. ذات مرّة انسلّ خارج حفل استقبال للجنرالات ليجد أنّهم قد ملؤوا كامل الممرّ بالنقّالات. ولأنّه كان ثمّة الكثير منها، فقد كدّسوها على طول الجدران في شكل أربعة طوابق مثل الأسرّة ذات الطوابق. كان المنظر بشعا وشائنًا. ولم يكن لديه الخيار سوى شقّ طريقه أمامها والتظاهر بعدم رؤية شيء.

ملأ الخادم كأس الرئيس ثانية.

«صُبّ بعض الشراب لنفسك أيضا أيّها الفتى»، كان ينبغي عليه أن يطلب من الخادم أخْذها بعيدا لكن يعلم الله مَن هذا الخادم حقّا. فقد يكون واحدا منهم.

«ما الذي كنت تفعله قبل القدوم إلى هنا؟».

«كنت نادلا، أيّها الرئيس الرفيق»، أجابه الخادم بنبرة فخر كما لو كان جنديّا على وشك الحصول على ميداليّة .

«أجل، نادل... جيّد، جيّد. وماذا عن زوجتك؟ هل لديك زوجة؟».

«أجل، أيّها الرئيس الرفيق. لقد كانت تعمل سائقةَ قطار». تململ الخادم في مقعده ومال إلى الأمام وظهر تعبير مّا على ملامحه الجامدة. هل هي الذكريات أم شعور مباغت بالحرج؟

«أجل، سائقة، سائقة»، كرّر الكلمة واستمرّ قائلا: «لا شكّ أنّها زارت قدرا لا بأس به من بقاع العالم. هذا ما كنت أرغب في القيام به دومًا، أن أزور عددا من الأماكن في العالم».

فأجابه الخادم بزهو كما لو كان من المسؤولين: «وقد حقّقت أمنيتك أيّها الرئيس الرفيق».

قال الرئيس: «إنّ ذلك يمنحنا فرصة إلقاء نظرة على ما يحدث في العالم». وبينما خطا الخادم بخفّة وحذر نحو التلفاز، استرق نظرة على رفوف الكتب. كانت الكتب تتظاهر بالتزام أماكنها المناسبة، غير أنّه يعرف أن ليس أسهل من دسّ جهاز خفيّ بحجم كوّة الباب لتفجيره بواسطة الإشعاع. أحيانا عندما يكون في وسعه التركيز، يتمكّن من رؤية جزيئات من الأشعّة السامّة والضاربة إلى الخضرة تتدفّق من ظهور هذه المجلّدات المظلّلة وتخترق رأسه حيث تنفجر وتحطّم خلايا دماغه.

أضاء شاشة التلفزيون وجاء صوتُ المذيع المنغّمُ والمألوفُ: «وهي الطريقة الصحيحة والوحيدة التي ستقودنا إلى الأمام...»، فصفّق أحدهم، وتعانق رجلان، ثمّ صعد أحدهما على الطائرة، والتفت ملوّحا بيده قبل أن يختفي عبر الباب. لكنّه لم يكن أحدَ هذين الرجلين، لذلك لم يعبأ بالأمر.

عاد الخادم إلى مقعده ونظر بتهذيب إلى الشاشة. قال المذيع بصوت يغلّفه الادّعاء: «لم يكن مجتمعنا على وشك تحقيق الأهداف الكبيرة التي رسمها لنفسه مثلما هو الآن...».

تململ الخادم قليلا في مقعده فخشي الرئيس فجأة أن يلاحظ عدم اهتمامه. فتفحّص وجهه لكنّه لم يجد شيئا وقال: «صحيح، صحيح ولطالما كان الأمر هكذا، اليوم وغدا وإلى أبد الآبدين. يمكنك إطفاؤه الآن». وعندما التفت الخادم نحو جهاز التلفاز، ألقى الرئيس نظرة أخرى سريعة على رفوف الكتب. فتحرّك أحد المجلّدات على نحو لا

يكاد يكون مرئيّا، لكنّه أفلح في أن يلمح العين السحريّة في ظهر الكتاب أثناء انغلاقها .مازال النعش في المكان نفسه، لكنّ نعشا آخر ظهر الآن إلى جانبه. من أجل مَن هو؟ لا شكّ أنّه من أجله هو بالتأكيد.

عاد الخادم من الشاشة الفارغة إلى مكانه، وجلس. لم يكن وجهه يعكس أيّ تعبير على الإطلاق.

«وممَّ كنت تعيش قبل المجيء إلى هنا يا فتى؟» سأل الرئيس.

«كنت نادلا أيّها الرئيس الرفيق»، أعلن باعتزاز مضيفًا: «كنت أقدّم الطعام والشراب».

فسأله: «أفترض أنّك لا ترغب في القيام بذلك بعد الآن، أليس كذا؟».

«أنا سعيد بما أقوم به أيّها الرئيس الرفيق».

سأله: «هل لديك زوجة؟».

«أجل، لديّ زوجة».

«وهل هي في صحّة جيّدة؟».

«في صحّة جيّدة، لحسن الحظّ، أجل في صحّة جيّدة».

«ألا تشكو حتّى من ألم في أسنانها؟».

«بلى، أحيانا. تعاني من مشاكل في أسنانها».

«ألا يزعجها أيّ شيء آخر؟».

«من حين إلى آخر فقط، أيّها الرئيس الرفيق».

فقال له: «ينبغي ألّا يحدث ذلك، ينبغي ألّا يكون لدى زوجتك أيّ مخاوف. هل بإمكاننا مساعدتها على نحو مّا، أو القيام بشيء مّا لإسعادها؟».

«لا أجرؤ على الأخذ من وقتكم من أجل مثل هذه الأمور التافهة، يا سيادة الرئيس الرفيق».

فقال له آمرا: «هيّا، تكلّم!».

«في الواقع سيكون من دواعي سرور زوجتي إذا كان بإمكانكم النظر في طلب خاصّ للعفو».

«أوه يا إلهي، هل تطلب زوجتك العفو؟».

«كلّا، ليس هذا ما قصدته، يا سيادة الرئيس الرفيق. إنّ زوجتي تقصد الرجل الذي اختطف الباص، ذلك الذي حكموا عليه بالإعدام». ظلّ وجه الخادم خاليا من أيّ تعبير وهو يبلّغه هذا الطلب المفاجئ».

«لكن ليس لذلك علاقة بك أو بزوجتك بالتأكيد. أليس كذلك؟»

«كلّا، كلّا، بالتأكيد لا».

فقال له مكرّرا مرّتين: «إنّه لأمر مثير للاهتمام، مثير للاهتمام. ولماذا تهتمّ زوجتك لأمره؟».

«أووه، أنت تعرف النساء يا سيادة الرئيس الرفيق. لقد سمعت بشيء مّا أو حتّى رأت شيئا مّا وأثار الأمر فضولها». ثمّ أضاف الخادم متردّدا: «بالإضافة إلى أنّ الأمر قد يكون متعلّقا بأحد الأقارب البعيدين. أنتم تعرفون النساء وطلباتهنّ».

«أخبر زوجتك ألّا تقلق بشأن هذا الأمر، سننظر في طلبها».

«هل أدوّنه لكم؟».

فأمره: «دوّنه».

نهض الخادم وتوجّه إلى الطاولة. إنّه الوقت المناسب. سيكتب الملاحظة وظهره إلى الرئيس، ثمّ سيتمكّن من التسلّل خارج الحجرة في اتّجاه الحديقة دون أن يلاحظه. هناك، في أقصى ركن من الحديقة، انتقى شجرة، شجرة دلب، وكلّ ما عليه فعله هو تسلّقها، فأغصانها تتجاوز الجدار علوّا، ثمّ القفز من فوقها ليصبح حرّا.

فهؤلاء الأغبياء يظنّون أنّ أحدهم قد يحاول اقتحام المكان من الخارج، لذلك فقد قطعوا كلّ الأشجار من جهة الجدار الأخرى. ولم يخطر لهم أنّ أحدا مّا، وربّما هو نفسه، قد يرغب في الهرب.

تسارعت أنفاسه في حماس. ونهض من مقعده خفية، ثمّ أخذ يحوم على أرض الحجرة بحذر، بحذر شديد وابتعد عن السجّاد الناعم وطاف حول رفوف الكتب. ثمّ رآه، عالقا وسط الرفوف بجانب الباب تماما، ومحاطا بالمجلّدات السميكة، فلم يكن يظهر منه سوى رأسه وقد لاحت بعض أجزاء جسده الملتوي والمشوّه على نحو لا يصدّق، إنّه قاتله. لقد تعرّف إليه على الفور بتلك الجفون المتقيّحة التي بلا رموش وذلك الفم المليء بالأسنان المصفرّة المائلة إلى اللون البنّيّ.

إذَن لقد أدخلوه خلسة إلى هنا. إنّ جرأتهم لا تعرف حدودا رغم أنّهم لا يثقون بأنفسهم تماما، فقد حشروه هكذا وعزلوه تقريبا وسط

الجدران. وهو متفاجئ باكتشاف أمره، ها هو الوحش يحاول الآن رسم ما يشبه الابتسامة على وجهه.

ماذا لو يصرخ الآن طلبا للنجدة من خادمه؟ ماذا لو يذهب إلى الهاتف ويطلب اجتماعا وزاريّا فوريّا ويعلن حالة الطوارئ؟ عندها سيكون بإمكانه وضع هذا المخلوق وكلّ الآخرين أيضا في المكان الذي ينتمون إليه -أمام فرقة للإعدام بالرصاص. لكنّه لن يفعل ذلك، فقد اتّخذ قرارا بالحكم من دون قوّة .

قال الخادم الماثل خلفه: «أيّها الرئيس الرفيق، ألم يحن وقت الذهاب إلى النوم؟».

فسقط الرئيس فجأة على الأرض.

ساعده الخادم ليجلس على مقعده ثانية وجلسا متقابلين من جديد. على الجانب الآخر من النوافذ العازلة للرصاص، كان الليل الحالك يتراقص أمام عينيه. ينبغي عليه التوقّف عن الشرب. فقد أوصاه الطبيب بعدم تجاوز كأسين في اليوم. لكن من هو هذا الطبيب في الحقيقة؟ ومن هذا الفتى الجالس أمامه؟ لا بدّ أن يسأله عن اسمه وعن عمله قبل مجيئه إلى هنا وعمّا إذا كان لديه زوجة وأطفال.

لكن مهما تكن إجابة هذا الرجل، فستكون حزمة من الأكاذيب.

الفصل الثاني

(1)

تمّ منح ترخيص للمظاهرة التي كانت في الحقيقة أشبه باجتماع عامّ. لقد كانت تمثّل أوّل تجمّع شرعيّ للمعارضة منذ عشرين سنة. كانت أغلب الوجوه التي رآها عبر عدسة الكاميرا مألوفة لديه. إنّها وجوه أولئك الذين كانوا دومًا موصومين بأنّهم أعداء الشعب. وقوفهم الآن على منصّة يخاطبون الحشود التي امتلكت الجرأة للتجمّع كان نقطة تحوّل ونذير شؤم في الآن ذاته. فقد سمحت لهم السلطات باستخدام ساحة صغيرة على تخوم المدينة. وخلال شهر أو شهرين سيسمحون لهم باستخدام ساحة في مركز المدينة. وحتّى لو لم يُرَخّص للناس في المظاهرات فإنّهم سيأتون على أيّة حال، وبأعداد كبيرة، ولن يتمكّنوا من إيقافهم. يمكن الحكم بقبضة من حديد أو عن طريق التوافق. أمّا أولئك الذين لا يملكون الحزم ولا الشجاعة للتوافق فسيجدون ملاذًا في اعتقاد أنّ بإمكانهم البقاء بمكان مّا في المنتصف. لكنّ ذلك وهم.

كان يوما شديد البرودة، فتصاعدت سُحُب نَفَس من أفواه المتحدّثين، لكن لا يبدو أنّ أيّ أحد منهم يشعر بالبرد. فحتّى أولئك

الذين يتحلّقون في شكل دائرة حول المنصّة بدَوا كما لو أنّهم أغرقوا أنفسهم في دفء الكلمات التي كانوا يسمعونها إلى حدٍّ جعلهم يخلعون قفّازاتهم ويكشفون عن رؤوسهم. وفتح المتلصّصون من الناس الذين يقطنون الشقق في البنايات المحيطة بالساحة نوافذَهم ليصغوا جيّدا.

كان هناك متحدّثون كثرٌ، لكنّ بافل اليوم بمفرده. فقد كان سوكول في عطلة مرض، ثمّ إنّ رؤساءه في العمل يعتبرون أنّ من غير الملائم سياسيّا إظهار اهتمام مبالغ فيه بهذا التجمّع.

لنفترض أنّه طلب من أحد المتحدّثين إجراء حوار معه؟ فهل سيرفض ذلك أم سيرحّب بتلك الفرصة؟ من المحتمل أن يرحّب بذلك. فهؤلاء الناس حُرموا حرّية التعبير سنوات طويلة .

ما رأيك في وضع حقوق الإنسان بهذا البلد؟ هل يعتبر السماح لتنظيم هذا التجمّع تغييرا إلى الأفضل؟ هل تتوقّع تنظيم مثل هذا التجمّع بشكل أكثر تواترا؟ وماهي أهدافكم الأساسيّة؟

لكنّهم سيتحدّثون إليه فقط. فأربابه في العمل، وهم الذين عبّروا عن رفضهم لإجراء مثل هذه الحوارات، سيراقبون محتوى التسجيل. هل سيطردونه عقابًا له على تمرّده؟ ربّما. يجب عليه ألّا يخدع نفسه: مجرّد رضوخهم لأولئك الناس لا يعني أنّهم رضخوا له هو أيضا. فالناس الذين على المنصّة يحظون بأشكال عديدة من الحماية وأسماؤهم معروفة لدى رؤساء الدول الأجنبيّة. أمّا اسمه فمعروف فقط لدى رئيس دولته، طبعا إذا دوّن اسمه في البداية ونجح في تذكّره. وبإجرائه حوارًا كهذا، لن يقدّم العون لا لنفسه ولا لأيّ أحد آخر. إذَن لماذا

يكلّف نفسه هذا العناء؟

صوّر الخطابات. وعليه الاعتراف بأنّها أكثر أهمّيّة من خطابات المسؤولين الرسميّين، بالإضافة إلى أنّ وجوه المتحدّثين بدت أكثر إثارة للاهتمام أيضا. فهي لا تزال معبّرة وتنضح حماسا.

عندما كان يجمع تجهيزاته، اقترب منه رجل عجوز بأنف مثل منقار الببّغاء وقال له: «أراك تصوّر فيلما، ما رأيك بكلّ هذا يا سيّدي؟».

هزّ كتفيه غير مكترث. فليس لديه أيّ رغبة في الحديث عن أيّ شيء، فما بالك بالحديث عن هذا التجمّع مع شخص غريب.

«أخيرا، لقد سُمع صوت الحقّ».

فاجأته تلك الملاحظة فتفحّص وجه الرجل. لقد كان أكبر سنّا من أن يكون عميلا محرّضا.

«يمكن إسكات الحقيقة سنواتٍ وأحيانا قرونًا، لكنّها ستظهر في النهاية. هل تصدّق أنّني ظللت أقول هذا سنوات؟».

عندما لم يتلقّ إجابة، واصل الرجل شرحه: «لقد قلت هذا في البداية لعصافيري فقط. لكن منذ أن حصلت على ترخيص، صرت أقوله في كلّ مكان: في العربات وفي البارات وفي الاجتماعات. لقد كنت مدرّسا جيّدا في السابق. في البداية كان لديّ تلاميذ، ثمّ أصبح لديّ عصافير في قفص والآن لديّ عصافير هنا». قال ذلك وضرب على جبينه. ثمّ، وعلى نحو دراماتيكيّ، أنهى حديثه بسحب قطعة من الورق على شكل أذنَي كلب، يبدو أنّها شهادة تؤكّد جنونه.

فقال للرجل العجوز: «من الجيّد أن تكون لديك ورقة كهذه. أنا متأكّد أنّها مفيدة جدّا». ثمّ صعد بسرعة إلى سيّارته حتّى يهرب منه.

بعد ما يناهز ساعة من تركه شريطَ التسجيل في الأستوديو، كان يصعد سلّم شقّة قديمة على بُعد شوارع قليلة من الساحة التي تمّ فيها الاجتماع العامّ. لقد وُلد هنا وذهب إلى المدرسة المجاورة. هذا هو المكان الذي هرب منه والده. ثمّ حاول هو الهروب منه. لكنّه على عكس والده عاد ومازال يعود إليه حتّى الآن.

كانت أمّه تجلس في كرسيّ بذراعين حذو النافذة التي لا يكاد يتسرّب الضوء منها إلى الغرفة في هذه السّاعة من فصل الخريف. كانت نائمة، فهي لم تعد تغادر كرسيّها إلّا نادرا. وضع التلفزيون في موضع يمكّنها من مشاهدته لكنّها لا تشغّله مطلقًا ولا تفتح الكتاب الذي ينام على الطاولة المحاذية لها. لم تعد أيضا قادرة على الحياكة، فالإبرة صغيرة جدّا وليس بوسعها إمساكها بأصابعها. لقد أضحت حياتها فارغة من أيّ اهتمام. لم يكن وجهها يعبّر عن أيّ شيء وقد برزت الشرايين فوق يديها بوضوح على نحو يجعلها تبدو كمنحوتة خشبيّة خامّ. كانت لا تنفكّ تذكّره بدمية خشبيّة برأس امرأة مسنّة نُحِت بشكل مثاليّ. ربّما يوما مّا، وليس ببعيد من الآن، سيتحدّث إليها ويلمسها لكنّ الدمية لن تجيبه بعد الآن.

تململت أمّه في كرسيّها ونظرت إليه عبر نظّارتيها السميكتين وقالت: «هل هذا أنت يا بافل؟».

«هذا أنا».

«ما الذي تفعله هنا؟».

فشرح قائلا: «لديّ عمل في مكان قريب من هنا».

«أنت دائم السّعي خلف شيء مّا».

«لقد نظّمت المعارضة مظاهرة».

«لا أعرف ماذا تقصد؟».

«تجمّع عدد من الأشخاص في ساحة. وألقوا خطابات»، لم يعد في الأمر أيّ معنى من شرح أيّ شيء لها. فهي لا تفهمه. فإمّا أنّه ليس في وسعها سماع ما يقوله لها أو أنّها تفهم الكلمات منفردة دون أن تستطيع تجميعها في جُمل تعني لها شيئًا. لقد تحدّث إليها عن حياته لسنوات، وأساسا عن إنجازاته وكانت تصغي إليه. كانت تظلّ صامتة وربّما حتّى مرتابة لكنّها كانت تصغي. إنّه يجد الآن صعوبة في تقَبُّل حقيقة أنّه يفقدها، وأنّه، في الواقع، كان قد فقدها .

«لطف منك أن تمرّ لزيارتي. ما الذي كان يشغلك كلّ هذا الوقت؟».

«لقد أنهيت ذلك الفيلم عن الرئيس وسيعرضونه الشهر المقبل».

أومأت برأسها دون أن تكون لديها أيّة فكرة عن الفيلم الذي يتحدّث عنه، ولا أيّ رئيس. فقد عايشت الكثير من الرؤساء ولم تكن تكترث لهم. حتّى إنّها لم تعد تهتمّ به هو، هذا إن اهتمّت بأيّ كان عدا نفسها.

سألته: «ما الذي عليّ فعله؟».

«يمكننا الذهاب في جولة صغيرة».

«لا أستطيع».

«لِمَ لا؟».

«لأنّني لا أستطيع»، ثمّ هزّت رأسها وأضافت: «الطقس بارد في الخارج».

«يمكنك أخذ معطفك».

«ليس لديّ معطف».

«سأفتّش لك عنه».

«لا يمكنني الذهاب في جولة وقدمايا ميّتتان».

كانت قدماها بخير، وكان عقلها هو الميّت.

أغمضت عينيها. إلى جوارها طاولة وُضع عليها طبق من بقايا طعام بارد: بعض حبّات بطاطس تغطّيها صلصة حمراء مائلة إلى البنيّ تنبعث منها رائحة كريهة .

«ما الذي عليّ فعله؟».

«ما الذي تعتقدين أنّه يمكنك القيام به؟».

«لا أعرف هذا ما أسألك عنه».

«هل أشغّل التلفزيون؟».

لم تفهمه. بالإضافة إلى أنّه لاحظ أنّها لن تهتمّ به. وعلى أيّة حال فالتلفزيون عزاء للوحيدين والمهجورين، وللناس الذين لا يلتقون بأحد ولا أحد يتحدّث إليهم. أخذ طبق بقايا الطعام إلى المطبخ. كان صنبور المطبخ تالفًا فتسرّب منه خيط رقيق من الماء. وعلى الحائط فوق المغسلة، ثمّة صور عديدة معلّقة بأطر رخيصة. كانت صورا سبق له أن التقطها. بورتريه شخصيّ له عندما كان في الثامنة عشرة ويدًا امرأة مسنّة لا شكّ أنّها ماتت منذ زمن طويل. في الصورة الموالية كلب دلماسي، وكان ميّتا أيضا، كان يدعى «سيوداد» و«سيوداد» اسم مدينة. في ذلك الوقت، كانت الكلمة تتضمّن كلّ توقه إلى مكان بعيد جدّا. لقد خطّط لهربه وهو يفكّر بهذه المدينة البعيدة. عندما كان في السجن، كانت أمّه تزوره وتجلب له دومًا الطعام ملفوفا بعناية. وفي إحدى زياراتها له كان قد سألها عن أحوالها فأجابته: «ما الذي تتوقّعه؟ أنا وحيدة. الجميع هجروني حتّى أنت حاولت تركي».

ألقى ببقايا الطعام في سلّة المهملات وغسل الطبق. ثمّ فتّش عن بعض الأدوات وبدأ بتفكيك الصنبور.

عندما ذهبا إلى الكوخ المستعار معًا، قالت له «ألبينا»: «كنت مغرمة».

انتظرها حتّى تخبره بالمزيد، لكنّها لم تقل شيئا ونظرت إليه كما لو أنّها قالت الكثير. والآن حان دوره ليتكلّم.

فسألها: «من هو؟».

«غير مهمّ، فأنت لا تعرفه على أيّة حال. أريدك فقط أن تعرف أنّنا

كنّا سنتزوّج».

«لكنّكما لم تفعلا».

«ترك البلاد، لقد نجح في ما فشلت فيه أنت. لم يسلك طريق المغامرة، ثمّ إنّه كان يفوقك سنّا في ذلك الوقت. تحصّل على ترخيص للخروج. وقبل أن يغادر كان قادرا تقريبا على بيع كلّ ما يملك. لكنّه لم يخبرني بشيء ولم أعرف ذلك إلّا عندما كتب لي رسالة».

«ماذا قال لك؟».

«إنّنا سنلتقي مجدّدا».

«هل كنت تريدين لقاءه مجدّدا؟».

«مطلقا!».

بدت كلمة «مطلقا» حازمة جدّا. وقد أعجبه ذلك حينها لأنّ الأمر لم يكن متعلّقا به.

«وأين هو الآن؟».

«لا أعلم».

«متى حدث هذا؟».

«غير مهمّ. لا أعرف إن كنت سأصدّق أحدًا بعد الآن».

«ستصدّقين».

«كيف يمكنك معرفة ذلك؟».

«أشعر بذلك، يمكنني أن أحسّ بها في داخلك».

ما الذي يشعر به حقّا؟ أنّها كائن عاشق يكبت رغباته الخاصّة.

إلى متى يمكنك كبت رغباتك؟

إلى أن تفهم أنّك تدمّر نفسك عبر القيام بذلك.

قالت له: «هذا مجرّد كلام، ما الذي بإمكانك معرفته؟».

«أنّني لن أتركك».

سألته في الليلة نفسها: «كيف يمكنك القيام بما تقوم به؟».

في البداية لم يفهم أنّها تتحدّث عن عمله.

«عليك معرفة أنّ ما يذيعونه كذبة وأنت تعمل لصالحهم. كيف يمكنني تصديق أيّ شيء تقوله إذا لم تكن تلك الكذبة تزعجك؟».

«لا علاقة للأمرين أحدهما بالآخر. أنا أصوّر أفلاما عن الحيوانات».

«عن الحيوانات فقط؟».

قال متفاديا إجابتها مباشرة: «أحبّ الحيوانات. ولست مضطرّا إلى الكذب عليها».

«لا أدري. ربّما لا أفهم».

فقال: «أنا لا أكذب. وأعدك بألّا أكذب عليك مطلقا».

كانا ينويان قضاء كامل الأسبوع في الكوخ المستعار. ظلّا معا مدّة

خمسة أيّام ليلا نهارا. ولم يكن متعوّدا على ذلك النوع من القرب، فشعر في اليوم الخامس بأنّه يعاني من إرهاق شديد وربّما كان شعورا بالقلق. شعر أنّه وقع في فخّ، وأنّه محبوس في قفص، أو في زنزانة من جديد، رغم أنّ حنانها خفّف من وطأة ذلك الشعور عليه. بحلول اليوم السادس كانت حاجته إلى التغيير وإلى وجود صوت آخر ورفقة أخرى قد صارت ملحّة. نهض في الفجر وهي ماتزال نائمة وحدّق في وجهها برهةً فبدا لوهلة غريبا وعدائيّا. كان شعرها المقصّف ملتصقا بجبينها وشفتاها المغريتان أصبحتا مشقّقتَين وجافّتَين وكان أثر قبلاته لا يزال باديا على رقبتها الرقيقة. خرج من الغرفة على أطراف أصابعه وفرّ دون أن يترك ولو همسة واحدة خلفه، بل سريرًا غير مرتّب وزجاجة نبيذ غير منتهية.

ركض عبر المروج التي يغطّيها الندى فشعر فجأة بأنّه حرّ.

ما معنى أن تكون حرّا؟

ذلك يعني أن نمتلك الحقّ في تحديد الفضاء للقيام بأفعالنا.

من الذي منح مثل هذا الحقّ؟

إنّنا نملكه منذ ولادتنا. كان يعتقد في هذا عندما حاول تجاوز الحدود أوّل مرّة، لكنّهم أنكروا عليه ذلك الحقّ وقد سمح لهم بحرمانه من حقّه.

أنهى إصلاح الصنبور ثمّ أعاد فتحه وغلقه مرّات عديدة، وعندما شعر بالرضا عن عمله حفظ الأدوات في مكانها وأعدّ لفافة خبز

بالزبدة لأمّه وكوبا من الشاي ثمّ عاد إلى حجرة الجلوس.

قالت له مندهشة: «هل أحضرت لي فطور الصباح؟».

«العشاء، فقد حلّ المساء».

«ما الذي يجعلك تظنّ هذا؟».

فقال مشيرا إلى ساعة حائطيّة كبيرة: «انظري».

حدّقت أمّه في الساعة الحائطيّة بنظرة ضبابيّة ومرتبكة وقالت: «إنّها تشير دومًا إلى الساعة نفسها».

ثم خمّنت: «الثانية عشر إلّا الربع؟».

«إنّها الخامسة والربع».

«لا فرق، فالظلام منسدل في الخارج على الدوام».

كان الظلام قد حلّ وبدأ المطر ينهمر عندما عاد إلى الكوخ. كان ثملا، ثملا إلى حدّ يجعله لا يمشي باتّزان ولكن ليس إلى الحدّ الذي يجعله غير واعٍ بما في الأمر الذي اقترفه من بؤس وفظاظة. رأى الضوء ينبعث من النافذة من بعيد. إنّها لا تزال هناك. لم ترحل، كانت بانتظاره. ولم يكن يعرف حتّى ما إذا كان مسرورا بهذا أم لا. لكن ثمّة على الأقلّ مكان ليجفّف ثيابه ومكان لينام.

كانت تجلس القرفصاء على الأرض وتنظر إلى وميض النار. كانت عيناها حمراوين من الدخان أو من البكاء.

فقال لها: «سامحيني، أنا آسف».

كانت ترتدي بنطالا أسود وكنزة بيضاء من نوع الشاغي بخطوط أفقيّة سوداء تجعلها تبدو مثل لحاء شجرة البتولا. بدت له جميلة وشعر برغبة في تطويقها بذراعيه. فقال لها ثانية: «سامحيني. كان عليّ الذهاب. أحبّك لكن كان عليّ رؤية وجوه جديدة».

«لست مضطرّا إلى شرح أيّ شيء لي».

«لقد جلبت لك شيئا». قال، ووضع يده داخل جيبه لكنّه كان خاويا، وكان الفراغ هو كلّ ما تحسّسته أصابعه. فقال مرّة ثالثة: «سامحيني».

«لماذا عدت؟».

«لأنّني أحبّك»، ثمّ جلس على السرير ونزع حذاءه. وواصل يقول: «كنت أظنّ أنّي سأعود قبل الآن لكنّي لم أستطع التملّص من ذلك الرجل هناك، كان على شيء من الشبه بأبي».

«هل سئمتني؟».

«أجل، أعتقد ذلك».

«وتقول إنّك تحبّني؟».

«كنت أحتاج إلى الراحة. كان بك شيء غريب وملحّ. ولم أتمكّن من الاسترخاء إلى جانبك».

«لست بحاجة إلى شرح أيّ شيء».

«أو لعلّ بي شيئا غريبا. فقد كنت بحاجة إلى التغيير. أشعر بهذه

الحاجة إلى الهروب كلّما شعرت أنّني محاصر».

«يمكننا المغادرة أو يمكنك أن تغادر بمفردك، إن شئت».

«كلّا، أنا بخير الآن». وتمدّد على السرير قائلا: «أنا مسرور لأنّني عدت إلى جانبك من جديد. كنت فقط في حاجة إلى استراحة. ألم تشعري بهذا قطّ؟».

«لو شعرت بذلك، لرحلت أيضا. مع فرق واحد هو أنّني كنت أخبرتك قبل أن أفعل».

«أنا آسف، كان عليّ ترك رسالة لك. لم أتوقّع العودة متأخّرا هكذا».

«كنت أظنّ أنّك ترغب في البقاء معي. كيف يمكنك أن تتحمّل البقاء معي حتّى نهاية حياتك إذا كنت شعرت بالملل من وجودي بعد أيّام قليلة؟».

«لكنّ ذلك سيكون مختلفا. نحن هنا بمفردنا. نحن معا على نحو مبالغ فيه ووحيدْين في الآن ذاته».

«هل تظنّ أنّنا لاحقا لن نكون معا بشكل دائم؟».

«حسنا، سيكون ثمّة أشخاص آخرون حولنا، كذلك سيكون علينا الذهاب إلى العمل وسيكون لدينا أطفال».

انبرت تبكي بدلًا من إجابته.

«لماذا تبكين؟ يا إلهي، لماذا تبكين مجدّدا؟».

«يمكنك الذهاب. ارحل، إذا كان من الصعب عليك البقاء معي».

«أشعر أنّني بخير إلى جانبك». ثمّ نهض وطوّقها بذراعيه.

«ستبتعد عنّي دومًا».

«وسأعود إليك دومًا».

«إذا كنت ما تزال ترغب في هذا». قالت ذلك لكنّها طوقته بذراعيها وبدأت تقبّله.

في ذلك المساء أخبرته لأوّل مرّة أنّها عندما كانت صغيرة أُرسلت أمّها، التي كانت طبيبة، إلى الهند. وقد ذهبت معها وعاشا سنتين تقريبا في مدينة على ضفاف نهر «الغانج». ذات صباح، ركضت إلى الخارج لتجد عددا من الناس المهزولين ممدّدين على الطريق. ثمّ جاء بعض الرجال يرتدون معاطف بيضاء متّسخة في عربة وحمّلوا بعض أولئك الرجال المهزولين عليها. لم تدرك إلّا بعد سنوات أنّ أولئك الأشخاص كانوا جثثا.

«مازلت أرى ذلك المشهد بوضوح عندما أفكّر به أحيانا».

«ما الذي جعلك تتذكّرين ذلك الآن؟».

«ربّما لأنّني أشعر بقلق كبير داخلك. غالبا ما أتذكّر ذلك المشهد عندما أرى الجميع حولي في عجلة من أمرهم، يطاردون أشياء قد لا يعثرون عليها».

«هل يعني هذا أنّه كان من الأفضل لي أن أموت؟».

«كفّ عن التفوّه بهذا الكلام غير المقبول. أنت تعلم أنّي أريدك أن تكون حيّا. أنا خائفة عليك فحسب». ثمّ أضافت: «أنت تولي الأشياء أهمّيّة كبرى، وتولي روحَك القليل منها».

«ما الروح؟».

«لا يمكن التعبير عنها بالكلمات».

«حسنا، كيف يمكنني أن أكرّس نفسي لشيء لا يمكن التعبير عنه بالكلمات؟».

«الله أيضا لا يمكن التعبير عنه بالكلمات».

«أنا لا أقول إنّني أعتقد في وجود الله. هل تظنّين أنّ الروح يمكن رؤيتها أو تصوّرها على نحو مّا؟».

«لا أعرف. لماذا تستجوبني هكذا؟ أنت تهزأ بي».

«كلّا فأنت من بدأ بالحديث عن هذا».

«يقول الهنود إنّ الروح نسيج من الروحانيّ والعقلانيّ، من الواقع والبصيرة، من الأرض والماء، من الضوء والعتمة. يقولون إنّها الجزء السماويّ في الإنسان».

«أهذا ما أخبروك به هناك؟».

«كان لديّ مدرّس».

«هل تظنّين أنّ للحيوانات أرواحًا أيضا؟».

«نعم».

«أنا سعيد بسماع هذا. فلا يعجبني ظنّ الإنسان أنّه يتفوّق على الحيوانات».

أسدل الليل ستاره وكانت لا تزال تمطر. نهض ووضع بعض الحطب على الموقد فانبعثت من النار رائحة زكيّة.

عاد إليها. فتمدّدا متجاورَين على السرير الشاسع. هل سيمضي حياته معها؟ هل يتحمّل العيش جنبا إلى جنب مع شخص مّا لسنوات؟

سألته: «هل تشعر بالاختناق هنا؟».

«لماذا تظنّين هذا؟».

«أشعر أنّ هذا المكان يخنقك. هل أفتح النافذة أو ربّما أشعل الضوء؟».

«ابقَيْ معي فحسب، ابقَيْ معي هنا. أشعر أنّني بخير هكذا. أحبّ العتمة»، ثمّ عانقها. «ربّما كنت في انتظارك كلّ حياتي، في انتظار هذه اللحظة».

قالت: «الحياة انتظار للضوء، لا للعتمة. أخبرني مدرّسي الهنديّ بذلك. لقد كان أعمى».

قالت أمّه: «لقد أصبحتُ عجوزا، أليس كذلك؟».

فأجابها الإجابة التي يقولها لها دومًا: «ليس إلى هذه الدرجة، ثمّة آخرون أكبر منك سنّا».

«وكم صار عمري الآن حقّا؟».

«ستبلغين السابعة والثمانين في عيد ميلادك القادم».

فقالت له: «لا أفهم ذلك، لكنّهم استدعوني أمس إلى المكتب وسألوني عمّا إذا كنت قد بلغت الحدّ الأقصى».

«حدّ ماذا؟».

«حدّي أنا، طبعا. سبعة آلاف وثماني مائة متر».

«ماذا قلت لهم؟».

«إنّها يجب أن تكون قطعة قماش جيّدة جدّا وكبيرة على نحو لا يمكن قياسها. وقد دوّنوا ذلك. بوسعهم قياسها بالضبط، فلديهم المعدّات اللّازمة، وقد قاسوها وقصّوها. ولهذا السبب هم موجودون هناك».

«هل أقرأ لك شيئا؟».

«لا أدري، كم الساعة الآن؟».

نهض وتوجّه نحو كتبه التي كانت لا تزال على الرفّ. كان ثمّة بعض الروايات وكثير من دواوين الشعر التي تحصّل عليها من "البينا". لكنّه ليس النوع الذي يحبّ قراءته. فهو لا يستطيع التركيز على السطور أو البحث عن الترابط الخفيّ بين الاستعارات.

التقط كتابا من فوق المنضدة الصغيرة، إنّه عن التقويم البروتستانتيّ. تصفّحه بعض الوقت، باحثا عن نصّ ملائم لكن لا

شيء لفت انتباهه، فبدأ بقراءة بعض القصائد على غير منهج.

ثمّ نظر في وجه أمّه التي كانت ساهية.

أين روحك، روحك البائسة، أين نورك، يا أمّي؟

(2)

مرّ بالأستوديو مرّة أخرى ليرى رئيسه في العمل. شاهد «هالاما» الشريط وقال: «عمل جيّد، إنّه يُظهر تعاطفا جليّا مع الرئيس. لعلّ ذلك يكون يوما مّا في صالحك».

«لقد قمت به على النحو الذي أقوم به دومًا. لا أستطيع التحكّم في التعابير التي تعلو وجوه الناس».

«إنّ الأمر يتوقّف على من تصوّره ومتى».

«ثمّة وجوه يمكنك النظر إليها مدّةَ سنة دون أن ترى عليها تعبيرا واحدا ينمّ عن الذكاء».

ضحك الرئيس بفتور قائلا: «هل سلّمت كلّ الأشرطة؟».

فهزّ كتفيه معربًا عن عدم اهتمامه.

«أعرف أنّ ذلك غير مهمّ البتّة. وعلى أيّة حال، هناك يملكون كاميراتهم الخاصّة وقد رأيت الفيديو الذي صوّروه ويوثّق اليوميّات. قريبا جدّا ستكون لدينا نشرتا أخبار، وحكومتان وبلدان في بلد واحد. من المؤسف أنّ فيديو اليوميّات الذي أعدّوه أفضل من الفيديو الذي أعددناه، ليس في الجانب التقنيّ ولكن على الأقلّ ثمّة ما يمكن

مشاهدته فيه».

«يمكنني فعل ذلك أيضا».

فقال له رئيسه في العمل: «طبعًا يمكنك ذلك، لو لم أقف في طريقك. ربّما عليك العمل لحسابهم وسينفعك هذا يوما مّا».

فقال غاضبا: «لا أريد لأيّ أحد أن ينفعني في شيء. فإمّا أن يتمّ الاعتراف بالعمل الذي يمكنني القيام به أو فليذهبوا إلى الجحيم».

توقّف «هالاما» عن الاستماع إليه. وظلّ يفتّش داخل عدد من الأوراق بعض الوقت ثمّ قال: «يبدو كما لو أنّهم سيخفّفون من القيود، دعنا إذَن نكشف المزيد من الأشياء. اجمع أفكارك وضعها على الورق وسنرى».

فكّر «بافل» أنّ «هالاما» هو أساسا من يقرّر بنفسه ما يُسمح بعرضه على التلفزيون وما لا يُسمح به. لكنّه يمثّل ورقة واحدة في بيت من ورق. مثلما هو الأمر عندي. إذا سقطت ورقة واحدة تداعى البيت كلّه. ألا يعرف ذلك؟

«لديّ أفكار عديدة».

«ضعها على الورق إذَن وقدّمها لي».

«أظنّ أنّي سأنتظر قليلا».

«إذا كنت واثقا منها فلن يتجاوزها الزمن».

«ربّما العكس تماما».

«بالمناسبة، ستصوّر ذلك الاجتماع في المصنع الكيميائيّ، وفكّر بما قلته لك. وإذا دخلوا في نقاش جادّ، حاول ألّا تخيفهم. وبما أنّك ستكون هناك في كلّ الأحوال، فقد سمعت أنّ حياة الناس في مصنع صبغة الأنيلين في خطر».

«كلّنا حياتنا في خطر».

في الشقّة التي كان يتردّد عليها طوال السنتين الماضيتين كما لو كانت بيته، توجد المرأة التي عاملها كما لو كانت أمّ ابنه رغم أنّ الأب الحقيقيّ يقطن خلف باب الغرفة المجاورة، وكانت في انتظار مجيئه بفارغ الصبر. كان الفتى مريضا. لقد كان يعاني من الحمّى لكنّها لم تستطع الاتّصال بعيادة الطوارئ عبر الهاتف .

«حسنا، سآخذه أنا».

«أمتأكّد أنّ هذا لا يزعجك؟ فلا أدري ما الذي يمكنني فعله أيضا».

كان الولد ممدّدا في غرفته وقد ضرّجت وجهه حمرة شديدة بسبب الحمّى. حاول أن يبتسم قائلا: «من المفترض أن نلعب غدا آخر مباراة لهذا الموسم».

طمأنه قائلا: «مازال ثمّة المزيد من المباريات التي ستلعبها، كيف مرضت هكذا؟».

«لا شكّ أنّني أصبت بالبرد خلال التمارين».

قال «بافل»: «إنّه طقس رديء، في الهواء غازات لا يمكن أن

يحتملها أيّ جسد».

تبيّن أنّ لعيادة الطوارئ رقمًا جديدًا (كان يمكنها الاتّصال بمركز الاستعلامات) وأنّ الطبيب خرج للقيام بجولته على المرضى. كانت أسنان «روبن» ترتعد من الحمّى، لذلك فقد أخذه بسيّارته إلى المستشفى لربح الوقت. كان جناح الطوارئ في المستشفى فارغا، فذهبت الممرضّة لاستدعاء الطبيب. وقف الولد متكئا على كتف أمّه وكانت «إيفا» تداعب شعره. كان من الواضح أنّها تحبّ الولد، ولكن ما علاقتها بـ «بافل»؟

إنّه رجل ينام معها ويجلب لها المال. كان رجلا يجلب لها المال ولذلك كانت تسمح له بالنوم معها.

في حبّ مَن وقع؟

لقد مات والده وأصبحت أمّه دمية خشبيّة.

أين «ألبينا» الآن؟ قد تكون على بعد بضع خطوات فقط منه. وليس عليه إلّا الذهاب إلى جناح المستشفى الذي تعمل به.

قال لـ «إيفا»: «سأنتظر في السيّارة».

«ستشعر بالبرد».

«لا أحبّ قاعات الانتظار في المستشفيات. سأشغّل التدفئة في السيّارة. عندها ستكون دافئة على الأقلّ في طريق العودة».

سيكون له وقت للذهاب إلى قسم الجراحة، سيفتح الباب ويلج

الممرّ المضاء وينتظر مجيء الممرّضة.

«هل تبحث عن أحد؟».

«أريد أن أسأل عن ممرّضة كانت تعمل هنا منذ فترة قصيرة، تدعى «فالنتوفا»، آلبينا فالنتوفا».

«ألبينا؟ كلّا، لا يمكنني مساعدتك، فلم يمرّ وقت طويل على وجودي هنا».

«طبعا، لقد كان ذلك قبل بضع سنوات. لا شكّ أنّها غادرت منذ زمن طويل. لقد ظننت فقط أنّه قد يوجد من يعرف مكانها الآن».

«ربّما رئيس الممرّضين يعلم ذلك. أو ربّما يمكنك أن تسأل في قسم شؤون الموظّفين غدا. فلا شكّ أنّ بإمكانهم مساعدتك».

«شكرا لك، سأفعل ذلك».

في اليوم الموالي، عند الكوخ، كانت لا تزال تمطر. وبينما كانا يتناولان فطور الصباح، قالت له فجأة: «إنّي أفهمك. فعندما كنت صغيرة وأرتكب خطأ مّا، تحبسني أمّي في خزانة بالقبو».

«هل كان ذلك في الهند؟».

«كلّا، كنّا قد عدنا إلى البلاد في ذلك الوقت. لقد كانت خزانة عاديّة لكن فوق رفوفها كلّ أنواع القوارير التي كانت ترسل وميضا من الضوء. كانت تلك القوارير ترسل في نفسي إحساسا بالرعب. فكنت أخشى أن يقتحم الغرفة فارس بلا رأس أو بعض الأشباح.

كنت أشعر بخجل شديد يمنعني من الصراخ لكنّني كنت أبكي وأطرد الأشباح بعيدا بيديّ. ثمّ خطر لي أن أغمض عينيّ وأتخيّل أنّني أهرب إلى الخارج في الحديقة أو في المنتزه».

«من الجيّد أن تتّخذي القرار بالهرب».

«ليس بوسعي الهرب إلّا داخل رأسي».

«هل بإمكانك فعل ذلك الآن؟».

«لكنّني سعيدة بوجودي معك هنا».

«يمكننا الهرب معا».

«إن شئت ذلك، وإذا كنت تجد هذا المكان خانقا».

«أيّ بلد تختارين؟».

جاءت «إيفا» صحبة الولد إلى الخارج. فبدت مذعورة: «إنّه مصاب بالتهاب رئويّ وعليه أخذ بعض المضادّات الحيويّة».

قال وهو يداعب شعر الصبيّ: «ستكون بخير خلال يومين».

بينما كان يقود السيّارة عائدا إلى المكان الذي وجد نفسه يعيش فيه مصادفة، قالت له: «أنت لطيف جدّا معنا. لن ننسى لك هذا أبدا».

(3)

كان أحد المديرين الإداريّين ينتظرهم خارج البوّابة الرئيسيّة وأعلن معتذرا: لا يمكن لسيّارة التلفزيون الدخول إلى أرض المصنع بعدُ. فينبغي أوّلا أن يُزوّد عادم السيّارة بشبكة من الأسلاك الواقية. وفي

الأثناء بوسعهم الذهاب في جولة حول المصنع ويمكنه أن يريهم ما بوسعهم في النهاية تصويره، غير أنّ عليه تحذيرهم من أنّ هذا لن ينتج عنه أيّ شيء عمليّ، فعمليًا كلّ شيء كان سريًا.

قال «بافل» وهو يقدّم مساعده، وهو رجل يسمّيه الجميع إيفنس الصغير: «سنعثر على شيء مثير للاهتمام».

كان الصدأ يعلو البوّابات الحديديّة وتغطّي الأرض طبقة من الغبار الأبيض. أمّا الهواء البارد فتنبعث منه رائحة نفّاذة وحادّة من الأمونيا.

فتح لهم المدير باب السيّارة ونبّه طاقم عمل الفيلم إلى أنّ التدخين ممنوع منعًا باتًا في كلّ أرجاء المصنع. قال بضحكة فاترة إنّه يتمنّى ألّا تطلق كاميراتهم شرارات وألّا تنفجر مصابيحهم. ثمّ أضاف ملوّحًا بيديه في الهواء الكثيف والعطن الذي كانوا يتنفّسونه: «كلّ ما يتطلّبه الأمر أحيانًا شرارةٌ واحدة».

كان المدير رجلا ببشرة رماديّة. وكان يسعى جاهدا إلى أن يكون مرحًا. ولكن لا شكّ أنّه يشعر بالتعاسة في مكان كهذا، فقد كان مدخّنا. عندما صعدوا إلى سيّارته، غيّر موضوع الحديث إلى السبب الذي كانوا يزعمون أنّهم جاؤوا من أجله. خلال الاجتماع، كان مطلوبًا منهم انتخابُ مدير تنفيذيّ جديد لكن كان لدى الجميع هنا شعور بأنّه ينبغي الاحتفاظ بالطاقم الإداريّ القديم رغم الإصلاحات. ففي النهاية، شركة كبيرة ومهمّة كهذه ينبغي أن يديرها الخبراء. طبعًا ثمّة أشياء كثيرة تحتاج إلى تغيير. فالمعدّات عفا عليها الزمن، لكنّ ذلك ليس خطأ الإدارة. فقد توجّب على الشركة أن

تضخّ المال في خزائن الدولة حتّى يُستخدَم لتأسيس خطّ إنتاج حديث، لكن بمجرّد حصول الدولة على ذلك المال، تبخّر ببساطة أو بالأحرى ابتلعته قصور الثقافة وسدود توليد الطاقة التي تضرّ أكثر ممّا تنفع. توقّف فجأة كما لو أنّه أدرك أنّه لا يعرف مع من يتحدّث أو بالأحرى كما لو أنّه يعرف بالضبط مع من يتحدّث .

مازالت تفصلهم ساعتان عن موعد الاجتماع. كانت الاجتماعات التي تُبثّ على شاشة التلفزيون مملّة، فهي لا تعرض سوى استقبال رؤساء الدول للسّفراء أو توديع بعضهم بعضًا في المطارات. فهذه هي بالتحديد، مع الأسف، نوعيّة الأشياء التي يريدها معدّو الأنباء دون اهتمام بما إذا كان المشاهدون قد شعروا بالملل أم لا. فهم يعرفون أنّ أغلب النّاس لا يملكون خيارا في البرامج التي يشاهدونها وأنّهم سينظرون إلى الشاشة حتّى لو عرضت دخانا منبعثا من المداخن. قد يكون ثمّة أحيانا وجوه مثيرة للاهتمام في تلك الاجتماعات، لكنّها استثناء ولا تكاد تنتمي إلى الشخص المتكلّم. يملك المتحدّثون عادة رؤوسا بأشكال غريبة وينطقون بجمل مراوغة. فقد كان زملاء بافل في غرفة المونتاج غالبا ما يحاولون عبثا العثور على جملة واحدة ذات معنى ولا ينجحون في ذلك. كانت السيّارة ترتجّ على طول الطريق غير المستوية. فالمصنع ممتدّ مثل بلدة صغيرة، فيها طرق ومفترقات وسكك حديديّة وساحة للمحرّكات ومستشفيات ومطاعم وأفنية للخشب وعلامات مرور خاصّة به تحمل قواعد ونظما مطبوعة على ألواح ملوّنة.

لاحظ بافل أنّ النوافذ محطّمة في معظم البنايات رغم أنّه من الواضح أنّهم مازالوا يستخدمونها.

قال المدير: «أجل، فرغم كلّ الاحتياطات الكبيرة التي نتّخذها، نتعرّض لانفجارات من حين إلى آخر لذلك فالأمر لا يستحقّ تغيير الزجاج».

سأل سوكول: «هل مات الكثيرون؟».

«أووه لا، لا ليس كثيرا إذا وضعت في حسابك أنّنا نعيش على سفح بركان. أليس من الغريب أن يستمرّ الناس في تشييد قراهم على سفوح البراكين؟ ليس لدينا بركان خاصّ بنا، لذلك كان علينا صنع واحد». قال المدير ذلك ضاحكا بتكلّف، فقد كان من الواضح أنّها ليست المرّة الأولى التي يلقي فيها هذه النكتة.

علّق سوكول: «إنّ العيش على سفح البركان يحتاج إلى شجاعة، وبناء بركان هو مجرّد انحراف».

إنّه لأمر مؤسف ألّا يستطيع قول ذلك أبدا أمام الكاميرا.

توقّفوا أمام بناية كانت أكثر جدّة وأكثر حداثة من كلّ البنايات الأخرى. نزل المدير من السيّارة ليأخذهم إلى الداخل. وكان سوكول مستعدّا ليتبعه لكنّ بافل كان يهتمّ بالمكان أكثر من الخطابات، لذلك سأل عمّا إذا كان بإمكانه إلقاء نظرة حول البركان.

تردّد المدير قبل أن يتحرّك ليصعد إلى السيّارة من جديد لكنّ بافل قال مقترحا: «في الواقع، أستطيع المشي: أفضّل المشي فلا يمكن رؤية

الكثير من داخل السيّارة».

«لكنّني لا أستطيع السماح لك بالتجوّل في الأنحاء بمفردك. فهناك عمليّات خطيرة تُجرى. وأنا على يقين أنّك ترغب في التقاط بعض الصور لهذا المكان وبوسعي ترتيب ذلك من أجلك، لكن، ليس الآن».

«لا بأس، سأترك كاميرتي هنا».

«جيّد، هل تحمل معك أعواد ثقاب؟».

«أستخدم الولّاعة».

تابع الطاقم الاستجواب الذي يجريه المدير باهتمام.

«كان عليك تركها عند البوّابة».

«لن أشعل سيجارة».

بعد أن بدا انزعاج طفيف على وجهه، وعد المدير بإرسال سكرتيره معه ليهتمّ به ثمّ دخل البناية تتبعه بقيّة طاقم التصوير. بينما كان بافل يلقي نظرة على أرجاء المصنع، كانوا ينصبون الأضواء ويضعون الكاميرات في مواقعها، والتي سيأمرهم عند عودته بنقلها، فقط حتّى لا يفكّروا أنّه زائد عن الحاجة .

كان وحيدا ولاحظ أنّ رؤوس أغلب الأشجار القريبة من البنايات مقطوعة. وكانت للبنايات أسطح لكنّها تبدو قديمة وبحاجة إلى ترميم. مرّت بجانبه شاحنة تحمل أكياسا وعلامة عليها تنبيه: حمولة

خطرة .كان بوسعه سماع أصوات حادّة وقصيرة لانفجارات قادمة من مكان مّا بعيد. ومع كلّ نفس، كان يشعر أنّ الهواء يجرح حلقه فيجد صعوبة في البلع. سيتطلّب الأمر أكثر من الصوت والصور لالتقاط الرائحة الكريهة للضباب السّامّ الذي تخلّل كلّ شيء.

مرّت شاحنة أخرى بجانبه تحمل علامة تحذير ومحمّلة ببراميل حديديّة. في هذا المصنع، يتمّ صنع أحد أكثر المتفجّرات البلاستيكيّة نجاعةً في العالم. كانت بلا رائحة ومن المستحيل كشفها، لذلك فقد كان كلّ إرهابيّ على وجه الأرض يتوق إلى وضع يديه عليها. كان يريد أن يشاهد كيفيّة صنعها، لكنّهم لن يسمحوا له بذلك. وإن ألحّ في هذا سيبلغون عنه بسبب الفضول الشديد. فكيف لهم أن يعرفوا لصالح أيّ جهة يعمل؟

جاءت السكرتيرة أخيرا. فقدّم كلّ منهما نفسه للآخر، لكنّه نسي اسمها على الفور، فقد كان عاديّا كمظهرها. قالت إنّها ستريه ما في استطاعتها، رغم أنّه ليس ثمّة الكثير. فكلّ ما هو مثير للاهتمام كان ممنوعًا. وليس هناك أيّ شيء جميل للنظر إليه.

«هل تصنعون الأنيلين؟».

أومأت برأسها إيجابا. ذكّرته ظاهريّا بـ «إيفا»، فقد كانت تضع مكياجا كثيفا ممّا جعل ملامح وجهها لا تظهر بوضوح. كان من الواضح أنّها تحبّ اللون البنفسجيّ وكان فخذاها يتمايلان عندما تمشي.

«لكنّ المصنع بصدد الترميم الآن، ليس لديهم أيّ خيار. فالكثير

من النساء انتهى بهنّ الحال إلى الموت».

سألها: «كم عدد النساء اللواتي يعملن في مصنع صبغة الأنيلين؟».

فحدجته بنظرة توحي بأنّه تجاوز حدوده عند سؤاله عن هذا الأمر، ثم أجابت: «عدد قليل، من المؤكّد أنّه ليس أكثر من بضع مئات. لكن لا شكّ أنّ أعمارهنّ لا تقلّ عن أربعين سنة وعليهنّ أن يوقّعن تنازلًا يقول إنّهنّ يدركن التبعات المتوقّعة، أقصد على صحّتهنّ».

أخذته إلى مستودع وقدّمته لرئيس العمّال، وهو رجل ذو لحية. كانت البناية عتيقة، فالجدران لم تُدهَن منذ زمنٍ طويل، وقد أصابها تصدّع في بعض المواضع. كانت ثمّة علامات للتحذير معروضة في كلّ مكان ومروحة ضخمة تهدر في الأعلى على مقربة من السقف وبراميل حديديّة مكدّسة بانتظام على رفوف فسيحة. شرح رئيس العمّال له كيف يتعاملون مع المتفجّرات لتفادي الحوادث. وكانت في الخلف امرأتان ترتديان فستانَين ملوّنَين، وترفعان البراميل إلى أعلى الرفوف بواسطة شاحنة رافعة.

فسأله: «ما الذي يمكن أن يحدث لو سقط أحد تلك البراميل؟».

قال رئيس العمّال متجهّما: «حسنا، يمكنهم أن يمضوا أسبوعا وهم يحاولون جمع أشلائك دون أن ينجحوا في ذلك».

أضافت السكرتيرة: «يحدث أحيانا أن يجدوا ساعة أو ذراعا لكنّهم لا يفلحون في العثور على الجسد الذي يتماشى معهما».

خرجا من جديد وقادته السكرتيرة أمام بنايات خشبيّة منخفضة.

فشاهد على مسافة بعيدة سياجا حديديّا مزدوجا وكان بوسعه سماع صوت الانفجارات الحادّ قادما من الاتّجاه نفسه.

ذكّره ذلك فجأة بمعسكر الاعتقال وكيف كان الهرب من ذلك المكان أمرا مستحيلا، فهو لم يكن يستطيع المغادرة ليوم أو حتّى لساعة واحدة لأنّه لا يملك أحدا، لا كاميرته ولا كلبه، لا شيء عدا زيّ السجن، وتحدّيه وأمله أنّ كلّ هذا سينتهي يوما مّا. كان، في ذلك الوقت، متأكّدا أنّه حالما يخرج سيحاول الهرب من جديد وأنّه سيُبلي أحسن في المرّة القادمة وأنّه سينتهي من هذا البلد المطوّق بسياج حديديّ إلى الأبد. لكن بدلًا من ذلك ها هو لا يزال هنا، ينتظر تصوير اجتماع، اجتماع بلا لون ولا رائحة وتفوح منه رائحة المطهّر في حجرات تعبق برائحة الموت.

نظر حوله ليرى إذا كانت هناك أبراج حراسة ومساجين في أزياء سجن مخطّطة، لكن كلّ ما كان بإمكانه رؤيته عاملان يرتديان بذلتَيْ عمل زرقاوين ويتحرّكان ببطء على مسافة بعيدة. كان أحدهما يحمل قضيبا حديديّا على كتفه. في السجن، كانوا قد قطعوا القضبان الحديديّة، القضبان الحديديّة القديمة والصدئة وكذا الصفائح الحديديّة. لقد وضعوه وسط عصابة، مع رجل يدعى غابو، كان في السجن لأنّه متّهم بمضاجعة شقيقته البالغة من العمر ثلاث عشرة سنة. لم يولِ بافل هذه الجريمة اهتماما كبيرا، فأكثر ما أزعجه أنّه كان من المستحيل جعل غابو يقوم بعمله على نحو جيّد، ولأنّه لم يكن بإمكانهم إتمام حصص العمل الخاصّة بهم فقد كان يُقلَّل من وجباتهم

التي هي أصلا شحيحة.

بدا صوت الانفجارات قريبا.

«يوجد مصنع للديناميت على الجهة المقابلة للغابة. إنّهم متعوّدون دومًا على اختبار المتفجّرات هناك. هل ترغب في إلقاء نظرة بالداخل؟».

«هل سيسمحون لي بذلك؟»

حاولت أن تبتسم بغنج وقالت: «قد يفعلون، إذا رافقتك، هل ترى كلّ تلك البنايات التي أمامنا؟ بوسعك إلقاء نظرة داخل واحدة منها إن شئت. ستتفاجأ أنّهم عوض إعداد إجراءات سلامة جيّدة وشراء مكنات جديدة، وضعوا ببساطة أسطحا خفيفة فوق البنايات. فإذا ما حدث انفجار تطير الأسطح عاليا ومعها الناس لكنّ الجدران والبنايات تظلّ ثابتة». لقد أصبحت تثرثر، ربّما من أجل مبادلته محاولاته ليكون ودودا .

«هناك، في مصنع النيتروغليسيرين، لديهم أحواض آليّة لمزج السوائل بواسطة التحكّم عن بعد، لكنّهم مازالوا يفعلون ذلك يدويّا بواسطة المجاذيف. فالتجهيزات الآليّة لا تعمل .وإذا حدث وفقد الرجال السيطرة قليلا، سينفجرون كلّهم. هل شاهدت فيلم أجرة الخوف؟ بالضبط هكذا، لكن لا أحد سيعدّ فيلما عنّا. لن يسمحوا لهم بذلك أبدا».

«أراهن أنّك تتساءل لماذا يعملون هناك. إنّه أمر بديهيّ، فهم

يفعلون ذلك مقابل المكافآت. إنّنا نبيع أنفسنا دون أن نفكّر بذلك بعد الآن. تعاني أمّي من الانتفاخ الرئويّ وهي مصابة بعجز دائم وابنة أخي الصغيرة في مشفى الأطفال للسرطان. وفي مجمّع الشقق مات ثلاثة أشخاص العام الماضي ولم يتجاوز أيّ منهم سنّ الأربعين. اذهب إلى مقبرتنا وألقِ نظرة على التواريخ المكتوبة على شواهد القبور. بماذا أفادتهم المكافآت الآن؟ لكن لا أحد منهم تصوّر أنّ الحال ستنتهي به هكذا. وقد أتعرّض أنا للمصير ذاته». قالت مبتسمة بغنج مرّة أخرى مضيفة: «لكن من الأفضل أن تحتفظ بهذا لنفسك».

قادتهما الطريق التي سلكاها إلى داخل الغابة ولم يكن ثمّة كائن واحد في الجوار، فلو وضع ذراعيه الآن حولها وقبّلها فمن المحتمل ألّا تعترض، لكن ماذا بعد ذلك؟

كانت الأغصان عارية والأشجار المقطوعة رؤوسها تمتدّ عاليا نحو السماء. لاح السياج الحديديّ قريبا الآن حتّى إنّه لمح جنديّا بزيّ أخضر في دوريّة مراقبة.

فصرخت فجأة: «أووه، انظر إلى ذلك المسكين!».

كان هناك طائر قيق ينطّ على الطريق مرفرفا بجناح واحد في محاولة يائسة للطيران. لقد كان الطائر المسكين يدفع ثمن خطايا الآخرين. لسوء حظّه، لم يكن يحمل كاميرته معه. وإلّا لكان رغب في تصوير مشهد طائر القيْق، طائر مروّع في غابة شبحيّة. فلو يصوّر يوما مّا فيلما عن نهاية الحضارة أو عن العالم عقب حدوث كارثة هائلة، ستفيده هذه الصورة. لكنّه لن يصوّر فيلما كهذا الآن، عليه أن ينتهي به المطاف

كهذا الطائر أوّلا.

كان يريد مشروبا. سيطلب منها أن تأخذه إلى أحد مطاعم الشركة وسيشتري لها واحدا حتّى يشكرها على مرافقته ثمّ، ثمّ سيرى. كان يجدر به أن يتذكّر حقّا.

انحنت والتقطت الطير وقالت: «أووه، أيّها المسكين الصغير. هل أنت خائف؟» ثمّ التفتت إليه وقالت: «هل ترى هذا؟».

فقال لها: «لن ينجو، إلّا إذا أردت أخذه معك إلى البيت».

فهزّت رأسها نافية: «لا فائدة من ذلك، لا يمكنني أخذهم جميعا إلى البيت».

«دعيني أحمله». أخذ الطائر من يدها وأنهى معاناته بليّ عنقه. ثمّ أبعد بحذائه بعض أوراق الأشجار ووضع جثّة الطائر في المنخفض وردمه بالأوراق.

لقد أدرك أنّ هذا المصنع صورة مصغّرة عن البلد بأكمله، فهو رثّ، متداعي البناء ومحاط بسياج معدنيّ مزدوج. إنّ الحياة تضمحلّ وحتّى الطيور لا يمكنها النجاة لكن ثمّة شيء في الفضاء قابل للانفجار. كلّ ما يتطلّبه الأمر شرارة واحدة حتّى ينفجر كلّ شيء.

من الذي سيشعل تلك الشرارة؟ ومن سينجو من هذا الانفجار؟

قالت: «الأمر سيّان. أنا أحسدك، فبحلول المساء ستغادر هذا المكان ولن تكون مجبرا على العودة إلى هنا مرّة أخرى».

(4)

كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف النهار بقليل عندما انعطف عن الطريق السيّارة الرئيسيّة واتّخذ الطريق المرتفعة قليلا والمؤدّية إلى الغابة. لم يكن يعرف بعدُ إلى أين يتّجه، لكنّه يحتاج إلى أن يقود سيّارته نحو مكان مّا. فهو لا يستطيع البقاء في مكانه أو العودة إلى مكان كان قد أقنع نفسه بأنّ لديه سببا للبقاء فيه، مكان كان يظنّه بيته.

بالأمس، عندما انتهى الاجتماع الذي أسفر عمّا كان محدّدا سلفا، دعا السكرتيرة لتناول مشروب. ثمّ أخذته بعد ذلك إلى حفلة في بيت شاسع. ومن بين ما أثار دهشته أنّ كثيرا من السيّارات الغربيّة والباذخة كانت مصفوفة في الخارج. أمّا أصحابها فكانوا داخل البيت ثملين. ورغم أنّه أفرط في الشرب أيضا فإنّه كان يعي بشدّة غرابةَ تلك الوجوه المتّسمة بطبيعة الحياة على سفح البركان. كانت السكرتيرة مسرورة بمعاملته على أنّه ضيف لديها، فقدّمته لأشخاص لم تكن لديهم أدنى رغبة في التعرّف عليه ولا كان في حاجة إلى تذكّر أسمائهم ومراكزهم.

في الحفلة أيضا كانت ثمّة نساء كثيرات، بعضهنّ يرتدين ملابس لافتة وبعضهنّ الآخر شبه عاريات. لكنّ كلّ واحدة منهنّ بدَت بصحبة شخص مّا. استمع إلى قصص عديدة عن حيوات تشبه إلى حدّ كبير حيوات يعيشها أشخاص في أيّ مكان آخر، عدا تلك القصص التي كانت تدور حول انفجارات تحدث من حين إلى آخر أو حول الموت المبكّر. ومع ذلك، فالخطّ الفاصل بين الوجود والعدم ملتبس هنا. ومهما يكن المكان الذي يحدث فيه هذا، يصبح تجاوز

خطوط أخرى أيضا أكثر سهولة: خطوط الطمع والخداع وانعدام الشرف والعار واليأس الذي قد يكون هو الدافع وراء كلّ تلك الأشياء.

ما هو الطمع وانعدام الشرف؟ ما هو البؤس؟

الطمعُ إصبعٌ أسفل حلق المتخم وغرفة زائدة عن الحاجة ومخصّصة للخردة، وعاشق غير محبوب بين ذراعيْ أحدهم.

مع اقتراب آخر الليل، تلاشت كلّ الموانع. وكان مرّة أخرى من دون كاميرته عندما شاهد شابّا يحاول في يأسٍ بيدَين مرتعشتين العثور على الوريد حتّى يحقن نفسه، لكن دون جدوى. رأى اثنين يرقصان نصف عاريين في زاوية غرفة ويغرقان على الأرض في عناق شهوانيّ ورأى كذلك رجلا يتقيّأ في إناء صينيّ كبير وسط باقة من زهور النجوم الحمراء.

كان انعدام الشرف بديلا من الشرف الذي أرهق نفسه في محاولة يائسة لجعل شخص مّا ملتزما به.

ثمّ لفتت انتباهَه امرأةٌ بشعر أحمر يبدو أنّها هناك بمفردها. ظلّت بعض الوقت تنظر إليه بعينين نديّتين. كانت عيناها حمراوين إمّا بفعل الدّخان الذي في الفضاء أو بسبب البكاء. دعاها إلى رقصة فقبلت بها، لكنّها وجدت صعوبة في الوقوف وهي تحذّره قائلة: «لا تغضب، فقد لا أكون رفيقة جيّدة هذه الليلة».

«تقصدين رفيقة رقص؟».

«أليس هذا كلّ ما تريده منّي؟».

«لسنا مضطرَّيْن إلى الرقص إذا لم تكن لديك رغبة في ذلك».

البؤس هو قدر أولئك الذين لم يمتلكوا القوّة ليكونوا شرفاء ولا الشجاعة حتّى لا يكونوا كذلك. البؤس هو قدر أولئك الذين يعلقون، تحت كلّ الظروف، في المنتصف.

قادته بعيدا إلى غرفة فارغة إلّا من ثمل وحيد غفا على الكرسي الجلديّ ذي الذراعين. ثمّ صبّت كأسين من الكونياك من قنّينة كانت موضوعة هناك من أجل الضيوف الذين يعرفون الطريق إلى تلك الحجرة. قالت إنّها كانت، منذ خمس سنوات، متزوّجة من مدير التسويق في الشركة. فقد كانت تعمل في ذلك القسم بصفتها محامية. سافر زوجها كثيرا وأخذها معه في بعض رحلاته. لذلك فقد زارت بلدانا كثيرة وذهبت لزيارة مدن كثيرة غير مألوفة مثل «طرابلس» و«داكار» و«عمّان» و«لاغوس» لكنّ الأسماء لا توحي بشيء. فإن أنت لم تزر تلك الأماكن يظلّ من الصعب تخيّل أجواء البحر والظلام والشوارع الضيّقة والنزل ذات المسابح على الأسطح والضوء الغريب الذي يجعل كلّ شيء يبدو متوهّجا وذلك السجّاد الرائع المبسوط في الجوامع وبساتين النخيل والقرى الصغيرة ببيوتها المطليّة بالأبيض الناصع فتلوح مثل تلال من النمل الأبيض والأسواق والبازارات حيث يمكنك التجوال ساعاتٍ ومساومة الباعة وشراء كلّ شيء، من الأقمشة المطرّزة البديعة والذهب والأحجار الكريمة والنحاس

المطروق إلى التمائم العجيبة والأجراس وآلات الماريمبا الموسيقيّة. لا يمكنك تخيّل تلك الأصوات والهتافات والموسيقى والصفير ومختلف الروائح ثمّ المساءات في حجرات النزل الخاوية والمفاوضات التي يصافح خلالها الملايين بعضهم بعضا. أنت لا تعرف ما في العالم من حجم الطلب الهائل على متفجّرات بلا طعم ولا رائحة. هم طبعا يساومون على السعر، لكن ليس مثلما يحدث في السوق بل من أجل الملايين. فبعضهم يدسّ في جيوب بعضٍ ظروفا تحتوي على صكوك بمبالغ لا يمكنك تخيّلها أبدًا.

«وأين زوجك الآن؟».

«لا شكّ أنّه مع إحدى العاهرات. فأين يمكن أن يكون؟ إنّه يستطيع شراء أيّ امرأة يشاء. لقد تخلّى عنّي رغم أنّه يدّعي عدم قدرته على العيش من دوني. لكنّه يعرف أنّ عليه الحذر منّي لأنّي لو أردت كشف تلك الصفقات فلا شيء سينقذه منّي، ولا حتّى حقيقة كونه يحظى بالثقة سياسيّا».

«ألم تشعري قطّ بالخوف؟».

«الخوف من ماذا؟».

«من المعلومات التي تملكينها».

هزّت كتفيها غير مكترثة وقالت: «إنّ أسوأ ما يمكنهم فعله هو قتلي. كنت سأموت يوما مّا على أيّة حال».

غير أنّها لم تكن تبدو خائفة عليه، فلعلّها هي أيضا تحظى بالثقة

سياسيّا، بشكل يكفي لجعلها على الأقلّ تحتلّ منصبا.

«هل ترغبين في الحديث عن هذا؟».

«ربّما يوما مّا، وربّما مع شخص مّا، لكن ليس الآن، وليس معك أنت».

كانت تعرف البيت جيّدا حتّى وهي ثملة. عثرت على غرفة فارغة بمفتاح معلّق من الداخل. يمكنهما إذَن الإغلاق على نفسيهما في الداخل. لم تكن هناك أرائك ولا حتّى سرير واحد لذلك فقد مارسا الحبّ على أرضيّة الغرفة. لعلّها فعلت ذلك انتقاما من زوجها المهمّ والقويّ والغنيّ إلى حدّ يجعله يشتري أيّة عاهرة يريد.

فلماذا فعل هو ذلك؟ لأنّها جميلة وحزينة قليلا، ولأنّها حاولت جاهدة إقناعه كم هي استثنائيّة وكم أنّ تجاربها تتجاوز حدود خياله، ولأنّه لا يعرف اسمها، ولأنّه يظنّ أنّه لن يراها أبدا مرّة أخرى.

خرج من الغابة فوجد نفسه على أحد جانبَيْ واد عميق يشقّه نهر. للحظة، لمعت في ذهنه فكرة، أن يواصل طريقه إلى الأمام فتطير السيّارة، على طريقة أفلام هوليود، وتطوف ببطء في الفضاء ثمّ تهبط نحو الأسفل لتتحطّم على الصخور ويتعالى الهدير وصوت اصطدام المعدن على الصخر فيحدث الانفجار وتتصاعد ألسنة اللهب، بدلا من أن يدير المقود ويسير على الإسفلت. إنّها النهاية أخيرا. المضيّ إلى اللّامكان وعدم توقّع شيء ولا لقاء أحد ولا الاستماع لأحد ولا معرفة شيء ولا الخضوع لأحد .

من مسافة بعيدة، رأى القصر الذي يعمل فيه «بيتر» حارسا لسنته العاشرة، وقد نهض من وسط ضباب الخريف.

كانا في السنوات الأولى، بعد قضاء مدّة عقوبتهما، يلتقيان كثيرا. فقد اغتنما فرصة الانفراج السياسيّ وبدآ يدرسان من أجل الحصول على شهادتهما بالمراسلة. عندما تحصّلا على شهادتهما العلميّة، رفض «بيتر»، على عكسه هو، قبول منصب كان شخص آخر قد طُرد منه للتوّ. فقد كان لقراره علاقة بقناعاته الدينيّة، وكذا شأن «آليس» التي كانت تقاسمه إيمانه. فعمل «بيتر» سنوات عديدة مركّبًا لأرضيّات اللينوليوم. ثمّ تحصّل على عمل حارس في قصر. لم يكن القصر يبعد كثيرا عن المكان الذي حاولوا منه اختراق الحدود ذات مرّة.

من المؤكّد أنّه كان يمكن لـ«بيتر» العثور على عمل يتطلّب جهدا أكبر من العناية بمقرّ دولة مؤمّم وأرستقراطيّ. لكنّه لم يكن يتذمّر من ذلك. فقد كان يؤكّد أنّ عمله يمنحه على الأقلّ استقلالا فكريّا. فلا فنّ الباروك ولا أفكار تلك المرحلة تثير اهتمام أيّ كان بعد الآن. كان يمكنه أن يحظى بسلام وهدوء كاملين لو لم يتناول أنشطة تعتبرها المنظومة القانونيّة الحاليّة غير شرعيّة. أراد «بيتر» و«آليس» البقاء مستقلّين: فيختلطان بالناس ويقرآن الكتب ويعيشان الحياة على النحو الذي يرياه مناسبا.

اشترى من محلّ بقالة صغير في القرية خمس قنّينات من النبيذ الأحمر (فلديهم نوع واحد فقط) وثلاث ألواح شوكولا من أجل الأطفال. وكان يودّ لو اشترى شيئا من أجل «آليس» لكن لا يوجد شيء هنا

يمكن أن يقدّمه لها هديّةً.

وبينما كان يقترب من بوّابة القصر، انتابه ألم مفاجئ بسبب تشنّج في الصدر فاضطرّ إلى الاتّكاء على الجدار. عليه أن يقلّل من الشرب ويتوقّف عن التدخين ويحاول أن يعيش حياته بشكل مغاير. ثمّ إنّ عمله في التلفزيون كان يسبّب له الإنهاك، ليس العمل في حدّ ذاته، بل الظروف التي يعمل بها. لكن، ماذا سيفعل لو قرّر ترك العمل؟ ربّما يكسب رزقه من موقع المصوّر الفوتوغرافيّ المتجوّل، غير أنّ الوقت المناسب لذلك فات منذ زمن طويل. وينبغي عليه أن يأخذ في الأقلّ قسطا من الراحة. لكن أين؟ ومع من؟ بل في الواقع لماذا؟

دقّ الجرس ففُتحت نافذة في الردهة وبدأت كلاب بالنباح في الداخل. ثمّ علا صوت أنثويّ ينادي باندهاش: «هل هذا أنت يا بافل؟».

«هذا أنا يا آليس، كنت فقط مارّا من هنا».

اشتدّ صوت النباح فجأة ثمّ أُدير مفتاح في القفل محدثا صريرا، اندفع على إثره كلبان من نوع «البوكسر» عبر الباب وقفزا عليه محاولَيْن لعق وجهه.

فقال لها: «كنت مارّا بسيّارتي بالقرب من هنا».

«إلى أين كنت تتّجه؟».

كانت ترتدي تنّورة قصيرة من القطن المطبوع.

«كنت في التصوير ليس ببعيد من هنا، في المصنع الكيميائيّ».

فقالت: «هل تعمل حتّى وقت متأخر من الليل أم كامل الليل حتّى الصباح؟».

اعترفَ: «أعتقد أنّ شكلي يبدو فظيعا إلى حدّ بعيد. فقد اشتغلت مثل كلب في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى أنّني أفرطت في الشرب قليلا». لاحظ أنّها هي أيضا تبدو متعبة، بل ربّما حزينة.

سلكا معا ممرّا باردا وكئيبا عُلّقت على جدرانه تصاميم أكلها الصدأ، وكانت تتقدّمه في ذلك الممرّ. عندما التقيا لأوّل مرّة كانت ساقاها الطويلتان تهيّجانه، وحتّى بعد أن أنجبت ثلاثة أطفال ظلّت رشيقة ورقيقة. كان شعرها يبلغ حدود خصرها تقريبا. لقد التقاها هو و«بيتر» معا منذ عشرين سنة عندما كانا يتظاهران ضدّ اجتياح جيش أجنبيّ لبلدهم. وقد قدّمت القوّة الأجنبيّة الاجتياح حينئذ بمنتهى النفاق على أنّه حركة إعانةٍ للمساعدة في قمع العدوّ الموهوم. كانا يقفان بالقرب من مبنى الإذاعة عندما رأياها، فتاة ترتدي تنّورة قصيرة مصنوعة من «الدنيم» و«تي شيرت» للفتيان وترفع علما ضخما وتصرخ مع الآخرين مطالبة عبثا برحيل الجنود. كانت عيناها زرقاوين داكنتين. ولم يكن قد رأى عينَين بذلك اللون من قبل.

قال لها: «يمكنهم البدء بالصراخ في أيّ لحظة».

فقالت: «لماذا تخبرني بهذا؟ أعرف ذلك أفضل منك. لقد جلبوا ثماني ضحايا بالأمس».

تحدّثا عن أولئك الذين أُطلق عليهم الرصاص وعمّا سيحدث لاحقا. وكان من البديهيّ أنّهم جميعا مستعدّون لاتّخاذ موقف وحتّى

للموت، لكن لم توجّه إليهم ولو طلقة واحدة في ذلك اليوم ولم يحدث لهم شيء.

سار و«بيتر» صحبة «آليس» عبر تلك الحشود نزولا في اتّجاه الميدان حيث سيتجمّع المتظاهرون من جديد بعد سنوات طويلة وبعد أن يكون قد تعلّم الحذر في تصرّفاته.

قدّم لهم غرباء المشروبات فشعروا بحميميّة خاصّة رفعتهم فوق يأس اللحظة الراهنة. في ذلك المساء أوصلاها معا إلى بيتها. كانت تقطن في فندق يقع بالطابق الأرضيّ للمستشفى الذي تعمل فيه. قبّلاها وتمنّيا لها ليلة هانئة. لم تكن تلك القبلة تعني شيئا ولا هي وعد بشيء، لكنّه مازال يتذكّر القبلة ويتذكّرها. إنّه معجب بمظهرها وسلوكها المنفتح الذي يتّسم بالودّ والدفء، لكن تحت ذلك المظهر كان يشعر بعمق خفيّ يشدّه إليها، عمق لا يمكن اختراقه.

استمرّت علاقتهما فترةً قصيرةً، وكانا يخرجان معا، فظنّ أنّه يحبّها بقدر حبّها له. لقد كان واثقا من ذلك حتّى حدوث شيء لم يعتبره، في ذلك الوقت، نقطة تحوّل في علاقتهما بالقدر نفسه الذي كانت هي تعتبره كذلك. وهو يفضّل عدم تذكّره الآن.

غالبا ما كان «بيتر» ينضمّ إليهما، عندما يخرجان معا. فيحضرون معا مسرحيّات في مسارح صغيرة أو يذهبون إلى عروض خاصّة، وكانت مشاهدة تلك العروض متعة عند «آليس»، أمّا هو فكان يعتبرها فرضا .

لم يكفّ يوما عن التفكير بأنّ «آليس» تناسبه أكثر من «بيتر»، إلّا أنّه

اتّضح لاحقا أنّها لم تكن تفكّر على ذلك النحو. أو لعلّها شعرت بأنّ بيتر أكثر ثباتا منه ووفاء، وفوق كلّ شيء أكثر حقيقيّة منه. لقد فوّت تلك الفرصة، فأيّ شخص كان يمكن أن يكون لو كان بوسعه العيش إلى جانبها؟

قالت مبتسمة: «سواء كان ذلك بمحض الصدفة أو برغبة منك، فأنا سعيدة بمرورك».

لطالما كانت طيّبة معه كما لو أنّه لم يحدث شيء عكّر علاقتهما.

صعدا إلى الطابق الأول.

قالت: «عليك أن تنتظر قليلا مجيء «بيتر». إنّه صحبة متفقّد من المركز. فهم دومًا يتطفّلون ويتصيّدون الأخطاء، أو يرغبون على الأقلّ في العثور على شيء مفقود من المخزون، بيد أنّهم لن يتمكّنوا من الإمساك به بهذه الطريقة».

«كيف سيمسكون به إذَن؟».

قالت وقد بدا الانزعاج على ملامحها لوهلة: «لن يفعلوا. فبيتر يحترم القواعد ولا يفعل إلّا ما هو مسموح به. لكن كما تعرف، توجد مجالات يكون فيها تقريبا مسموحًا بكلّ شيء». فشعر أنّها ربّما ندمت فجأة على قول ذلك لأنّها أردفت بسرعة: «حتّى في تلك الحالة، لن يتركوه بسلام. في الشهر الفارط فقط جاؤوا لأخذه مرّتين وقالوا إنّهم من التحقيق الجنائيّ لكنّهم الأشخاص ذاتهم دومًا، أولئك الذين يرغبون في إخراجنا من هنا». وكما لو أنّها كانت تحاول تغيير الموضوع،

توقّفت أمام الباب وقالت: «دعني أريك شيئا». فتحت الباب فألقى نظرة داخل الغرفة التي كانت تحتوي على كثير من قطع أثاث الباروك الملفوفة في أوراق بلاستيكيّة شفّافة ولوحة جداريّة تشوّهها طبقة من العفن معلّقة على الحائط، وكانت الأرضيّة التي يغطّيها الباركيه ممزّقة من جوانب عديدة بسبب حدوث التواءات بها.

ثمّ علّقت: «إنّهم يحاولون تحميله مسؤوليّة هذا أيضا. ففي أواخر الصيف تسبّبت عاصفة في نزع قطعة من السقف. ومنذ ذلك الوقت ونحن نحاول العثور على أحد مّا لسدّ ذلك الثقب. غطّاها «بيتر» برقاقات من القطران لكن كلّما هطل المطر تسرّب الماء إلى الداخل. من المؤسف أنّك لست بنّاء أسقف. لكن ربّما بوسعك التقاط بعض الصور كي نرسلها إلى الوزارة أو ربّما يمكنك تصوير فيلم».

«أشكّ في أن يوافقوا عليه».

«لقد نسيتُ أنّ عليك الحصول على الموافقة من أجل القيام بأيّ شيء».

«ومع ذلك يمكنني التقاط بعض الصور من أجلك».

جلس على كرسيّ بذراعَين مقابل الجدار الذي تكسوه طبقة من العفن. وكانت الجداريّة تعرض مشهد ميلاد فينوس. فذكّرته الآلهة بالمرأة التي تقف إلى جواره بذلك الشعر الطويل الذهبيّ المنساب حتّى خصرها. فرأى حنانا بلا حدود في وجهيهما معا. كانت توجد لطخة بنّيّة ضخمة تزحف أسفل الجدار وتقترب أكثر وأكثر من الآلهة وتهدّد بابتلاع ملامحها.

تعالى صوت بكاء طفل في مكان مّا من البيت فتشتّت ذهن «آليس».

«اذهبي وأطعمي الأطفال، وانسي وجودي».

«يمكنك أن تأتي معي».

«سأظلّ هنا أرغب في إلقاء نظرة على هذه الجداريّة العفنة».

كان وحيدا. فخيّل له أنّ بوسعه سماع موسيقى هادئة تنبعث من الجدار وصوت نباح الكلاب في الخارج. ما الذي يفعله هنا؟ ما الذي أتى به؟

لأنّه لا يملك بيتا خاصّا به.

تنقّل من بيت إلى آخر ومن قصر إلى آخر كمنشد هائم على وجهه، إلّا أنّ المنشد يملك نايا وأغنية، أمّا هو فلا يملك شيئا .

ما الذي بوسع مصوّر فوتوغرافيّ متجوّل أن يقدّمه؟

يمكنه التقاط صورة.

صورة ماذا؟

صورة أيّ شيء يمكن أن يصلُح لفيلم: يدٍ، سيقانٍ، غيومٍ، أفاعٍ، لافتات، آلهة يكسوها العفن، رؤساء، وجوه، هراوات، أجسادٌ عارية، ورود، إبر تُستخدم للحقن تحت الجلد، أسيجة، انفجارات بركانيّة.

ما الصورة؟

الصورة تسجيل ثابت للحركة، تشخيص لحياة في سجن. الصورة

قُبلة الموت التي تتظاهر بامتلاك الثبات.

ماذا لو يغادر بهدوء؟ فقد جاء، في نهاية الأمر، من دون دعوة وهو يعرف أنّه لا ينتمي إلى هنا. لكن إلامَ ينتمي؟

فوق كومة من الصور القديمة.

كان يكذب على نفسه. فلم يأت لأنّه كان يبحث عن بيت، بل أتى لأنّه يبحث عن ذريعة. يوما مّا سيكون بوسعه قول: لم أشعر قطّ بالعار من أصدقائي. هذا إذا وُجِد من يقول له هذا، ومن يصغي إليه. لكنّه مازال يكذب على نفسه. إنّه هنا لأنّه يحتاج إلى رؤية آليس من حين إلى آخر.

كانت «فينوس» تنظر إليه بحنان، وكان شعرها الطويل الأصفر يتماوج في الريح، وتتمايل حولها الزهور في الأسفل. فجأة سمع نحيبا مكتوما فقفز قائلا: «ما الأمر؟».

أُطبق الصمتُ.

«هل كنت تبكين؟».

عمّ الصّمت وتواصل النحيب.

«لماذا تبكين؟».

«لقد قُلتَ إنّ كلّ شيء سيكون مختلفا عندما يأتي الأطفال».

«هل تبكين بسبب هذا؟».

«لكن يا حبيبي ماذا لو لم يأتوا؟»

«دعينا لا نفكّر بهذا الآن».

«لن يأتوا. أردت أن أخبرك على أيّة حال. عليك أن تعلم ذلك. سنكون وحيدَيْن».

«ما الذي تتحدّثين عنه؟».

«إذا جاؤوا فسيكون ذلك بمثابة المعجزة».

«هل أنت متأكّدة من ذلك؟».

«أعرف ذلك».

«لم أعنِ ما قلته بشأن الأطفال. فلم أتخيّل قطّ أن يكون لديّ أطفال. لقد كنت أتخيّل أشياء كثيرة كأن أكون طبّاخا هنديّا، لكن لم أفكّر في أن أكون أبًا».

«هذا مجرّد كلام».

«أقوله لأنّني أعنيه».

«لكن يوما مّا سيحدث لك ذلك حقّا».

«لا أعرف ما الذي سيحدث يوما مّا. لمَ علينا التفكير بالأمر؟».

بعد شهرين أعلنت له «آلبينا» أنّها حامل.

جاءت «آليس» لتأخذه. كانت قد ارتدت فستانا من الكاشمير الهنديّ، وكان من الواضح أنّها ارتدته من أجله. ربّما لم تكن سعيدة مع «بيتر». أو ربّما لم تكن سعيدة معه على امتداد فترة طويلة، أو ملّت من شبه المنفى الذي يعيشان فيه أو ربّما بسبب شيء حدث بينهما، شيء لا

يمكن حتّى ائتمان صديق عليه. ولكن أيّ نوع من الأصدقاء هو على أيّة حال؟ فألواح الشوكولا التي أحضرها من أجل الأطفال وزيارته العرضيّة لا يمكنهما إخفاء حقيقة أنّه كان قد أبحر إلى قارّة أخرى.

أعلنت له مشيرة إلى مجموعة من المتفقّدين لم يرهم ولا يعنيه أمرهم: «لقد غادروا».

قال: «هذا الثوب يبدو جيّدا عليك. أنت تزدادين جمالا في كلّ مرّة».

«شكرا لقولك هذا الكلام، لكنّي أعلم أنّه غير صحيح».

ثمّ جلس معها ومع «بيتر»، رفيقه في الهرب، وشريكه السابق في الجريمة في حجرة صغيرة بالقصر. كانوا يشربون النبيذ الأحمر، وكان يحاول التظاهر بأنّه يشعر بنوع من التقارب وبرابط مشترك مع صديقه الذي طارده القدر بل الظروف طوال الطريق تجاه هذا القصر النائي ذي الجدران العفنة والسقف الذي تتسرّب منه المياه. لكن رغم ذلك لم يشعر بتقارب ولا برابط مشترك، بل بشعور غامض بالذنب والعار والحسد. إنّه في حاجة إلى تبرير نفسه أمام «بيتر» وبدرجة أكبر أمام «آليس». حدّثهم عن مشاكله في الإدارة حيث يعيش الجميع حالة تأهّب لتصيّد أخطاء الآخرين والانقضاض عليها آملين في تحصيل ترقية، وعن مديرة البرمجة التي تتباهى بسلطتها فتمنع النساء من ارتداء تنانير قصيرة، وعن رئيس الإنتاج الذي يعلم أنّه لن يُعاقب إذا حظر عملا جيدا، لكنّه قد يفقد عمله إذا فشل في حظر شيء يمكن أن يزعج وزيرا أو زوجة وكيل وزارة وهكذا. وحتّى يكون مطمئنّا، فهو

لا يوافق إلّا على التفاهات المملّة والعديمة الجدوى. لقد حُظِر فيلم «بافل» عن مستشفى الأمراض العقليّة لاحتمال تأويله على أنّه تلميح إلى الدولة التي تحكمهم وتُرسل بخصومها السياسيّين إلى مثل تلك الأماكن. لقد حظروا حتّى فيلمه حول مشاهد عن منحوتات ميلاد المسيح لأنّهم اعتبروا أنّها تتضمّن مشاعر دينيّة. وكان تصوير الفيلم قد تطلّب ما يقارب الشهر، وكتب التعليق شاعر معترف به من النظام. ومن حسن حظّ الفيلم أنّ الشاعر الرسميّ أزعجه الحظر واشتكى من الأمر. وتبعا لذلك أمرته الرقابة بتعديل السيناريو، فعِوض «المسيح» وجب عليه قول «الطفل الصغير» وبدلا من «مريم العذراء» عليه أن يقول «أمّ الطفل».

هذا دون ذكر فيلمه عن الرئيس، وهو فيلم مملّ وعديم الجدوى فرغوا من إعداده حديثًا.

لاحظ أنّ «بيتر» كان ينقر بأصابعه على سطح الطاولة في توتّر. ثمّ قال: «أستطيع أن أفهم مقدار الإزعاج الذي يبعثه الجدال مع الرقابة، لكن ما لا أفهمه هو سبب تمسّكك أنت بذلك».

أجل، لم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه في مواجهة «بيتر»، ولم يكن عليهذكر مشاكله أبدًا. ثمّ إنّ سلوك «بيتر» المتعالي، سلوكه الذي يدلّ على غروره ولم يكن بإمكانه التعبير عنه إلّا حينما وجد شكلا للوجود على هامش المجتمع، يُغضب «بافل». فقال له: «لقد أقحمت نفسي في هذا الأمر. صحيح أنّه كان بإمكاني العثور على عمل في قصر مّا وانتظار تغيّر الأشياء، لكنّي كنت أخشى أن أنسى كيف أحمل

الكاميرا».

«ألست خائفا أن تنسى أين أنت؟».

«ماذا تعني؟».

«سأقول هذا لأنّه لا أحد غيري سيفعل ذلك. أعتقد أن لا شيء يميّز أفلامك التي نشاهدها أحيانا، سوى بعض التقنيات. أعني أنّك أنت نفسك تشعر بذلك ولا شكّ».

«أنا أفعل ما يمكن فعله قدر الإمكان».

قطّب «بيتر» وجهه بحدّة وقال: «تماما. ولأنّه لا يمكن فعل الكثير، فإنّك تبدأ باللهو وخداع نفسك بأنّ الأمر لا يتعلّق بك».

«هل تعني أنّ عليّ إيجاد عمل لنفسي في قصر أيضا؟».

«أيّ سؤال هذا؟ لا تفكّر بهذا حتّى في أحلامك. ثمّة أشياء أخرى أكثر أهميّة يمكنك فعلها، كأن تثبت أنّ أيّ أحد يجرؤ على الاحتجاج أو لا يشعر تماما بالسعادة هنا هو مجرم أو خطر على الصالح العام».

إذا كان من الضروريّ أصلا أن يخوضا في مثل هذه الأحاديث، فيجب أن تكون خاصّة. لكن نظرا إلى وجود «آليس»، قال «بافل»: «لن أثبت أيّ شيء من هذا القبيل. فأنا لا يمكنني تحمّل ما يقرّرون بثّه. أمّا في ما يتعلّق بالمظاهرات فحتّى عندما أضطرّ أحيانا إلى تصويرها، فإنّي لا أشارك أبدًا في صيغتها النهائيّة».

قال «بيتر»: «كلّا، أنت تناولهم المادّة فحسب».

«أجل لكنّ المقصّ يمكن أن يحوّل مظاهرة ضدّ شيء مّا إلى مظاهرة في صفّه والعكس صحيح».

«لا تختبئ وراء مقصّ أيّ أحد. عندما تصوّر يجب أن تكون على علم بما يمكن لأحدهم أن يفعل بذلك المقصّ».

«هكذا هي الحال. فلا يمكنني سوى تحديد زمن وجودي في المكان الذي أنا فيه، وأن أرحل كلّيّا أو أسلّم لهم المادّة وأسمح لهم بتعديلها. لكنّي ألتقط صورا مثلما يفعل الناس في كامل أنحاء العالم. أعرف أنّ بعض الأشياء من تلك التي أقوم بها ستنجو على الأقلّ. وستكون يوما مّا مادّة لأشرطة وثائقيّة مهمّة».

«ربّما يوما مّا، لكنّ الناس الآن يشاهدون هذه الأشياء وأنت تساهم في تضليلهم».

«وماذا في ذلك؟ هل تظنّ أنّ هذا المكان هو الوحيد الذي يتمّ فيه تضليل الناس؟ وهل تظن أنّ البلدان الأخرى تنتج الروائع؟ فلحظةَ تُشغّل الصندوق، ستجد شخصا يقتل شخصا آخر أو يُطلق عليه النار أو يركله وهو ملقًى على الأرض. وتلك الفيديوهات الموسيقيّة! بمجرّد قضاء سويعات في مشاهدتها ستصدّق أنّ العالم مكان عبثيّ يصرخ فيه المجانين ويتلوّون من الألم. طبعا بوسعك دومًا تغيير المحطّات ومشاهدة فيلم بورنوغرافيّ أو فيلم رعب أو النظر إلى أكوام من الجثث، لضحايا المافيا أو الإرهابيّين أو الثوريّين أو الجنود الشجعان الذين نفّذوا انقلابا عسكريّا. يمكنك أيضا العثور دومًا على إعلان تلفزيونيّ يدلّك على أيّ نوع من أنواع العلكة يجلب سعادة أكثر

لأكبر عدد من الأشخاص».

«كما تعلم جيّدا، فأنا لم أمتلك جواز سفر لخمس عشرة سنة وليس في وسعي القيام بهذه المقارنات مثلما تفعل أنت».

قالت «آليس»: «هذا يكفي، إنّكما تلتقيان مرّةً واحدة في السنة. هل عليكما أن تتجادلا؟ كلّنا لدينا عيوب غير أنّه من السهل رؤية عيوب الآخرين».

سأل «بيتر»: «هل تقصدينني بهذا الكلام؟».

«لم أفكّر بذلك، لكن إذا فكرت أنت به فربّما لديك سبب لذلك».

لحظةَ بدا أنّ جدالا آخر كان على وشك أن ينشب بينهما، ركض أحد الصبيّين داخل الحجرة وطلب من والده المجيء ومساعدته على حلّ شجار أقلّ أهميّة، فذهب معه تاركا بافل بمفرده مع آليس.

رغم أنّ أكبر أمنية لديه، في الواقع، هي تبرئة نفسه أمامها، فقد قال لها: «لم أقصد أن أبحث عن مبرّرات لنفسي، إنّما آمل أن أفعل ما أستمتع بفعله وما أعتقد أنّني ماهر في القيام به وما يمكن أن يتعلّم الناس منه من حين إلى آخر. وهو ما أعتقد أنّه يحدث أحيانا. أجل عليّ القيام بأشياء أكرهها. فهذا هو الثمن الذي أدفعه ويدفعه الجميع تقريبا بطريقة أو بأخرى».

«لقد قصد «بيتر» فقط أنّك تدمّر نفسك، وما تدمّره بنفسك لا يمكن إصلاحه. وهذا لا ينطبق فقط على تلف كبدك الناجم عن تعاطي الكحول ولا على رئتيك اللتين أهلكهما التدخين». لعلّها

أرادت أن تضيف: أو الأطفال الذين قتلوا قبل ولادتهم. لكنّها اكتفت بملء كأسه من جديد. فسكب المشروب بسرعة في جوفه، بينما كان صوت الأطفال يتناهى إلى مسامعهما قادما من الغرفة المجاورة.

«ما رأيك في جولة صغيرة في البارك؟ أقصد بها أنّك خرجت لتناول الكحول في الليلة الماضية؟».

انبعث صوت خشخشة الأوراق الجافّة تحت قدميهما وتباين لون زهرة العسل الأحمر بشدّة مع زرقة السّماء. وضعت ذراعها في ذراعه وطوّقت الشمس الواطئة رأسها بهالة ساطعة. ليته فقط يستطيع تقبيلها وضمّها إليه مثلما كان يفعل في السابق. لكنّه يعلم أن لا جدوى هناك من ذلك، لهذا فقد اكتفى بالقول: «إنّ هذا المكان جميل وأنت تزدادين جمالا يوما بعد يوم. تبدين كما لو أنّك تنتمين إلى هذا المكان منذ الأزل».

«هل ترغب في أن تستبدل بهذه التماثيل تمثالا لي؟».

«إنّ ذلك سيجعل البارك يبدو أفضل».

وافقت قائلة: «سيكون من الجيّد القيام بذلك في النهار، سأشعر بالخوف ليلا. لا أعلم إن كنت تعرف ما حدث. هناك نادٍ في الجوار حيث تقيم الشخصيّات المهمّة المحلّيّة حفلات للزفاف والمآدب. وذات صباح، منذ شهر، ظهر شخص فارّ من السجن ببندقيّة آليّة وقتل الجميع هناك: طباخا ونادلة وثلاثة حرفاء».

«لماذا فعل ذلك؟».

«لا أحد يعرف. ربّما جنّ جنونه أو كان ثملا أو ببساطة يائسا. أو لعلّه كان مجرما في أعماقه وتسنّت له فرصة وضع يديه أخيرا على السلاح».

«هل قبضوا عليه؟».

«لقد عثروا عليه في مسرح الجريمة. فبعد أن مدّد الجثث بانتظام واحدة تلو أخرى، جلس وأشعل سيجارة وظلّ ينتظر. في الحقيقة، لا شكّ أنّه كان يدخّن سيجارتين في الآن ذاته. فعندما وجدوه، كانت أعقاب لفائف التبغ متناثرة حوله على كامل الأرضيّة. وببساطة، أطلقت الشرطة النار عليه».

على أيّة حال، أشكّ في أنّهم سيقبلون أن أكون تمثالا، فهم لم يوافقوا حتّى على سيناريوهاتك.

«لا توجد أيّة أهمّيّة لعدم موافقتهم. لقد كانت لديّ سيناريوهات جاهزة بشكل جعلني لا أفكّر حتّى...» صمت برهةً ثمّ أضاف: «أعتقد أنّها مختلفة».

«مختلفة عن ماذا؟».

«مختلفة عمّا أقوم به الآن».

فقالت مشجّعة: «هذا جيّد، هل يمكن تصويرها؟».

حرّك رأسه نافيا ذلك.

«ربّما يوما مّا؟».

هزّ كتفيه غير مكترث: «لا أعرف ماذا سيحدث يوما مّا أو حتّى ما إذا كنت سأظلّ على قيد الحياة».

«لا أحد يعلم، إلاّ الله».

الآن وقد وجد الشجاعة لذكر سيناريوهاته، شعر بالخيبة لأنّها لم تمنحه فرصة ليحدّثها عنها أكثر.

قالت: «لكنّني لا أعتقد أنّ شيئا بهذا السوء يمكن أن يستمرّ إلى الأبد».

«هل تظنّين ذلك حقّا؟».

«أجل فالعالم بمثابة ميزان ضخم. عندما ترجح كفّة الشرّ، يتجمّع الملائكة على الكفّة الأخفّ. إنّك لا تستطيع رؤيتها لكنّها هناك تعدّل كفّة الخير».

«أنت ذاك النوع من الملاك يا آليس».

«أووه أنت تتفوّه دومًا بأشياء غير مقبولة. أنا أؤمن بالتغيير لأنّني لا أرغب في البقاء هنا طوال حياتي. أو على الأقلّ لا أريد أن يحدث ذلك لبيتر. في الواقع، يعجبني هذا المكان والأطفال يحبّونه أيضا فالنشأة في قصر أمرٌ مختلف إلى حدّ كبير عن النشأة في شقّة جاهزة بمبنى شاهق. المكان هنا فسيح، وأينما تحرّكت يمكنك أن تمدّ يدك وتلامس الماضي».

حتّى الأشجار عتيقة هنا فلا شكّ أنّها شهدت على حروب عديدة وميتات كثيرة ومحادثات بلا حصر. لاحظ أثر حدوة حصان على الرمل الذي يغطّي الدرب. مَنْ منَ الممكن أن يكون قد مرّ بخيله من

هنا؟

فقال: «يسعدني أنّك لست تعيسة، فالناس عادة يستغلون أطفالهم كذريعة لعدم عيش حياتهم الخاصّة». تساءل في داخله عمّا إذا كان يجرؤ على الحديث عن نفسه كأب محتمل في حضورها. ثمّ قال: «أعتقد أنّه لو كان لديّ أطفال لكنت فعلت شيئا مختلفا تماما. طبعًا، يمكنك أن تكون فقط جديرا بنفسك لكنّك تحتاج إلى أن يكون في حياتك أحد، أحد يستحقّ العناء. أعرف أنّني أنا من يتحمّل خطأ اختياري لطريقة حياتي هذه، لكن ما الجدوى من معرفة ذلك؟».

«لديك إيفا».

فهزّ رأسه.

«حسنا أنا آسفة، لكنّ لدى الإنسان دومًا شيئا آخر أكثر من مجرّد العمل والناس الذين يحبّهم».

«هل تقصدين الله؟».

«ألا تعتقد ذلك؟».

حرّك رأسه نافيا: «لا أرى أدنى إشارة إلى حضوره في أيّ مكان».

«أنا آسفة بشأن ذلك يا بافل».

كان يجدر به الآن أن يقول: أنا آسف أيضا يا آليس. فلو كنت قادرا على رؤيته، لكانت حياتنا مختلفة. لكن لا يمكنني أبدا أن أؤمن بأنّ الله خلق الإنسان وجعل نفسه يُصلب ثمّ يُبعثُ من جديد أو أنّني

سأنهض بعد قرون أو آلاف من السنين بعد موتي من جديد وأعود إلى جسدي لأُحاسب من أجل بعض الأفعال الضائعة في الزمن. لكن يبدو أنّ من العبث الحديث إليها عن ذلك. بالإضافة إلى أنّ مسائل العقيدة ليست أساسيّة عندها.

ثمّ طفق يتذكّر: «عندما وقع الاختيار عليّ أنا و«بيتر» في ذلك الوقت، عيّنوا هذا المحامي العجوز من أجلي، وقد قال لي عندما حُكم عليّ بالسجن مدّة سنة: أنت شابّ ولن تجد الأمر سهلا، لكن عليك أن تدرك أنّ من الصعب تجنّب الأمر، وينبغي أن تتقبّله. فلا جدوى من مقاومة نير العبوديّة. أخبرني بأنّه زار أمريكا قبل الحرب، وشاهدهم يقتحمون مزرعة للأمهار الصغيرة. فتعرّض أولئك الذين قاوموا وعارضوا وركلوا للضرب بقسوة أكبر. وقد جعلني ما أخبرني به آنذاك أغضب، فقد بدا كما لو أنّه يبشّر بالفاحشة. لكن حدث أن تذكّرتُ كلامه ذاك في مناسبات عديدة، منذ ذلك الوقت. فأنا أعتقد أنّ نيّته، في الحقيقة، كانت جيّدة».

قالت: «إنّها قصّة جميلة باستثناء أنّنا لسنا أحصنة».

الفيلم

(I)

كان الرجل الذي يعمل في قسم الأرشيف مسنًّا ولا شيء في ملامحه يلفت الانتباه، فقد كان يرتدي قميصا عسكريّا وبنطالا أسود وحذاء رماديّا. أمّا «إيلا» فقد كانت ترتدي البنفسجيّ من رأسها حتّى أخمص قدميها. كانت تعرف أنّ هذا اللون يثير الرجال. ورغم وجهه الداكن، حدجها الرجل بنظرة شبقة غير أنّه خاطبها بتهذيب قائلا: سيّدتي العزيزة «فوكوفا». كان يصغى إلى ما كان عليها قوله وقد كست وجهه تعابير لطيفة، لكنّه كان يرمقها بنظرات ماكرة من عينيه الرماديّتين.

قال: «طبعا، أعرف أفلامه. لقد كان واحدا من أفضل صانعي الأفلام الوثائقيّة. ولا يكاد يوجد من ينافسه في ميدانه. لكن الآن... حسنا، أنت تفهمين».

شعرت «إيلا» بالارتياح لكلمة «كان» ثمّ عارضته بهدوء: «لكنّه ليس محظورا تماما، فهم يسمحون له من حين إلى آخر بإعداد شيء مّا. لقد تحصّل على عقد فيلم عرضيّ، لكنّه ليس ذلك الفيلم الذي يسمح له بإبراز قدراته. وهو أمر يجده مؤلما جدّا».

«عزيزتي السيّدة فوكوفا، من تحدّث عن الحظر؟ لا أحد محظور في

هذا البلد. فزوجك ببساطة... دعينا نقول، ليس مرغوبا فيه هذه الآونة».

«لذلك طلبت من زوجتك العون. فقد فكّرت فقط أنّ في وسعك ترتيب شيء مّا. أعلم أنّك تختار الأفلام التي يشاهدها الرئيس. فإذا أرسلت إليه أحد أفلامه...». صمتت «إيلا» قليلا محاولة العثور على الكلمات المناسبة. فهي معتادة على القيام بالصفقات المشبوهة في متجرها، لكنّها تشعر رغم ذلك بالحرج والتردّد على نحو غريب. فزوجها الذي هو ليس زوجها، ذاك الذي تعتقد أنّها تعمل من أجل مصلحته، لا يعلم أنّها هنا. ومع ذلك فقد استأنفت قائلة :«بالتأكيد سنكافئك على جهودك».

قطّب الرجل الذي يعمل في الأرشيف، فشعرت فجأة بالقلق وقالت: «طبعًا، إذا كنت ترى أنّه لا يوجد شيء يمكن فعله، يمكنك أن تخبرني بصراحة».

«كلّا، كلّا سنفكّر في شيء مّا. فيلم زوجك، في ما أذكر، من جنوب أمريكا أو مكسيكو أليس كذلك؟».

«مكسيكو».

«هل تذكرين يا سيّدة «فوكوفا» إذا ما كان في الفيلم شيء عن الأفاعي؟».

فأجابت بحماس: «لماذا؟ أجل. لقد أعدّ شيئا عن صيّادي الأفاعي الجرسيّة».

«طبعا، الآن تذكّرت. هذا رائع. فنحن نرسل دائما أفلاما عن الأفاعي إلى القصر ولاسيّما أنّ زوجة الرئيس مهتمّة بها».

«لكنّها ميّتة».

«الرفيق الرئيس لا يزال يحافظ على عاداته القديمة، وهذا أمر في غاية الوضوح بالقياس إلى رجل في مثل سنّه».

«هل سترسل له ذلك الفيلم؟».

«سنحاول. طبعا، ذلك ليس كافيا فهو لم يعد يولي مكانة الأسماء اهتماما كبيرا. سنكلّف أحدا ليلفت انتباهه إلى اسم المخرج، وإذا أظهر أيّ اهتمام عندها قد نشير إلى أنّ المخرج ليس -كيف عبّرنا عن ذلك؟- مرغوبا فيه تماما في الوقت الراهن».

«وهل تعتقد أنّ بإمكانك ترتيب هذا الأمر؟».

«من أجلك سأفعل كلّ ما بوسعي». ثمّ اقترب منها ولمس شعرها علامةً على إذعانه لها وتلبيته طلبَها.

«سنكون ممتنّين لك بشدّة، وكما قلت لك سنكافئك بالتأكيد على جهودك».

«عفوا سيّدة «فوكوفا»، فزوجتي تستمتع بالتسوّق في متجرك. إنّها دائمة الانبهار بقدرتك على جلب كلّ ما تحتاجُ إليه».

شكرته مرّة أخرى ووعدت بأن تحاول العثور على شيء مميّز حقّا من أجل زوجته. ثمّ غادرت يغمرها شعور بأنّها أنجزت شيئا مّا

يمكن أن يجعلها تحظى بحقّ حمل الاسم الذي خاطبها به موظّف الأرشيفات.

في الأثناء كان «فوكا» يصوّر مادّة إخباريّة في مصنع كيميائيّ سيّئ السمعة، فيبدو ذلك كما لو أنّه استعراض عصريّ للجحيم. ولأنّ كلّ ما يفعلونه هنا سرّي، فقد أروه المكتبة والحمّامات والعيادة وفناء صغيرا للخشب وسط البنايات. لم يأخذوه إلى المقبرة حيث تشهد شواهد القبور على الميتات المباغتة لشبّان وشابّات -مات كثيرون منهم في يوم واحد. قدّموه لعاملات مبتسمات يتحدّثن بكلمات متوهّجة عن أجورهنّ الزهيدة والإجازات الصيفيّة التي يمضونها في شاليه الشركة. نجح في التملّص من التصوير وزيارة مبنى يمزج فيه العمّال سائلا متفجّرا بمغارف ضخمة في أحواض عملاقة وهم على وعي بإمكانيّة انفجارهم في الهواء واختراقهم السقف الذي بُني خصّيصا لهذا الاحتمال. حدّق باندهاش في هذا المشهد الكابوسيّ وهو يشعر بوخز طفيف في عموده الفقريّ، فحياته هو أيضا معلّقة في خيط.

عندما عاد إلى فريق التصوير وجد شخصا آخر يقف خلف الكاميرا، زميلا معروفا لدى الجميع باسم «إيفان الصغير».

أخبره «إيفان الصغير» بأنّه أُرسل إلى هنا لتعويض «فوكا» لأنّه مضطرّ إلى المغادرة باكرا. من الواضح أنّ هناك سوء فهم أو لعلّ الأمر أسوأ من ذلك، لقد قرّروا ببساطة التخلّص منه.

طمأنه «إيفان الصغير» بأن لا مصلحة شخصيّة لديه في هذا العمل.

فالجوّ هنا لا يكاد يوصف بالرائع، وعلى أيّة حال فهو لا يرغب في إتمام عمل بدأه شخص آخر، إنّها مسألة مبدإ.

لماذا يفعل هذا إذَن؟

ماذا عساه أن يفعل؟ فقد أمروه بذلك.

قرّر «فوكا» الاتّصال بإدارة الإستوديو. فهو مقتنع إلى حدّ الآن بأنّه لا وجود لخطإ. صحيح أنّه وقّع عقدا من أجل القيام بهذا العمل، لكن ما قيمة العقد ببلد يتغيّر فيه القانون ويُطبّق على نحو انتقائيّ؟

لم يتمكّن، كالعادة، من الاتّصال بهم. في النهاية هدأ وقرّر ما سيفعل. فلن يخبروه بشيء عبر الهاتف، لذلك سيعالج الأمر بنفسه.

استقبله نائب مدير الأستوديو بطريقة ودودة بل وأبويّة قائلا: «الحقّ أنّ ذلك العمل لا يناسب شخصا بقدراتك أنت...». فشرع «فوكا» يفكّر بأنّه مخطئ وبأنّ هناك شيئا غير متوقّع وأنّ معجزة حدثت وقلبت الأشياء. لقد انتبهوا أخيرا إلى عمله.

«إذَن ماذا كان عليّ أن أفعل؟».

«لقد أنجزت بعض الأفلام المهمّة. أتذكّر واحدا عن مكسيكو، ذلك المقطع عن صيّادي الأفعى الجرسيّة، كان ممتازا».

«أردت العودة إلى مكسيكو، لكن ما كان لك أن تسمح لي».

«الرحلات إلى الخارج ليست من اختصاصي».

فصحّح كلامه: «لن يسمحوا لي بذلك».

«يجب أن يحظى الآخرون بفرصة أيضا، فأنت تعلم كم تكلّف رحلة كتلك».

«مداخيل ذلك الفيلم غطّت مصاريفه، فقد بيع في الخارج».

«لا أحد يتّهمك بأيّ شيء. لكن عليك أن تحاول فعلَ شيء كهذا هنا».

«لكنّك -أعني لكنّهم رفضوا ثلاث أفكار من تلك التي اقترحتها».

«هل هذا صحيح؟».

«ثمّ إنّني لا أستطيع إنجاز فيلم عن الأفاعي الجرسيّة هنا».

«الأفاعي الجرسيّة ليست هي الغاية بل الناس. عليك أن تعثر على قصّة جيّدة».

«لقد انتزعتني للتوّ من شيء يمكن أن يمثّل قصّة جيّدة، الظروف التي يعمل بها أولئك الناس في...».

«هذا بالضبط ما أتحدّث عنه، أنت دائما تبحث عن الجانب السلبيّ في الأشياء. هذه ليست قصّة جيّدة، بل حكم مسبّق. لا أريد أن أملي عليك ما تفكّر به، لكن أنت نفسك تعرف أنّه توجد زوايا نظر مختلفة إلى كلّ شيء».

«أنا أنظر إلى الأشياء بأفضل طريقة أعرفها».

استمرّ حديثهما وكان دائريّا ومراوغا ككرة بلياردو. كان في وسعه

أن يشعر بالجمل تلتفّ على حلقه وتحكم قبضتها عليه كما لو كان يتخبّط وقد التفّت حوله كبّة خيط. عليه أن يشرع بالصراخ، لكنّه يعلم أن لا أحد سيأتي لنجدته. ما الذي سيفعله؟ ماذا عليه أن يفعل؟ هل عليه أن يتوسّل إليه؟ أو أن يمنح نائب الرئيس قسما من أتعابه؟ أو أن يخطو خارج الحجرة ويصفق الباب خلفه؟ كيف سيعثر على عمل؟ ماذا سيكون لديه كي يعيش من أجله؟

نهض وحاول الابتسام. فابتسم نائب المدير أيضا مادّا يده إليه، فبرز كمّ القميص ولمح «فوكا» زرّ الكمّ الذهبيّ يلمع. أم إنّه يخبّئ خنجرا في كمّ قميصه؟

في وقت لاحق عند المساء، وبينما كانا يتناولان العشاء، قالت المرأة التي يعيش معها منذ سنتين: «لا تنزعج، فحتّى لو لم يقدّموا لك عملا آخر فأنا ما أزال أعمل».

يا للمرأة المسكينة. إنّها تمضي ثماني ساعات خلف طاولة في متجر من أجل الحصول على مبلغ يمكنه أن يجنيه في ساعة واحدة.

«الأمر لا يتعلّق بالمال فقط».

ورغم أنّها لا تعلم شيئا، فقد قالت: «أعلم ذلك، فقد ذهبت اليوم للقاء ذلك الرجل الذي يعمل في الأرشيفات».

«ذهبت لرؤية مَن؟».

«أخبرتك عنه، ذلك الرجل المسؤول عن انتقاء الأفلام التي يشاهدها الرئيس. سيرسل فيلمك إليه. وسترى أنّ كلّ شيء

سيتغيّر».

فقال غاضبا: «أووه بالتأكيد سيتغيّر كلّ شيء. ما الهدف من قيامك بذلك؟ من طلب منك التسوّل نيابة عني؟».

«لا يمكنك أن تسمح لهم بالتخلّي عنك هكذا وربّما سيطلب الرئيس رؤيتك. عندها سيأتون إليك زاحفين، سترى».

ألقى بشوكته على الطاولة وقال: «أرجو أن تتوقّفي عن هذا الكلام الأحمق!». ثمّ ابتعد عن الطاولة حانقا لكنّه لا يملك مكانا يذهب إليه، لذلك فقد شغّل التلفزيون. فظهرت سماء زرقاء على الشاشة تخترقها بقعة مضيئة، إنّها طائرة. حطّت الطائرة ووقف صفّ من الجنود في وضعيّة انتباه. إنّها زيارة أخرى بلا فائدة. كان عليه أن يطفئ هذا الشيء اللّعين، لكن عليه أن يشغل وقته الذي يفصل بين توقيت العشاء وموعد النوم على نحو مّا. ثم رآه: وجه مريض وشفتان مكتنزتان ومنفرجتان تكشفان عن أسنان بيضاء. العينان الداكنتان والشرّيرتان خلف النظّارتين السميكتين تحدّقان إلى الأمام في استعداد للوصول الجديد.

فُتح باب الطائرة، وابتسم رجل أسود ضخم إلى الكاميرا ابتسامة شاسعة. فتقدّم الرجل العجوز بثبات نحو الطائرة تتبعه حاشيته المتملّقة.

سار الرجلان أمام صفوف الجنود، ثمّ رفع العجوز الوضيع كفّا بعظام بارزة لتحيّة الضيوف المدعوّين والحاشية المتملّقة وكلّ من يشاهد التلفزيون. فنهض «فوكا» غاضبا وأطفأه.

عندما كان ممدّدا إلى جوار «إيلا» في الغرفة الخانقة، والنظيفة جدّا في آنٍ واحد، قالت فجأة: «أردت أن أقول لك هذا منذ زمن طويل – إذا أردت أن تنجب طفلا...».

«ما الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالك؟».

«إنّنا معا منذ زمن طويل، فكيف لم يكن في وسعنا التفكير بذلك؟».

«أعرف، هل ترغبين في طفل آخر؟».

«أريد أن يكون لديّ طفل منك».

«كم هذا جميل».

«ماذا عنك؟».

«لم.. لم يسبق أن فكّرت بذلك قطّ. فأنت تعلمين الوضعيّة التي أعيشها».

«لكنّك تعيش تلك الوضعيّة منذ عرفتك».

«لم أفكّر بالأمر منذ فترة لا بأس بها».

«ينجب الناس الأطفال في أسوإ الظروف».

«أجل، كنت أفكّر هكذا»، ثمّ أضاف: «يبدو لي غريبا أن يفكّر الناس حتّى مجرّد التفكير في جلب طفل إلى عالم كهذا. لكنّي أعتقد أنّه تفكير سطحيّ. فلطالما كان العالم مكانا مرعبا بشكل أو بآخر». إنّه يتفوّه بتفاهات، ففي نهاية الأمر مرّت عليه أوقات استمتع فيها بالحياة

وشعر بالسّعادة.

رغم معرفته مسبقا أنّه لا يريد أن يكون لديه طفل منها قال: «سأفكّر بالأمر». ثمّ عانقها.

مارسا الحبّ كما يفعلان دومًا، دون أن يتفوّها بكلمة واحدة ودون شغف كبير لكن ببراعة. فبلغا كلاهما الرعشة في وقت واحد. ثمّ احتضنته وغطّت فورا في نوم عميق بينما ظلّ هو يتقلّب بقلق على السرير وفي خياله يداعب المرأة التي كان من الممكن أن ينجب منها طفلا، عائدا بذاكرته إلى البيت الريفيّ الذي بقي فيه معها قبل أن يغادر في رحلته الطويلة عبر البحر. طبعًا، لم ترافقه في تلك الرحلة وربّما من أجل ذلك أخبرته عن حياتها في الهند عندما كانت طفلة وعن المدرّس الضرير الذي قدّم لها عِلمًا عن الروح البشريّة. تظاهرا بأنّهما سافرا إلى بلدان أجنبيّة وبأنّهما سعيدان.

كان المطر يومها ينهمر بلا انقطاع على زجاج النوافذ والريح تعصف برؤوس أشجار البلّوط القريبة. فسأل «إلينا»: «أيّ البلدان ستختارين؟» كان يناديها أحيانا «آلي» وأحيانا أخرى «آلبينا».

«أظنّ أنّني أسمع صوت البحر، بحر دافئ وحتّى الرمال دافئة وسفوح الجبال غير بعيدة عن الساحل».

سأل: «هل هي جبال عالية؟».

«ليس كثيرا، لكنّها تبدو عارية وشديدة الانحدار. وثمّة ممرّ يقود إليها هل تراه؟».

«انتظري، أجل، أظنّ أنّني أراه. إنّه ممرّ متعرّج وسط الصخور».

«هو ذاك، وثمّة شجيرات تنمو إلى جانبه، أظنّها شجيرات طرفاء. هل ترغب في رؤية الشكل الذي تبدو عليه قمّة الجبل؟».

«لِمَ لا؟ ربّما نجد شيئا هناك، شيئا مميزا. أيّ بحر هذا؟».

«إنّه بحر دافئ. عندما كنت صغيرة أحببت الاسم: سارغاسو، إنّه بحر السارغاسو».

«ماهو السارغاسو يا آلي؟».

«إنّه اسم عشبة بحريّة، لونها بنّيّ».

«لم أرَ البحر منذ زمن طويل. فبعد محاولتي الفرار، لم يسمحوا لي بالسفر مطلقا. بعد ذلك نجحت أخيرا في الذهاب إلى البلطيق. وفي اليوم الأوّل، تسلّقت التلّة المطلّة على البحر. لقد كنت محظوظا، فعلى قمّة صخرة قريبة كانت هناك فقمة ضخمة تتشمّس. وكان الماء في البحر بلونين مختلفين. كان التيّار، مثل النهر، أزرق كالسماء لكن كانت ثمّة تيّارات بلون داكن تتدفّق على الجانبين. قبعت هناك ما يقارب الساعة أشاهد المياه النقيّة تصارع المياه الداكنة. أتذكّر ذلك جيّدا، لأنّه كان من غير المألوف عندي أن أجلس وأنظر فحسب. فقد كنت دومًا على عجل، ومتعطّشا إلى رؤية أشياء جديدة، أشياء مدهشة قد تغيّر مجرى حياتي».

«وهل سبق أن رأيت شيئا كالذي تصف؟».

«لو حدث ونجحت في لمح شيء كهذا، فلا شكّ أنّني مررت

بجانبه سريعا، فلا يمكنك العثور على أيّ شيء إذا كنت في عجلة من أمرك».

«لست في عجلة من أمرك الآن».

«ها نحن نسير الآن على طول طريق تقود إلى داخل الجبال. أنت تعلمين أنّني لم أكن أعرف حتّى كيف أنظر حقّا. كنت أبحث عن أشياء بدت مثيرة للاهتمام، عن أشياء تصنع صورا جميلة».

بدا غريبا أن يتحدّث عن نفسه بسهولة هكذا ومن دون تحفّظ.

وهكذا، وفي يوم ممطر، ببيت ريفيّ لأحد مّا، تجوّل برفقتها عبر المناظر الطبيعيّة فتسلّق الاثنان عاليا، عاليا حتّى اقتربا من القمّة. نظر حوله وكان البحر بعيدا وممتدّا تحت موطئ أقدامهما فبدا مثل منحدر أملس ومتلألئ يرتفع ليلامس حدود الأفق. انبعثت من أشجار الطرفاء رائحة لاذعة، وعلى صخرة قريبة كانت هناك وزغة مستلقية تحت الشمس. تسلّقا المنعرجات النهائيّة للطريق حتّى وصلا إلى هضبة صخريّة ينمو فوقها عشب مرتفع أصفر ضارب إلى اللون البنّيّ وكان يتماوج في الريح. لعلّ هذا هو عشب سارغاسو. انبثقت على الهضبة المقابلة في اتّجاه السماء أجراف صخريّة جرداء وشديدة الانحدار تؤذن بوجود سلسلة أخرى من الجبال خلفها. وفي سفح أحد تلك الأجراف لاح له شكل بناية بيضاء ينبثق من سطحها الرماديّ برجان منخفضان ويعلو فوقها خيط من الدخان الأزرق.

«أيّ بناية تلك يا آلي؟».

«لعلّه معبد بوذيّ».

«أليس غريبا أنّها البناية الوحيدة وسط أميال؟ ولا أثر فيها للبشر».

«لا شكّ في وجود أناس هناك، ثمّة نار».

«ماذا لو كانت أشباحا؟».

فاعترضت قائلة: «لا تحتاج الأشباح إلى النار».

وبينما كانا يقتربان من ذلك المكان، بدأ يتبيّن تفاصيل بنيته. هناك رواق مقوّس يعبر الواجهة وخلفه تمتدّ جدران صخريّة عديدة تزيّنها فتحات في الأعلى وتتخلّلها مداخل عديدة ونوافذ واطئة. أمّا السقف فهو محدّب وتغطّيه ألواح خشبيّة وأعمدة تمتدّ من القمّة ترفرف عليها اللّافتات.

«كلّ النوافذ مغلقة وكذا الأبواب».

«أجل، لكنّ في الزاوية شخصا مّا، جالسا تحت الجملون الصغير».

«أعتقد أنّك على حقّ يا «آلينا». إنّه يرتدي عباءة سوداء وشعره أبيض طويل. إنّه يجلس على عرش».

«ذلك ليس عرشا، إنّه صندوق».

«هل تعتقدين أنّ بإمكانه رؤيتنا؟».

«عيناه مغمضتان، أظنّه أعمى، لكنّه يعلم أنّنا هنا».

قال: «لديّ شعور غريب، كما لو أنّني أتوقّع شيئا، كما لو أنّني على وشك معرفة شيء جوهريّ».

«سيكون هو معلّمي، الأعمى».

«ذاك الذي أخبرك عن منبع الروح؟»

«أجل».

«لقد علّمك بشأن الروح، فماذا علّمك أيضا؟».

«علّمني أن أتمرّن وأتنفّس وأركّز وأنظر إلى الشمس الغاربة. علّمني أيضا كيف أنفصل عن الأشياء من حولي وأصغي إلى نفسي وأطرح على نفسي الأسئلة وأجيب عليها».

«إنّه لأمر غريب. لا أظنّ أنّنا نقترب مطلقا».

«ذلك بفعل الهواء. من الصعب تحديد المسافات أو...».

«بمَ تفكّرين؟».

«أو ربّما ليس مقدّرا لنا لقاؤه».

«أرغب في معرفة ما علّمك إيّاه، هل سأفهم ذلك؟».

«لا أعرف، ذاك يعتمد عليك، أليس كذلك؟».

«سأحاول وستساعدينني. سأكون تلميذك وستكونين معلّمتي».

«هذا مستحيل. لا يمكنني أن أكون معلّمتك».

«لمَ لا؟».

«لأنّني ملكك لكن بطريقة مختلفة».

«لكن أرجوك، كوني معلّمتي، فقط برهةً».

«حسنا، هل نجلس هنا؟».

«فلنجلس إذا كان هذا ما يتطلّبه الأمر».

جلسا على العشب وكان جافّا وخشنا. أخذ يراقب الريح وهي تعبث بخصلات شعرها. ظلّت صامتة وقتًا طويلا ممّا أشعره بالقلق. فهو يشعر بالتعب أيضا، بل كان على وشك الإنهاك. فقرّر أخيرا أن يتكلّم: «لمَ لا تقولين شيئا؟».

«انتظر! عليك أن تركّز».

«إنّي أرى طيرا جارحا يحوم حول قبّة الدير».

«انظر إليه، لكن لا تفكّر به. لا تفكّر بشيء وأغمض عينيك ببطء».

ران صمت بينهما ولم يكن يُسمع سوى صوت أنفاسها وصفير الرياح البعيدة وهمس أوراق الأشجار وانهمار المطر .

سألته: «بمَ تفكّر؟».

«بأنّك قريبة».

«ما القرب؟».

«لعلّ له تعريفًا، لكنّي لا أعرفه».

«حاول أن تقول ما يخطر لك».

«لا أقول عادة ما يخطر لي».

«قله الآن».

«آلينا، ليس من الهيّن عندي أن أكون حميمًا لشخص آخر».

«من أجل هذا بالضبط، أطلب منك هذا».

«القرب هو اللحظة التي يصل فيها الحبّ إلى ذروته».

«هل يوجد شيء آخر؟»،

«لا أعلم، ربّما الاستعداد للإصغاء».

«إنّك تنظر مرّة أخرى إلى مكان آخر خارج ذاتك. عمّ تبحث؟».

«لا أرى تلك البناية».

«لا تفكّر بها».

«يبدو كما لو أنّ الضباب آتٍ».

«لا تفكّر به».

«إذا عمّ الضباب، قد نضلّ الطريق».

«هل أنت خائف؟».

«أحيانا. منذ أن سُجنت أصبحت أخشى السقوط في مكان لا يمكنني التسلّق خارجه».

«ما الخوف؟».

«الخوف لمسة الموت، الموت الذي يذكّرنا بوجوده».

«وهل تشعر الآن بلمسة الموت؟».

«كلّا، ليس الآن. لا يمكنه ملامستي مادمت معك، ما دمت

قربك». ثمّ خالجه شعور لم يعرفه من قبل -الشعور بالنشوة أو ربّما القرب الحقيقيّ.

مرّ في المساء الموالي على الحانة التي يجلس بها عادة، وكان «إيفان الصغير» هناك. من الواضح أنّه أنهى العمل دون أن ينفجر ويخترق السقف. المنتج «بوستولكا» هنا أيضا وكذا المتقاعد المخبول صاحب الأنف المعقوف الذي كان يدرّس التاريخ والعلوم الطبيعيّة. لقد ظلّ زمنًا طويلًا يدرّس شيئا لم يكن يصدّق أنّه أربك عقله. الآن ها هو يربّي الطيور الغريبة ليصبح شيئا فشيئا واحدا منها.

قال «إيفان الصغير» وقد بدا مستاءً، وإن كان من الواضح أنّ شعوره بالاستياء لم يكن كافيا لرفض عمل فوكا: «كنت أعلم أنّهم كانوا مستعدّين لخداعك. أراهن أنّها الشرطة لأنّهم صادروا فيلمك. ثمّ أشاعوا الخبر، والآن لا أحد يملك الشجاعة لتركك تعمل. عليك قطعا فعل شيء حيال ذلك».

إنّها النصيحة نفسها التي سمعها البارحة من امرأته. «في الواقع، لا يهمّني مطلقًا».

فقاطعه «بوستولكا» قائلا بما يشبه التهديد: «ماذا لو لم يسمحوا لك بتصوير الأفلام بعد الآن؟».

فقال «إيفان الصّغير» فجأة: «لكنّك جلبت هذا لنفسك».

«وكيف عرفت ذلك؟».

«لقد قلت بوضوح إنّك لم تعد تهتمّ. لديك كامل الحقّ في ألّا تكترث، لكنّك لست مضطرّا إلى قول ذلك للجميع».

قال المعلّم السابق صاحب الأنف المعقوف: «وإن فعلت ذلك، عليك أن تحصل على الوثيقة المناسبة، احصل على شهادة أو طير أليف. بإمكان ببّغائي أن يردّد أسماء كلّ رؤسائنا، حتّى أولئك الذين لا تستطيع ذكر أسمائهم بينك وبين نفسك».

تناول كأسا من البيرة وقال: «فليذهب ببّغاءك إلى الجحيم». وفي خياله رأى حقلا من الميموزا تسكنه ببّغاوات بريشٍ أصفر وأخضر ومناقير مرجانيّة. هل كان عليه أن يظلّ يحوم في شكل دوائر إلى الأبد -محكوم عليه بالعيش في قفص للطيور حيث لا يحرّره منه إلّا الموت؟ تناول كأسا أخرى من البيرة وانتظر الخلاص بلا جدوى.

شرع «بوستولكا» في الحديث عن سماعه نبوءةً عن نهاية العالم الوشيكة. قالوا إنّها ستكون نتيجة لكارثة كونيّة مّا، لكنّه يعتقد أنّ النهاية ستكون على يد البشر أنفسهم. سيسمّمون الأرض، وفي حركة نهائيّة سيفجّرونها إلى قطع صغيرة.

إنّ أفكاره كالعادة مهترئة وتافهة. سخر المعلّم صاحب الأنف المعقوف من تلك النبوءات، ثمّ شرع في حديث سخيف عن ثلاثة مواقف محتملة يمكن أن يتّخذها رجل يرغب في البقاء حرّا.

أوّلًا، يمكنه كسب ثقة أولئك الذين يملكون سلطة على عمله. فيخفي ما يريد قوله حقّا في أكثر الأدراج سرّيّة ويؤجّل كشف مشاعره نحوهم. لكنّه لن يتمكّن أبدًا من كسب ثقتهم لأنّ أولئك

الذين يملكون سلطة تقرير مصيره غير جديرين من حيث المبدإ بالثقة. ومع ذلك في وسعه شيئا فشيئا صنع مسيرة مهنيّة لنفسه والحصول على سيّارة وامرأتين وبيت ريفيّ يمارس فيه الحبّ ويثمل وينسى. لكنّ مشاعره المؤجّلة تعذّبه، والرّجل قد يسقط قبل أجله ميّتا بسبب نوبة قلبيّة.

استمرّ العجوز قائلا: «أمّا كلّ من يتّخذ موقفا معاكسا فهو لا يؤجّل شيئا ولا يسمح لأولئك الذين يملكون السلطة بتقرير مصيره. لذلك فهو يحافظ على نزاهته. لكنّ أولئك الذين يحتلّون مرتبة أعلى منه لن يمنحوه الفرصة مطلقًا ولن يحقّق شيئا ممّا تعهّد بتحقيقه. وعندها سيشعر بالخيبة ويبدأ في الشرب ومن المحتمل أن ينتهي به الأمر في عيادة طبّيّة».

أمّا الموقف الثالث فيوجد في مكان مّا بين الأوّل والثاني. وهو أن يتظاهر ويقدّم تنازلات للأقوى، بينما يحاول في الآن ذاته العيش سرّا في انسجام مع معتقداته. لكنّه رغم ذلك يعلم أنّه أخطأ. ولأنّ قلبه لا يزال في جسده فهو يعذّبه بوخزات تأنيب الضمير وقتًا طويلًا حتّى يكسره في النهاية. ومن المحتمل أن ينتهي به المطاف في مشفى للاضطرابات العصبيّة. يدّعي كاتب نمساويّ أنّك قبل القيام بشيء جيّد، عليك أوّلا أن تخلّف أثرا طيّبا عند الناس. غير أنّ العجوز ادّعى -بنفس رجل يقدّم لك زهرة حكمته- أنّ على الرجل أيضا أن يفعل الشرّ ليحصل على حيّز لفعل الخير، هذا إذا كان بعدُ قادرا على فعل الخير.

أغضبت تخاريف العجوز «فوكا» وصرخ في وجهه: «اخرس! واحتفظ بنصائحك لببّغائك».

تغلق الحانة أبوابها على السّاعة الحادية عشرة. دعا المنتج «فوكا» إلى مزيد الشرب ودعاه المدرّس السابق إلى زيارة بيت الطيور، أمّا «إيفان الصغير» فقد وعده بأن يوصي به خيرًا. إنّه يعني ذلك بالتأكيد، على الأقلّ إلى أن يصحو من ثمالته.

ترنّح «فوكا» عائدا إلى البيت على طول طريق فارغة. فانتبه إلى امرأة ثملة ممدّدة على الرصيف المقابل. كانت حقيبة يدها في حجرها وكانت ترتدي لفاعا. لعلّها من الريف.

عندما عاد قال لآلينا: «لم أتمكّن فقط من القيام بذلك. لديّ تذاكر الطيران لكن ثمّة زلزال، لا شكّ أنّك قرأت عن ذلك».

أجابته دون أن تنظر إليه: «أعرف، لكنّني كنت أتوق إلى عودتك. عندما لم تعد، حدث شيء، شيء بداخلي». كانت قد فقدت بعض الوزن بعد الحادثة. كانت ترتدي لفاعا أصفر ولم تكن تبرز من رأسها ولو شعرة واحدة. لا شكّ أنّها قَصّته.

أخرج بعض الصور لبيوت نصف مهدّمة ولأنقاض جسر وسيّارات محطّمة وأشجار مقتلعة من جذورها وأرصفة غارقة وجدران متصدّعة وأرض مشقّقة وحتّى جثث مصفوفة حذو كومة من الرّكام. قال: «كان الأمر مخيفا، لم أعش شيئا كهذا مطلقا. أنت حقّا لا تعرفين ما يجري. لو كان بإمكانك سماع انفجار أو ما شابه –لكن يوجد فقط صوت أشياء تتصدّع ثمّ هتافات ثمّ لحظة صمت ثمّ

صوت تصدّع من جديد. كلّ شيء يرتجف ومازلت لا تعرفين ما يجري. ركضتُ باتّجاه الطريق وفي تلك اللحظة انهارت البناية الأولى...».

هزّت رأسها رافضة سماع أيّ شيء بعد ذلك. وقالت: «لست أتّهمك بأيّ شيء. لقد حدث شيء ولم أعد أحبّك. كان يمكن أن يحدث ذلك حتّى لو عدت. أنت مختلف عن الصورة التي تخيّلتك عليها، عن الشخص الذي أرغب في العيش معه».

أرادها أن تخبره كيف تراه مختلفا، لكنّها دخلت فجأة في نوبة غريبة وصارت ترتجف وتتوسّل إليه أن يتركها وشأنها، وألّا يهاتفها مرّة أخرى أبدا، وأن ينسى كلّ ما يتعلّق بها.

أصابه ذهول لكنّه نجح في الإيماء برأسه، وكان يريد أن يقبّلها مرّة أخرى فأمسك رأسها بين يديه وطبع على شفتيها الباردتين قبلة. فاشتمّ رائحة عطر أنفاسها، لكنّها لم تبادله تلك القبلة وحاولت أن تفلت من قبضته. وبينما كانت تفعل ذلك انزلق اللفاع من فوق رأسها فذُهل لاكتشافه أنّها لم تفقد طفلها الوحيد فقط وإنّما شعرها أيضا.

سحب «فوكا» كاميرته من الحقيبة ونجح حتّى في تغيير عدساتها. ثمّ أخذ صورة للمرأة الثملة التي قد يكون لها شعر وقد لا يكون، لكنّه كان على يقين تقريبا من أنّها لا تملك بيتا تعود إليه.

ما البيت؟

البيت شيء نحمله داخلنا. أولئك الذين لا يملكون بيتا في داخلهم

لا يمكنهم تشييد واحد سواء من التحدّي أو من الحجارة.

(II)

ها قد أنهى فطور الصباح. فمنذ وفاة زوجته أصبح يفطر بمفرده، وحيدا في غرف طعام فسيحة، على طاولات ممتدّة تكسوها شراشف بيضاء ويُقدَّمُ عليها طعام وفير لا يكاد يلمسه لأنّه يعاني من إحساس بالامتلاء في الصباح، لكن ينبغي له أن يزدرد بعض اللقيمات حتّى يستطيع ابتلاع كلّ تلك الأقراص التي حكم عليه الأطبّاء بتناولها، أقراص تضعها دومًا الممرّضة أو خادمته المخلصة على طبق قرب كوب الحليب وتنتظرانه إلى أن يضع كلّ حبّة داخل فمه ويبتلعها. عندها فقط تتمنّيان له وجبة طيّبة وتنسحبان. ينجح أحيانا في إخفاء بعض الأقراص تحت لسانه أو في دفعها إلى ذلك الفراغ بين أسنانه وشفتيه، وعندما يكون بمفرده يبصقها في كوب الحليب. لكن ما أدراه أيّ نوع من تلك الأقراص مفيد له وأيّها يحتوي على السمّ البطيء المفعول الذي يطعمونه إيّاه حتّى يزيحوه برفق من هذا العالم؟ كيف له أن يعلم ذلك، وهو لا يعرف حتّى أيّ أطبّائه حقيقيّ وأيّهم مجرّد جلّاد من جلّاديه الكثر متنكّرا في هيئة طبيب؟

انزلق بمقعدة إلى الخلف مبتعدا عن الطاولة، ثمّ نهض وسار على السجّاد الناعم نحو النافذة. كانت شمس الظهيرة الحارقة تتدفّق إلى الحديقة، وكان هناك رجلان يسحبان صرّة ملوّنة من القماش بواسطة عمود. ظلّ ينتظر على مقربة من النافذة حتّى وصلت الصرّة إلى أعلى، ثمّ انفتحت وامتلأت بالهواء. إنّه على يقين من أنّ عينيه لم تقعا قطّ على

ذاك النوع من العالم قبل الآن. وقفت عنزتان أو ربّما ظبيان، فمن العسير معرفة ذلك من هذه المسافة، متواجهين على حقل من اللونين الأخضر والأبيض.

هذا هو نوع الزائرين الذين يأتون إليه. إنّهم يطرّزون أعلامهم بالماعز والفيلة أو القردة ويتوقّعون منه احتضانهم والابتسام في وجُوههم والتقاط صور معهم. عليه أن يلقي نظرة على الخريطة حتّى يعرف من أيّ بلد يأتي رئيس الماعز هذا.

يجلب إليه هؤلاء الملوك أحيانا هدايا تحظى بقبوله مثل جلود الأسود أو سلاح مثير للاهتمام أو خنجر بمقبض من عاج أو بندقيّة بمؤخّرة منحوتة بدقّة. عندما كانت زوجته على قيد الحياة كانوا يجلبون لها أقمشة ومطرّزات ومراوح مصنوعة من ريش النعام، وشالات بوسعها لفّها حول كامل جسدها ودبابيس شعر مرصّعة بأحجار ثمينة. أمّا أولئك الأكثر إطّلاعا فيجلبون لها أحذية وحقائب يد مصنوعة من جلد الثعبان.

شعر برغبة في إلقاء نظرة على بعض تلك الهدايا. فغادر الغرفة ونزل أسفل سلّم داخليّ يقوده إلى البهو. هناك، صرف الخادم ودَلَف إلى غرفة بسقف وجدران مكسوّة بألواح خشبيّة. في هذا المكان يحفظ الهدايا التي تعجبه وتلك التي لا تثير اهتمامه، وتلك الهدايا التي لا يستطيع حتّى التكهّن بقيمتها وكذا الهدايا التي كانت قيمتها رمزيّة، إذا كانت لها بالفعل قيمة.

ها هي صناديق بلوريّة محشوّة بمنافض رخاميّة، وصناديق من

الفراشات المحنّطة، وتماثيل نصفيّة له، ومنحوتات شعبيّة من الكاميرون، وبذلات ملابس ريفيّة، وسرج جلديّ من منغوليا، وساعة قديمة، وأكواب من الكريستال، وكؤوس من الزجاج المزخرف، ومزهريّات صينيّة، وأطباق يابانيّة، وبعض مجسّمات مصغّرة لمكنات ومحرّكات وسيّارات وصواريخ وطائرة ومركبات فضائيّة، ومجسّمات لمكان إقامته وللمصانع والأفران العالية والسدود وأبراج التلفزيون، ونماذج من الأسلحة، وكذلك أسلحة حقيقيّة طبعا، وبنادق صيد قديمة وأخرى حديثة. وقف بعض الوقت في متجر الخردة هذا، متجره الخاصّ للبضائع المستعملة. ثمّ فتح أحد الصناديق واستخرج لوحة برونزيّة ودبلوما يحمل فقمة ضخمة. حدّق فيها برهةً متجاهلا الاقتباس المهادن الذي نال من أجله شهادة دكتورا شرفيّة منحه إيّاها الخاضعون له، رجال المعرفة في جامعة شهيرة. ثمّ أعاد قطعة المعدن المزخرفة إلى طبقة الصندوق المخمليّة. غادر الحجرة عبر الأبواب الخلفيّة الموضوعة تقريبا على نحوٍ لامرئيّ وسط الجدران الخشبيّة. سار على طول ممرّ ضيّق حتّى وصل إلى سلّم جانبيّ. نزل أسفل السلّم إلى غرفة أخرى حيث النوافذ تغطّيها ألواح خشبيةمزخرفة والسقف مقبّب مثل مخزن للنبيذ.

هذه هي غرفته، جدرانها بيضاء وعارية بلا أيّ صورة ولا ديكور، لا شيء سوى رفوف تسند صناديق أشيائه الثمينة مرتّبة في شكل صفوف. هذه صناديق مخصّصة للكنوز لكنّها خاوية، إذ لا وجود لخزائن يمكن أن تحوي ثروته، فالبلد بأكمله ملك له. قيمتها الوحيدة عنده أنّها يمكن أن تفتح وتغلق من جديد وأنّ بإمكانه تأمّل آليّاتها

المعقّدة والدقيقة وتفحّصها. يتظاهر لنفسه أحيانا بأنّه نسي مفتاح أحد تلك الصناديق التي تبدو ظاهريّا بسيطة وعليه أن يحاول فتحها مستخدما الطرق التي علّمه إيّاها لصّ خزائن تقاسم معه الزنزانة عندما كانا معًا بين أيدي الجلّادين. كانا يفتحانها دون مشعل اللحام وعلى تلك الطريقة البربريّة التي كانوا يقومون بها في أفلام العصابات، لكن باستخدام أسلاك رقيقة ومبارد.

إنّه بالتأكيد يجمع الأقفال، بعضها جديد وبعضها صدئ وذو أنظمة معقّدة للرافعات التي تشغّل المزاليج الضخمة وبعضها حديث مصغّر يطلق ألسنة بأسنان حديديّة صغيرة، ومعدّات تتداخل لتكوّن عناصر صلبة. هي أقفال يمكن فتحها بالمفاتيح أو عن طريق شيفرة أو بدسّ بطاقة ذات شريط مغناطيسيّ أو زخرفة من الثقوب المحفورة فوق شقّ ضيّق على سطح الميكانيزم. هناك أيضا أقفال لا يمكن فتحها إلّا بواسطة خمسة مفاتيح مناسبة لذلك، وأخرى مزدوجة لا يمكن إدخال المفتاح فيها إلّا بعد فكّ شيفرة الأرقام، بالإضافة إلى أقفال تطلق صفّارات إنذار لحظةَ إدخال مفتاح خاطئ فيها. إنّ كلّ هذه الأدوات تثيره وتجعله ينسى سيل الهموم الذي لا ينقطع.

عندما لا يجد أحيانا وقتًا للتسكّع، يعزل نفسه تماما عن العالم المحيط به. يجلس على مقعد دائريّ ويضع أمامه، على منضدة عمل، صناديق جديدة بملصقات مكتوبة بلغات أجنبيّة وطرودًا غير مغلّفة أُرسلت إليه من طرف موظّفي السفارة المخلصين. إنّهم طبعا لا يفهمون شيئا وعادة ما ينفقون مبالغ كبيرة في اقتناء أوّل محلّ للخردة يطؤونه وأحيانا

يشترونها حتّى من مخزن كبير.

مزّق غلاف أوّل طرد، بفارغ الصبر، فوقع قفل ذهبيّ من الصندوق. في البداية بدا مثل ساعة عاديّة، لكنّه لم يعثر على ثقب المفتاح. تفحّص القفل بأصابعه في عناية. من المؤكّد أنّ الصندوق يحتوي على مجموعة من الإرشادات التي ستساعده على إيجاد كيفيّة فتحه، لكنّه يشعر بالارتياح عندما يكتشف كيفيّة عمل هذه الأشياء بنفسه.

أحيانا يتخيّل نفسه في الليل يغيّر أقفال الأبواب في مكان إقامته. يجمع المخادعين المحتشدين حوله: الأطبّاء والخدم والبستانيّين والحرّاس الشخصيّين والوزراء والسائقين والطبّاخين والسكرتيرات والنُّدل ويدعوهم جميعا إلى غرفة واحدة. بعد ذلك يعتذر ويغادر الغرفة ويحبسهم في الداخل. سيغلق أيضا باب البهو وبوّابة المدخل الرئيسيّ. سنرى عندئذ كيف سيطلبون المساعدة أو يتّصلون عبر الهاتف أو يصرخون من النافذة. لنرَ كيف سيكسرون الأبواب. لكنّهم قبل أن يفلحوا في إطلاق صيحة الإنذار، سيكون قد عبر البوّابة بحرّيّة واختفى في الغابة، ولن يعثروا عليه إلّا بعد مرور يوم أو يومين.

سمع وقع خطوات في الممرّ، فسارع إلى وضع القفل جانبا، ونظر إلى يديه وقد اعتراه شعور بالذنب. إنّهما ملطّختان بالزيت. مسحهما ثمّ وضعهما وراء ظهره.

ظهر الخادم في مدخل الممرّ وقال بوجه خالٍ من التعبير: «أيّها الرئيس الرفيق، إنّ الرفيق وزير الماليّة هنا».

«دعه ينتظر».

«عليكم أن تكونوا في المطار خلال ساعتين. إنّ الرفيق وزير الماليّة يحثّكم على...».

«أعلم. دعه ينتظر».

إنّهم لا يتركونه لحظة واحدة في سلام. فلديهم طرق متطوّرة لمضايقته وإنهاكه ولاسيّما الآن بالذات عندما أصبح جاهزا للشروع في العمل. كرّر قائلا: «دعه ينتظر». دعهم كلّهم ينتظرون، بما في ذلك الزنجيّ غير المكترث أصلا بلقائه. فكلّ ما يثير اهتمامه هنّ النساء وما يمكنه أن يتحصّل عليه منهنّ. يُسمّى ذلك تقديم ائتمان يمتدّ إلى الأبد وليس عكس ذلك. فكلّ ما نفعله هنا يمتدّ إلى الأبد، وفي الأثناء يطرق الموت البوّابة المصفّحة .

صعد السلّم الجانبيّ متثاقلا.

كان كلّ شيء في المكتبة منظّما وفي مكانه، إذ لم يبق هناك أثر لمساء أمس. فهو يتذكّر أنّه جلس هنا لكن صحبة مَن؟ لقد فعلوا ذلك عمدا. فكلّما شرب قليلا يمحون أثر ما فعله حتّى لا يكتشف أبدا ما حدث ولا يعرف أبدا إلى من تحدّث وعن ماذا. على طاولة الكتابة جهّزوا له كما يفعلون دومًا ورقات الإحاطة الإعلاميّة. وكانت فوق كومة الأوراق ورقة صغيرة مكتوبة بخطّ غير مألوف لكنّه مقروء:

إلى الرفيق الرئيس العزيز،

اسمحوا لي بتذكيركم، مثلما طلبتم، أنكم تريدون لقاء المخرج

المدعوّ السيد «فوكا» الذي راق لكم فيلمه عن صيّادي الأفعى الجرسيّة في مكسيكو.

لم يكن ثمّة توقيع، طبعًا. فمن يمكنه تزوير هذا؟ من هذا الذي يفتقر إلى اللّباقة حتّى يترك له رسائل مثل هذه دون توقيع؟ إلّا إذا كان هذا الشخص يفترض أنّه سيتعرّف على خطّه أو يتذكّر ويطلب مذكّرة. لكنّه يملك ذاكرة ضبابيّة عندما يتعلّق الأمر بشيء كهذا.

فتح الملفّ فوجد رسالة أخرى:

إلى الرفيق الرئيس العزيز،

إذا سمحتم لي، لقد عبّرتم عن رغبتكم في أن أذكّركم بالنظر في طلب العفو المرفوع نيابة عن الخاطف «بارطوس».

مرّة أخرى، لا يوجد توقيع على هذه الرسالة. وقد بدأ هذا الأمر يزعجه. يبدو أنّ شخصا مّا اخترق مكتبه وزوّر هذه المذكّرات الصغيرة والرثّة. والآن، وهو يفكّر بهذا الأمر ورغم ضعف ذاكرته، مازال يحمل في داخله ذكريات قاتمة عن فيلم حول الأفاعي الجرسيّة. إنّه يتذكّر مشهدا يقف فيه أحد الهمج، نصف عارٍ وفي يديه أفعى بغيضة. تذكّر زوجته المسكينة وهو يشاهد ذلك. لا شكّ أنّها كانت ستُفتَن بذلك وسترغب في دعوة ذاك الساكن الأصليّ إلى رؤيتها. لكن لماذا يُتوقّع منه أن يمنح العفو لمخرج؟ هل سرق شيئا مّا؟ أم هل لدغته الأفعى؟ أم أنّه لم يعد إلى البلد ثمّ غيّر رأيه وأراد العودة؟ قد تحدث مثل هذه الأشياء. ألم يعانِ مغنٍّ شهير من هذه المشكلة نفسها؟ فهاتَفه ببساطة وأخبره أنّه غفر له كلّ شيء. لكن بعد ذلك تذكّر مجرما

آخر خطَف أحد الأشخاص، إنّه لا يحلم أبدا بمسامحته.

لعلّ هذه المذكّرات دُسّت وسط أوراقه من طرف ألدّ أعدائه كي يشوّشوا تفكيره ويوقعوه في الفخّ.

أعاد غلق الملفّ، وفجأة تذكّر. الخادم! فمساء أمس كان يجلس معه هنا خادمه المفضّل. ولكن ما سبب اهتمامه بحياة أحد المجرمين؟ من الواضح أنّه كان يمرّر طلب شخص آخر إليه فحسب. إذ كانت تحدث دومًا ضجّة هائلة، في العالم بأسره، كلّما انتهى أحد أعدائه اللدودين وراء القضبان. كم يشعرون بالقلق حيال كلّ من يدخل إلى السجن! إنّهم يحتجّون حتّى عندما يُحبَس مجرمون اعتياديّون وقتلة. هذا ما يثير حقّا غضبه تجاه هؤلاء الانتقاديّين المتعالين الذين يستشهدون بالقانون في دفاعهم عن أولئك الذين يخرقون القانون. فهو يعرف هؤلاء المجرمين الذين شاركهم زنازين السجن وكان يذرع بصحبتهم ساحات سجن صلبة جيئة وذهابا. لهذا فلا يمكنهم أن يقولوا له إنّ هؤلاء الناس ضحايا أبرياء.

انتابه الغضب. ألا تكفيه تلك الأشياء التي تسبّب له القلق، حتّى ينضاف إليها قلقه بشأن حياة حفنة من النكرات؟ كما لو أنّ العنف لم يسلّط على غيرهم. وكما لو أنّهم هم أنفسهم لم يحكموا قطّ على أحد بالإعدام من قبل. وما قولكم أيّها السادة في أولئك الستّين عامل مناجم المفقودين تحت الأنقاض أو أولئك الخمس مائة امرأة اللّاتي يعملن في مصنع صباغة الأنلين واللّاتي يمُتن ببطء بسبب إصابتهنّ بالسرطان؟ يجب أن يقف أحد ليدافع عنهم، لكن ماذا يمكنه أن يفعل

إذا كان العالم يدفع مبالغ جيّدة مقابل تلك الأصبغة؟ سينقضّ عليه في آن واحد كلّ وزرائه وجميع موظّفي البنوك لديه، وكلّ أولئك الذين ينتظرون فقط أن يقوم بحركة خاطئة حتّى يجرّدوا الدولة من الدولارات التي تحتاج إليها. لكنّهم لا يتردّدون لحظة في جلب أولئك البؤساء المساكين إليه في أكفان بيضاء. مثل أولئك الرضّع الصغار: كم عدد الذين أحضروهم إليه حتّى الآن وكم عدد الذين لم يصلوا بعد؟ إنّه لا يعلم. ففي حوض الفحم الحجرّي الشماليّ يولد ميّت واحد على ثمانية أطفال وقريبا سيكون واحدا على أربعة أطفال. كلّ تلك المخلوقات الصغيرة والبائسة التي ماتت بسبب استنشاق ذلك الدخان الرهيب، ماتت متخمة بالسمّ. من الذي وقف في صفّهم؟ من الذي احتجّ دفاعا عنهم؟

كان يمكن لكلّ هؤلاء التعيسي الحظّ أن يرفعوا طلبات عفوٍ، فهم الضحايا الحقيقيّون. لكنّهم لم يطلبوا تأجيل الحكم بل قاموا بواجبهم. إنّهم عمّال بسطاء وأبطال ووطنيّون ينتظرون بصمت قدوم من يدافع عنهم.

يتوقّع العلماء في أكاديميّة العلوم مجيء يوم يصبح فيه توفير ما يكفي من الطاقة أمرا غير مضمون. سيكون يوما شديد البرودة، تتوقّف فيه المولّدات في حقول الكهرباء عن العمل فلا تنطلق الشاحنات التي تجلب الخبز إلى المدن في رحلتها اليوميّة ولا يذهب الناس إلى العمل، بل سيظلّون محاصرين ومسجونين في بيوتهم المجمّدة بلا شيء يتدفّؤون به ولا أيّ مكان يركضون إليه. وكلّ ما يمكنهم فعله هو

وضع معاطفهم والاندفاع إلى الشوارع. وهناك سينهبون المحلّات ويداهمون المدن في رعب مجنون وغضب حتّى يصلوا إلى القصر حيث لا يزال يمسك بزمام السلطة، وسيطلبون منه أن يطعمهم ويمنحهم الدفء. ستمتدّ حياته إلى زمن لن يكون فيه قادرا على الخروج إلى الناس الذين كان يرغب في تحقيق الرّفاه لهم والذين خدَمهم طوال سنوات لأنّه لن يكون لديه شيء يقدّمه لهم عدا النهاية، لا شيء عدا ألواحا خشبيّة يمدّدون عليها موتاهم.

إنّ الناس في كلّ مكان ينتظرون من يأتي ويدافع عنهم، ومن يحقّق رغباتهم الخفيّة ومطالبهم المعلنة ومن يملأ بطونهم، ويسكنهم في بيوت ويوفّر لهم التدفئة والكهرباء والماء والهواء ويمنحهم العفو ويضمن لهم شعورا دائما بالأمان، لكنّ قدراته مجرّد قدرات بشريّة ولا يمكنه القيام بأكثر ممّا تسمح له به. ثمّ إنّه محاط بالأعداء ومحاصر بالمتملّقين من الذين ينتظرون بإصرار ارتكابه خطأ فادحًا وينتظرون سقوطه، وينتظرون نهايته.

وهاهم يجدون الجرأة للتحسّر على مصير مجرم عنيف!

الحمد الله أنّه مازال يوجد أشخاص يمكنهم أن يريحوا تفكيره من هذه الأشياء مثل ذلك الرفيق الذي أعدّ من أجله فيلما عن صيد الأفاعي الجرسيّة. وقفت واحدة من تلك الأفاعي واهتزّت ورمشت عينيها الصغيرتين تماما مثل وزير الماليّة الذي عليه أن يأمره بمشاهدة الفيلم هو أيضا. فلْيَرَه وليتعلّم شيئا.

دخل وزير الماليّة متهاديا إلى الحجرة. عيناه صغيرتان مثل عينَي

الأفعى وساقاه كساقَيْ دجاجة، شعره مبسوط إلى الخلف وكثيف وناعم مثل شعر الأسد وأذناه بارزتان. همس بصوت يشبه فحيح الأفعى: «علينا أن نغادر فورا، خلال ساعة». ثمّ أشار على نحو غامض إلى الملفّات ذات الأغلفة الجلديّة.

استمرّ وزير الماليّة في الكلام موزّعا النصائح والإرشادات. إنّه أشبه بكتاب تعليميّ متنقّل، هذا الغدّار كأفعى جرسيّة بساقَيْ دجاجة. العاصمة هي «أومبا» (أو بومبا لم يلتقط الاسم جيّدا وقد يقلّل من كرامته أن يسأل عن ذلك) يمكنهم منحنا الأورانيوم وحبوب الكاكاو والقطن والنحاس، ثمّ إنّ رئيس الوزراء درس القانون في «كامبريدج» رغم أنّه أسود من قبيلة «البانتو». الآن احذر: إنّ للمنتمين إلى قبيلة «البانتو» ثقافةً عريقةً، ولهم حتّى أدبهم الخاصّ وشعرهم الملحميّ. تجنّب ذكر القانون وتحدّث عن الاقتصاد بدلا من ذلك. لا تنسَ أنّهم يمنحوننا الأورانيوم والنّحاس والقطن وحبوب الكاكاو. ونحن نمنحهم الشاحنات والمدافع والدبّابات والموادّ الكيميائيّة. لا تقل شيئا يسيء إلى الربّ، تجنّب الخوض في حديث عن سياسة الكنيسة. يمكنك الحديث عن الموسيقى، فالوزير الأوّل يعزف على البيانو وهو مولع بالموسيقيّين الرومانسيّين مثل «كريغ» و«بيتهوفن» و«فاغنر» و«تشايكوفسكي» و«ليست». ابتعد عن مناقشة الرسم الحديث في بلدنا ومن الأفضل أن تتحدّث عن الصراع ضدّ الاستعمار. للوزير الأوّل طقس خاصّ، إذ تُقدّم أمامه مرّة في الشهر قضيّة محكمة معقّدة إلى جانب الطعون والتماس العفو. فيجمع الأطراف المتنازعة ويصغي إلى الدعوى بنفسه ويعطي رأيه أو يمنح العفو بحسب القضيّة. هذه

الممارسة أكسبته صيتا بين أهل بلده وكذا خارجه. لقد ألغى حكم الإعدام، لذلك فإنّي أنصحك بأن تتفادى ذكرى ممارستنا إيّاه في بلدنا .

ومؤخّرا، جاء ذلك الحادث في مصنع المتفجّرات. فمنذ فترة قصيرة عندما انفجرت بناية بأسرها، أمر الإدارة باتّخاذ إجراءات صارمة لتفادي حدوث مثل هذا الأمر من جديد. لكنّهم بدلا من ذلك أعادوا بناء الأسقف فحسب. وهكذا، عند حدوث انفجار ينفجر السقف وتبقى الجدران سليمة على حالها. بطبيعة الحال حدث انفجار آخر وكلّهم تطايروا عبر السقف الجديد: من يخلطون النيتروجليسيرين، وكلّ العاملين في فرع الملح الصخريّ، وثمانية مبتدئين في سنّ الثامنة عشرة، وعمّال المخازن وموقف سيّارات يعجّ بالشاحنات والسائقين ومرافقي السائقين. كلّ هؤلاء طاروا في الهواء في اللّحظة نفسها وتحوّلوا إلى رماد ودخان وذرّات من المادّة البشريّة تبعثرت في كلّ الاتّجاهات بسبب زوبعة هوائيّة. فلم يُعثر على جُسيْم واحد لأيّ من أولئك الناس ولا تمّ التعرّف عليه. رفض المسؤولون إصدار شهادات وفاة لهم، وكان على الرئيس التدخّل شخصيّا وزيارة المكان بنفسه ووضع الميداليّات في الأيادي المليئة بالكراهيّة للأرامل الباكيات والأزواج الغاضبين الذين فقدوا زوجاتهم، وبهذه الطريقة يؤكّد لهم أنّ موت ذويهم كان بطوليّا وأنّ الضّحايا أبطال العمل ومحاربون من أجل قضيّة نبيلة، قضيّة شعب لأكثر الأنظمة تطلّعا إلى المستقبل في التاريخ، ومن أجله دفع أناس كثيرون حيواتهم ثمنا.

عندما استفاق في تلك الليلة، وجد تلك النعوش من جديد، مغلّفة

بشراشف بيضاء لكن هذه المرّة لم يكن تحت الشراشف أحدٌ، بل فراغ، وهواء. نهض من السرير ومرّ من أمامها. فتح الباب على الممرّ الطويل وها هم ماثلون هناك، المزيد منهم، جنبا إلى جنب، كلّ واحد منهم يحمل علامة بيضاء على جبينه كُتِب عليها اسمه بحروف سوداء. كانوا مائة وتسعة وثلاثين. وعندما مرّ من أمامهم في اتّجاه الممرّ المضاء بخفوت بسبب انعكاس ضوء القمر، بدأت النعوش فجأة تطفو في الفضاء. لم يكن يعرف كيف يخلق أعداؤه هذا التأثير. فربّما كان الجوّ حارّا أو كانت هناك جاذبيّة، لكنّ النعوش طفت حتّى وصلت إلى مستوى صدره وكانت تتمايل قليلًا فاصطدمت الأرجل الخشبيّة بالإطارات وأحدثت صوتا يشبه طقطقة العظام، مثل تصفيق يحمل وعيدا. وفوق كلّ هذه الأصوات برز صوت عويل حادّ كما لو أنّ مائة حنجرة انطلقت في النحيب دفعة واحدة. فكاد أن يفتح النافذة، وقد غمره شعور بالرعب، ويلقي بنفسه إلى الخارج حتّى يهرب من تلك الأصوات. كان مستعدّا للقفز من فوق المرتفعات نحو الأعماق والسقوط على أن يلقى حتفه على أيدي الشعب الغاضب، ضحيّة مؤامرات أولئك الذين لا يتردّدون في استغلال الضحايا البؤساء لحادث مأسويّ في حملتهم الصامتة ضدّه.

كذلك زوجة رئيس الوزراء -فانتبه إلى أنّ الحيوان الزاحف والماكر مازال يتحدّث إليه- إنّها تدعى «باتريشيا»، وهي زوجته الوحيدة. احرص كذلك على أن تتذكّر أنّ كلَيْهما مسيحيّان. لقد درست علم النفس في «كاليفورنيا»، لذلك يمكنك التحدّث عن أنشطة العمل الخيريّ والعناية الطبّيّة وليس عن...

قاطعهما الخادم ودخل يحمل بذلة الرئيس السوداء على ذراعه. سيخبره بأنّ الوقت قد حان ليذهب إلى الحمّام ويغيّر ملابسه. أغلق وزير الماليّة الملفّ بسرعة، وقال: «هل لديكم أيّ ملاحظات، أيّها الرفيق الرئيس؟».

سيكون الوزراء والخبراء حاضرين في المفاوضات. فليقلقوا بشأن هذه الأشياء، ففي النهاية هذا ما يتقاضون أجرا من أجله. وليفكّروا بشيء آخر من أجل بعض التغيير إلى جانب حساباتهم البنكيّة السريّة في سويسرا.

«هل ترغبون في الاطّلاع على كلمة الترحيب الآن؟».

رافقه الخادم إلى الحمّام بينما كان يجيبه: «في السيّارة، سيكون ثمّة ما يكفي من الوقت للقيام بذلك في السيّارة».

كان على علاّقة الثياب قميص أبيض ناصع وأزرار أكمام ذهبيّة جاهزة على طبق خشبيّ.

خطرت له فجأة فكرة، فقال ملتفتا إلى وزير المالية: «ذلك الخاطف، ذلك المحكوم عليه بالشنق، هل تعرف من يكون؟».

قفز وزير الماليّة على قدميه الأشبه بقدمي دجاجة وأومأ بحماس.

فأمره: «أحضره إلى هنا، أرغب في سماع ما لديه من أقوال».

فقال بتذلّل: «لكن أيّها الرفيق الرئيس إنّه مجرم خطير وقد سبق للمحكمة أن أصدرت فيه حكما...».

فكرّر: «أحضره إلى هنا أريد أن أنظر في قضيّته وأعطي رأيا».

بدا صوت وزير الماليّة مختنقا كما لو أنّ الصيّاد أطبق على رقبته: «متى؟».

فقال: «جد بعض الوقت، لكن ليكن ذلك عندما يكون الزنجيّ هنا».

«حاضر أيّها الرفيق الرئيس».

«وذلك المخرج صاحب الأفلام المسلّية».

إنّه لا يستحضر اسمه الآن ولا يعرف حتّى جريمته. لكنّ هذا غير مهمّ، سيكشفون له ذلك. فلينظر وزير الماليّة إلى نفسه وهو يتلوّى كأفعى بين يدي الصيّاد، ويراقبه وهو يحطّم له أسنانه السامّة.

«هل عليّ جلبه أيضا؟».

غمس يديه في حوض الغسيل وكان الخادم وراءه يمسك بإذعان منشفةً بيضاء ونظيفة وجاهزة للاستخدام. وكانت عينا وزير الماليّة الشبيهتين بعيني الأفعى تحدّقان فيه بعدم رضا .

هذا هو أسلوبهم: إنّهم يمنعونه من لقاء أيّ كان، ربّما ماعدا رجلا أسود، رجلا متكلّفا ومتباهيا بسلطته. قالوا كذلك إنّه يستطيع لعب دور القاضي لأنّه تلقّى تعليمه في «كامبريدج» أمّا الرئيس فقد درس في جامعة محلّيّة. لذلك سيختار أحدا مّا ويجلبه ثمّ يظهر شهامته. لكن كيف يمكنه فعل ذلك وهم يفسدون دعواته بينما يتظاهرون بطاعة أوامره؟ وبطبيعة الحال سينشرون بعد ذلك إشاعات بأنّه غير قادر

على التواصل مع الشعب وأنّه عاجز عن الحكم واتّخاذ القرارات وعن فعل أيّ شيء أو تغيير أيّ شيء، ولهذا وجب إبداله. لكنّه سيفاجئهم جميعا وسيبطل كلّ مخطّطاتهم الغادرة ويوما مّا سيخرج للشعب على حين غرّة معلنا الحرّيّة. وسيترك له حريّة تقرير مصيره وليمزّق عندها كلّ أعدائه أنفسهم إربا إربا. لكنّه سيكون قد فعل ما ينبغي عليه فعله ولا أحد سيكرّر أنّه فقد الاتصال بشعبه أو أنّه حكم فقط بسبب الإكراه والخوف.

أمره قائلا: «بعد غدٍ على أقصى تقدير، وأحضر كلا المجرميْن إلى هنا بطريقة متحضّرة. لا أرغب في رؤيتهما مقيّديْن بالأصفاد أو الأغلال». ثمّ تنهّد وبدأ يخلع قميصه .

(III)

إنّها الثامنة والنصف صباحا. سُمع مرّة أخرى صوت جلجلة مفاتيح في القفل في وقت غير اعتياديّ. كان برفقة الحارس في الممرّ رجلان غريبان. أحدهما من الواضح أنّه شخص مهمّ، إذ كان يرتدي زيّا. أمّا الآخر فبدين وساذج ويضع ملابس مدنيّة وسلاحا في جيبه الخلفيّ المتورّم. أتكون هذه هي اللحظة المناسبة؟

وقف «روبرت» مستعدّا وقد تسارعت أنفاس «غابو» خلف عنقه.

«باتروس، هيّا جهّز نفسك سنذهب!» بدا صوت الحارس غريبا، صوت متهدّج تعلوه مسحة من اللطف. فملأه ذلك بفزع داخليّ .

«وماذا عن أمتعتي؟».

«وهل قلت شيئا عن أمتعتك؟».

قادوه أسفل السلّم حتّى دون أن يضعوا له الأغلال. لم يعرف ماذا يفعل، فأخذ يعدّ الممرّات التي عبروا منها. وبينما كانوا يقتربون من الطابق الأرضيّ تعاظم شعور بالرّعب في داخله. كان السلّم يقود مباشرة إلى باب الخروج، ومن ثَمّ إلى الساحة الثالثة. فربّما تكون المقصلة جاهزة هناك من أجله. سيجرّونه إلى المنصّة، وسيدفعه إلى الأمام أحد القتلة المقرفين. لعلّه ذلك الرجل البدين صاحب الملابس المدنيّة، وسيصرخ في وجهه كي يستعدّ. الآن فقط بإمكانه تخيّل الأمر. لا يمكنه التوقّف عن تصوّر زوج من يدَين ضخمتين ومشعّرتين وساديّتين تطبقان على حنجرته. يمكنه على الأقلّ عضّهما وركل الساديّ اللعين على خصيتَيه، وعندها سيقفزان فوقه كما فعلوا مرّات عديدة لكنّ هذه المرّة ستكون الأخيرة. يوجد دومًا ما يكفي منهم ليتغلّبوا عليه. بعدئذٍ لا شيء في الكون يمكن أن يحول بين تينك اليدين المقرفتين وربط حبل المشنقة حول رقبته .

كان العرق يتصبّب من جبينه، وقميصه يغرق في العرق. ألن يقدّموا له حتّى فطور صباح أخير؟ ألن يسمحوا له بتدخين آخر سيجارة؟

تجاوزوا باب الخروج إلى الساحة، ثمّ نزلوا بتثاقُل على السلّم نحو الطابق الأرضيّ. وكان يفكّر بينه وبين نفسه أنّهم لو زجّوا به داخل مخزن فسيقبل ذلك بهدوء، فأيّ مكان قد يأخذونه إليه سيكون أفضل من المشنقة التي ستضع نهاية لكلّ شيء. مرّوا أمام صفّ من الأبواب

المقفلة حتّى وصلوا إلى باب مفتوح. في الدّاخل أحضر له حارس بجبين أشبه بالقرد ملابس مدنيّة وأمره بتغيير ملابسه. ثمّ اقتادوه إلى أسفل عبر مزيد من الممرّات نحو محلّ للحلاقة. هناك علّق له رجل يرتدي ملابس عمل بيضاء رداءً من الورق تحت رقبته وفرك له وجهه بالصابون، ثمّ مرّر شفرة حلاقة عليه مرّتين. كان يمسك ذقنه بإحكام فبدا في لحظة مّا أنّ كلّ ما كان على الحلّاق فعله هو تمرير موسى الحلاقة على رقبته بسرعة وقطعها مرّة واحدة، وهكذا ينتهي كلّ شيء... لكنّه لم يفعل. شفط له الحلّاق وجهه بالماء بل ورشّ عليه أيضا بعض العطر، فأصبحوا مستعدّين للذهاب بعد ذلك.

لماذا لم يتساءل يوما عن الطريقة التي سيمارسون بها خدعتهم القذرة والأخيرة؟ ربّما كان سيدرك حينها أنّ متعة أولاد الحرام هؤلاء ستفسد إذا رأوْا سجينا يتمايل وسط سروال مليء بالبراز ومعطف ثقيل وملطّخ بالقيء. لذلك فهم يزيّنونه كما لو أنّه ذاهب إلى حفل زفاف. أخيرا وفي نهاية الممرّ، وضعوا الأغلال عليه. انسحب باب ذو ألواح متشابكة إلى الخلف، فوجد نفسه في الساحة الأولى حيث يقف شرطيّان وشاحنة سجن مطليّة باللونين الأصفر والأبيض رابضة هناك وجاهزة للانطلاق. رافقه الشرطيّان إلى العربة، لكن قبل أن يزجّا به داخلها، اندفع رجل بملابس مدنيّة وكان يحرّك يديه بانفعال وأسرّ بشيء إلى الرجل البدين الذي اتّجه بعد ذلك نحو السائق وأمره بالانطلاق نحو الجحيم هو وجحر الأرانب الموجود فوق العجلات.

لقد تركاه حينئذٍ واقفا هناك، ولم يكن قادرا على الاحتمال أكثر من

ذلك، فالتفت إلى أحد مرافقَيْه وسأله إلى أين يأخذونه. كان يعلم أنّه لن يحصل على إجابة، لكن حتّى لو صرخ في وجهه فإنّ ذلك سيبعث في نفسه بعض الراحة. غير أنّه لم يحدث شيء .بل ظلّا صامتيْن وأصمّيْن عن سماع أسئلته، فأصابه ذلك بمزيد من الرعب. ولو بدآ بضربه الآن، لما وجد حتّى القوّة للدفاع عن نفسه ولكان سيعوي مثل كلب يغرق في نهر فائض.

توقّفت أمامهم سيّارة ليموزين سوداء. صعد الرجل البدين إلى جوار السائق وحُشر هو في الكرسيّ الخلفيّ بين المرافقَيْن، ثمّ انطلقوا. فُتحت البوّابة، وسرعان ما وجدوا أنفسهم على الطريق المفتوحة.

لم يكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذي يأخذونه إليه. لماذا يهدرون الوقود؟ لعلّ المقصلة في مكان آخر أو قد يكون أحد الساديّين اللعينين الذين سيعدمونه لا يرغب في قطع كلّ هذه الطريق إلى هنا، لذلك فقد أرسلوا سيّارة الليموزين هذه لأخذه. إنّهم يقدّمون له رحلته الأخيرة بدلًا من إطعامه وجبته الأخيرة. إذا كانت هذه رحلته الأخيرة فهي أيضا فرصته الأخيرة للهرب. ليته فقط يستطيع الخروج من السيّارة، وعندئذٍ سيتدبّر أمر الباقي.

أعمته الفكرة مثل وميض البرق، وكان عليه أن يحبس أنفاسه حتّى لا يصرخ. فهو يعلم أنّه ينبغي عليه ألّا يتحرّك أو يصدر صوتا وإلّا فسينتابهم الخوف وسيقيّدون يدَيه بيدَيْ مرافقَيْه. لذلك فقد تظاهر بالنوم، بينما ظلّ يشاهد من بين جفنيه نصف المغلقين السيّارات القادمة من الاتّجاه المعاكس وأسطح المنازل وأبراج الكنائس العابرة.

إنّهم يقودون بسرعة تسعين ميلا في السّاعة. سيكون ذلك كافيا لطحنهم وتحويلهم إلى لحم مفروم لكنّه غير مكترث، فلا شيء لديه ليخسره.

تدرّب في ذهنه على الحركة مرّات عديدة حتّى أصبح متأكّدا من قدرته على تنفيذها. ها قد خرجوا للتوّ من الغابة مقتربين من بلدة صغيرة. كم يتمنّى ألّا تكون هذه وجهتهم فلا يستطيع تأجيل الخطّة أكثر من ذلك. ثمّ إنّه ينبغي ألّا يكون انتقائيّا جدّا، فلا وقت لديه للتردّد وإلّا سيأخذونه إلى مكان لم يسبق لسجين الفرار منه قطّ. توغّلوا داخل البلدة ثمّ وسط الريف من جديد فبدا بمثابة مشهد من فيلم بأحواض مزارع برّاقة تحت أشعّة الشمس ومحاطة بالأشجار. ساد الهدوء فلم يكن يُسمع سوى هدير السيّارة أسفل التلّ عبر منطقة غابيّة. أمّا مرافقاه فقد اكتفيا من حين إلى آخر بإلقاء نظرة عليه فحسب. في الأسفل كان بوسعه رؤية السيّارة تنعطف نحو اليسار لكنّه ليس منعطفا حادّا ومن المحتمل ألّا يحتاج السائق إلى استخدام الفرامل لتخفيض السرعة. لذلك فكلّ ما عليه فعله هو اختيار اللحظة المناسبة. كان نور الشمس يشعّ وسط الأشجار وثمّة شاحنة ضخمة تتوجّه نحوهم. شعر بجفاف في حلقه، فأيّ أمل لديه والسيّارة تسير بهذه السرعة؟ ذكّر نفسه بأنّه لا يملك شيئا يخسره. ألقى بنفسه إلى الأمام بكلّ قوّته. وكلاعب كرة قدم يقفز ليسدّد هدفا بضربة رأسيّة، وجّه إلى السائق ضربة رأسيّة من الخلف. فسمع صرخة ألم وبعض الشتائم وشعر بأحدهم يسحبه إلى الخلف ثمّ يفلت قبضته وتزايد الصراخ. سقط أرضا وشعر بعجز في يديه فاعتمد على

ساقيه لينهض، ثمّ شعر بالسيّارة تحيد عن الطريق، وعندئذٍ أدرك تأثير ما يحدث لأوّل مرّة وبدأ هو أيضا بالصراخ دون أن يعرف هل كان ذلك بسبب الخوف أم بسبب الفرح. انقلبت السيّارة وسُمع صوت اصطدام. فجأة أغرقت الظلمة عينيه عندما سمع تحطّم الزجاج وصرخات الرعب والألم.

حاول رفع رأسه، فاخترق الظلمةَ ضوءٌ دائريّ ومائل إلى الحمرة، وكان بإمكانه رؤية الشكل الضبابيّ للأشياء والناس قبل أن يتّضح أكثر فأكثر. كان أحد المرافقَيْن يرزح تحت ثقل الباب الملتوي في المقعد بعد أن تحطّم إطاره. أمّا المرافق الثاني فقد حدّق فيه بعينين ميّتتين تطلّان من وجه تكسوه الدماء. بيدَين ما تزالان مقيّدتيْن بالأغلال خلف ظهره تمكّن من النهوض والانتقال إلى فتحة بين الباب وإطاره. شاهد السائق ينثني وقد غمرته الدماء على جثّة الرجل البدين لكنّه لا يملك الوقت للتفكير في ذلك. حشر نفسه عبر الفتحة، وخرج من السيّارة، وخطا أولى خطواته بحرّيّة. شعر بوخز من الألم في ساقه اليسرى. بالتأكيد لن تخذله ساقه اللعينة، ليس الآن وهو في أمسّ الحاجة إليها. كانت هناك سيّارة قادمة على الطريق ومن المحتمل أن تتوقّف. ينبغي ألّا يرى أحدٌ يدَيه المقيّدتين، لذلك فقد حاول الهرب. لكنّه أمر مستحيل. فهو يشعر بألم في صدره وقد تكون ساقه تحطّمت. دارت عجلات من نار أمام عينيه وانهمرت الدماء على وجهه الذي يُحتمَل أن يكون مشوّها دون أن يستطيع حتّى مسحه، لكنّه على الأقلّ يمكنه الحركة، على عكس أولئك الأوغاد. ورغم ذلك فقد حاول الهرب وظلّ يركض وهو يئنّ من الألم بصوت خافت.

لم يكن لديه إحساس بالوقت، لكن عندما نظر حوله أخيرًا لم يجد الطريق. ركع على ركبتيه ومسح رأسه على طبقة كثيفة من الطحالب مثل حيوان برّيّ. عندما نهض من جديد كانت الطحالب ملطّخة بالدماء.

كان يستطيع سماع دويّ صفّارة إنذار في البعيد. قد تكون مجرّد سيّارة إسعاف، لكن يمكن أن تكون الشرطة أيضا. سيجلبون الكلاب، ثمّ كم سيتطلّب من الوقت حتّى يتعقّبوا رائحته؟

شرع في الركض من جديد وهو يعرج متعثّرا وقد اشتدّ به ألم حادّ. كلّ شيء يتوقّف على سرعة تفطّنهم إلى هربه وطول المسافة التي يكون قد قطعها عندما يحدث ذلك.

لم تكن الغابة عميقة، وسرعان ما وجد نفسه في حقل من القمح يغمره الضياء. كان الحقل ينحدر في اتجاه وادٍ، وكان يستطيع رؤية أسطح عديدة رطبة ومتلألئة من هناك. قطع ذلك الحقل وهو يعرج، فلعلّ من الأفضل الاختباء وسط سنابل القمح. لكن ماداموا لم يكتشفوا أمره بعدُ فعليه الابتعاد أكثر ما يمكن. تراءى له أوّل بيت خلف البستان فنظر حوله بحذر. وحسب ما رأى، لم يكن أحدٌ يتجوّل في الخارج في هذا الصباح القائظ عدا بعض الكلاب التي تنبح بكسل.

مرّ أمام ثلاثة بيوت، وفي باحة البيت الرابع كان ثمّة فتى بشعر فاتح اللون يجثو فوق درّاجة هوائيّة مفكّكة.

صاح فيه مناديا ووجهه يتلوّى من الألم.

نظر الفتى حوله ثمّ فغر فاه، لم تكن سنّه تتجاوز الثانية عشرة.

«هل أنت بمفردك؟».

نهض الفتى على قدميه وقال: «ماذا هنا؟» ثمّ خطا بحذرٍ بضع خطوات إلى الخلف نحو الباب. «ماذا تريد؟».

«ألا ترى أنّني أحتاج إلى المساعدة؟».

توقّف الفتى وقال: «أجل، أستطيع رؤية ذلك، هل وقعت؟».

«أجل. هل أنت بمفردك؟»

نظر الفتى حوله في هلع: «أنا والكلب. ماذا لديك خلف ظهرك؟».

التفت كي يري الصبي: «إنّهما يداي فقط. انظر، لن أؤذيك، لا أريد غير المساعدة».

نادى الفتى على الكلب الذي كان هجينا وأعرج وعجوزا، ومن الصعب أن يؤذي حتّى دجاجة. اتّجها كلاهما صوب البوابة: «هل هربت؟».

«عليك أن تساعدني...»، كانت كلّ كلمة ينطق بها تسبّب له الألم، وكان فمه جافّا فلا يكاد يحرّك لسانه .

«إنّ لدى أخي موقد لحام في كوخ التخزين»، قال الصبيّ وأقفل البوّابة.

كان الكوخ في الداخل مظلما وباردا وتنبعث منه رائحة التبن. ليته كان يستطيع التمدّد هناك. سارع الفتى بفكّ السلك الكهربائيّ ووضع النظّارة الواقية ثمّ أوقد الشعلة وقال: «هل يطاردونك؟».

«أغلق فمك واشرع في عملك». ثمّ فكّر من جديد وقال: «إذا مرّوا من هنا وبدؤوا بطرح الأسئلة فأنت لم ترني قطّ ولا تعرف أيّ شيء عنّي». باعد بين معصميه بقدر ما يستطيع لكنّه مع ذلك كان يشعر بحرارة اللهب.

«لا يمكنهم فعل أيّ شيء لك فقد تجاوزت الخامسة عشرة ورغم ذلك فأنت لم ترني قطّ وإذا استمرّوا في الضغط عليك، قل إنّك كنت في الداخل». بدأت الأغلال تصبح ساخنة لكنّه كزّ على أسنانه واستمرّ يُبعد معصميه أحدهما عن الآخر.

قال الفتى: «حسنا، ماذا فعلت؟».

«من الأفضل لك ألّا تعرف لكنّني بريء». في تلك اللّحظة انفصلت يداه إحداهما عن الأخرى وبقيت الأصفاد الحديديّة معلّقة على معصميه لكن يمكنه التخلّص منها لو يناوله الصبيّ قطعة من السلك أو مطواة.

«هل تريد أن تغتسل؟».

عندما بلغ حوض الاغتسال بدأ أوّلا بشرب الماء مبتلعا منه جرعات كبيرة. عندها فقط نظر إلى وجهه في المرآة فلم يكد يتعرّف على نفسه. كان شعره ملبّدا بالدماء وخدّه الأيمن وشفته العليا منتفخين وعلى خدّه الأيسر لاح جرحٌ كان قد تسبّب له فيه زجاج السيّارة المكسور.

قال الفتى الذي كان يقف وراءه: «كان أخي في السجن أيضا، فقد هرب من الخدمة العسكريّة».

بلّل يديه بالماء، ثمّ مرّرهما بحذر على وجهه قائلا: «تذكّر أنّك لم ترني مطلقا».

وضع رأسه تحت الحنفيّة فجعلت لسعة الماء البارد عينيه تدمعان. ثمّ مدّ يده إلى المنشفة لكنّه قرّر العدول عن ذلك واكتفى بشرب الماء من جديد.

في الأثناء أحضر الفتى لنفسه فطيرة كبيرة. لو طلب منه القليل منها، يمكنه أيضا طلب بعض المال لكن ربّما ينبغي عليه ألّا يضيّع مزيدا من الوقت هناك. فإمكانه دائما الحصول على المال. عَبَرَ الباحة وهو يعرج في اتّجاه البوّابة.

عليه أن يبتعد عن هذه القرية بأسرع وقت ممكن، وربّما سيحاول العثور على سيّارة رغم أنّهم لا شكّ سدّوا كلّ الطرق الرئيسيّة .

عبر كامل السياج وهو يعرج بساقه خافضا رأسه، لكن لم يكن هناك أحد. فإمّا أنّ الناس الآن منغمسون في العمل بمكان مّا أو يحتسون البيرة في الحانة التي بالساحة. وأمامها كانت هناك شاحنة مركونة، لعلّه فعلا يوم حظّه. تبدو ساحة القرية مهجورة، فقد بلغ مؤخّرة الشاحنة دون أن ينتبه إليه أحد. رفع الغطاء المصنوع من قماش الخيام، فوجد صناديق مليئة بالقوارير في الداخل. صدم ساقه الجريحة بباب الشاحنة الخلفيّ بينما كان يتأرجح محاولا الصعود إلى الداخل لكنّه صرّ على أسنانه ولم يُصدر أيّ صوت وسقط على ردفيه ثمّ سحب غطاء الشاحنة وأغلقه خلفه .

كانت القوارير فارغة. يبدو أنّ الحظ الجيّد لا يزال يرافقه، فهذا يعني أنّهم لن يفرغوا الحمولة حتّى يصلوا إلى مصنع البيرة. لم تكن الصناديق ثقيلة، فرتّبها بشكل يجعل نفسه محاطا بها. إذا تفطّنوا الآن

لأمر هربه فقد تأتي الشرطة في أيّ وقت بمجرّد أن يغادروا هذا المكان.

بعد ذلك سمع أصواتا، فقد رفع أحدهم غطاء الشاحنة الكتّانيّ ومرّر مزيدا من الزجاجات الفارغة إلى داخل الصندوق. ثمّ صُفقت الأبواب وأُدير المحرّك وانطلقت العربة.

ليته يعرف فقط إلى أين يذهبون، لكنّه على الأقلّ سيبتعد من هنا. فتتّسع دائرة بحثهم عنه مع مرور كلّ دقيقة. إلّا إذا كانوا سيعيدون القوارير الفارغة إلى البلدة حيث وضعوه في السيّارة ذلك الصباح. كانت الشاحنة تهتزّ على الطريق الوعرة والقوارير ترتطم بعضها ببعض. من المحتمل أن يكونوا الآن قد بدؤوا البحث عنه. فلا شكّ أنّه تمّ تبليغ الشرطة وقد يرسلون المروحيّات أيضا. لن يكون ذلك سهلا، فحال خروجه من هذه الشاحنة سيكون عليه العثور على رهينة، امرأة، على الأقلّ واحدة. ولن يكون بمثل سذاجة «ميلا» ويطلق سراحها. ولن يقوم حتّى بالتفاوض.

في تلك اللحظة بدأت الشاحنة تخفّض من سرعتها. فالتزم «روبرت» بهدوء مطلق وظلّ يصغي إلى الأصوات التي كانت تتناهى إليه عبر غطاء الشاحنة القماشيّ .

«أوراق السيّارة أيّها السائق.

من أين أنت قادم؟ وماذا تحمل؟ هل رأيت رجلا يرتدي بذلة سوداء، ولعلّه مصاب بجروح خطيرة، ويداه مغلولتان؟».

تمتم وكتب إجابة مّا.

تمّنى في داخله ألّا تكون بصحبتهم تلك الكلاب المدرّبة، لكن حتّى لو كانت بصحبتهم فهو يشكّ أن تستطيع التقاط رائحته وسط رائحة البيرة القويّة.

اخترق شعاع من الضوء مخبأه في صندوق الشاحنة، فلا شكّ أنّهم رفعوا الغطاء الكتّانيّ .

مازال المحرّك يدور وهو أمر جيّد لأنّ ذلك سيحجب صوت تنفّسه. دقّ أحدهم على جانب الشاحنة محرّكًا أحد الصناديق، ثمّ ساد الصمت. لعلّهم لا يرغبون في نقلها كلّها. إنّه يعرف بما يكفي كم هم أوغاد كسالى. فهم لا يهتمّون ما لم يكن بصحبتهم جمع من المساجين يفعلون ذلك من أجلهم.

انطلقت الشاحنة من جديد. فبدأ يصدّق أنّه سينجح في الخروج من هنا، ومن هذه الورطة، ومن هذا البلد البائس. عليه فقط أن يكون صارما، بلا رحمة ودون تفاوض.

إنّهم يتحرّكون بسرعة الآن، فمن الواضح أنّ السائق في عجلة من أمره. بعد ذلك بدأت الشاحنة تتباطأ وتهتزّ فوق أرضيّة من الحصى، ثمّ توقّفت تمامًا. سمع أصواتا وصرير بوّابة تُفتَح، ثمّ تقدّمت الشاحنة بعض إنشات وصدر صوت خشخشة من المحرّك ثمّ توقّف. صُفقت الأبواب وقفز أحدهم على الأرض. يجب أن يبقى على أهبة الاستعداد، فحالما يبدؤون بإنزال حمولة القوارير، عليه أن يجد طريقة للخروج من هنا دون أن يراه أحدٌ. لكن ماذا لو لم يستطع؟ نهض وكان لا يزال

متخفّيا وراء حاجز من الصناديق. حاول ثني ذراعَيه وساقَيه، ثمّ سحب زجاجة فارغة من صفّ الصناديق العلويّ وأحكم قبضته عليها وظلّ ينتظر.

لكنّ أحدا لم يأت. وكان بوسعه سماع صوت امرأة في مكان مّا بالجوار وأحد الأشخاص يجرّ شيئا معدنيّا على الحصى ويصفّر. ثمّ عمّ الهدوء من جديد. ربّما هو بصدد إهدار وقت ثمين هنا الآن. وضع الزجاجة أرضا بأسرع ما أمكنه ذلك وبدأ ينقل الصناديق إلى جانب واحد. زحف خارج مخبئه ورفع بحذر حافّة الغطاء الكتّانيّ.

كانت الشاحنة تستند على منحدر بأبواب خشبيّة يُستخدَم لتفريغ البضاعة. أمام الأبواب كان ثمّة كومة عالية من نوع الصناديق التي احتمى وراءها في العربة. قفز بحذر على منحدر التحميل ونظر من خلف الشاحنة. فوجد نفسه في ساحة مرصوفة بها سكّة حديديّة مُعَدّة من أجل قاطرة تشقّ وسط الساحة. وكانت البنايات المصنوعة من الآجرّ تطغى على الساحة من الطرفين. أمّا الطرف الثالث فيتمثّل في جدار حجريّ ذي مدخل. فبدا له أنّ الطرف الرابع هو أفضل مكان للاختباء بما أنّ به عددًا قليلًا فقط من المباني المتكوّنة من طابق واحد، وهي مبانٍ من الواضح أنّها تُستخدَم كمستودعات. لم يكن بوسعه رؤية أحد هناك فلا شكّ أن ساعات العمل قد انتهت. زحف بحذر على طول منحدر التحميل في اتّجاه المباني الواطئة. وعندما تجاوز آخر مبنًى، وصل إلى منطقة مفتوحة يستخدمونها ساحةً للخردة. كانت مليئة بالمكنات الصدئة والأنابيب القديمة ورزم من الأسلاك وأكوام من علب الصفيح الفارغة والبراميل المستعملة وحتّى بعض عربات البيرة القديمة والعفنة.

خلف هذه الأشياء، كان هناك جدار تكسوه النباتات، كان خفيضا بما يكفي لتسلّقه. وعلى مسافة أبعد من الحائط توجد ثلاثة مبانٍ سكنيّة، وهو أفضل موقع يمكن رؤيته منه.

وجد قطعا عديدة من الأسلاك والمسامير على كومة من النفايات، ثمّ حشر نفسه تحت إحدى العربات القديمة. هنا سيكون من الصعب أن يعثر عليه أيّ أحد لا يحسن النّظر أو لا يملك كلبًا. أمّا بخصوص القيود التي تكبّل معصميه فيمكنه نزعها عندما يجد الوقت لذلك .

بدأ بفحص القفل الموجود على الأغلال. فقد تمكّن في السابق من فتح أقفال أخرى. حتّى عندما كان في ملجإ الأطفال كان مصرّا على ألّا يصبح عاملا في مناجم الأورانيوم أو عامل بناء. لقد هدّدوه وتملّقوه لحثّه على ذلك ثمّ في النهاية تراجعوا وتركوه يتدرّب ليصبح صانع أقفال. لقد تعلّم حينئذ أنّ على المرء أن يعرف ماذا يريد وألّا يسمح لأحد بالوقوف في طريقه.

طقطق نابض القفل فنزع عن معصميه العلامة البشعة الدالّة على أنّه كان في السجن، ثمّ تسلّل من تحت العربة وتوجّه إلى كومة الخردة وألقى بالأغلال في برميل قديم .

إنّه لا يخشى العمل. فلو كان يقيم في بلد محترم لأمكنه أن يفتح فيه ورشة خاصّة به، وسيكون سعيدا بالعمل في مناوبة لمدّة اثنتي عشرة ساعة كلّ يوم وسيكون رئيس نفسه في العمل وليس خادما لأيّ أحد آخر. وبين فينة وأخرى سيغلق المشروع شهرًا مثلا ويعثر على فتاة شابّة ولطيفة لينطلقا معًا إلى مكان مّا يعاملونه فيه معاملة سيّد.

عاد إلى حيث كان، أسفل العربة، وسحب من جيبه قطعة فطيرة مسطّحة فيها شيء من العفن. لقد بدأ الظلام يهبط. أين هم الآن؟ فليس هناك أيّ أثر لهم. لقد استطاع التملّص منهم. لو كان يملك بعض الطعام لاحتمى هنا في هذا المكان بعض أيّام. وفي الأثناء ستيأس الشرطة من العثور عليه وسيدركون أنّهم فقدوا أثره. ستبدأ ساقه في التعافي، وستنمو لحيته. وحالما يشتري لنفسه ثيابا جديدة، لن يتعرّف عليه أولئك الأوغاد المتغطرسون البذيئون، حتّى لو أشار إلى سيّاراتهم في الطريق أو أقلّوه معهم لتوصيله. لكن لا شيء هنا سوى مسامير مغسولة بالبيرة الفاسدة. وغدا صباحا سيبدأ الناس بالتوجّه إلى عملهم. لهذا فحتّى ذلك الوقت ينبغي عليه أن يكون قد غادر إلى مكان آخر. إنّ فرصته الوحيدة هي أن يجد بيتا عاديّا حيث يمكنه البقاء يوما أو يومين بمفرده أو من الأفضل أن يكون بصحبة رهينة. أمّا الآن فهو يملك بعض الوقت ليصيب قسطا من الراحة.

تمدّد على ظهره وحدّق في أسفل العربة. كانت هناك كتلة من الطّين تتدلّى من الألواح المغطّاة بالوحل. أغمض عينيه وحاول تجاهل الألم في ساقه. بدا له كما لو أنّ العربة بدأت بالتحليق فوقه قليلا حتّى بدأت أرضيّة السيّارة تصبح شفّافة وقابلة للاختراق. فشقّها وارتفع بلطف فوق الأرض وبدأ يحلّق عاليا، عاليا مثل طائرة ورقيّة. عندما يصبح مرتفعا إلى حدّ يجعل حتّى أكثر العيون حدّة في البصر غير قادرة على تبيُّنه، سيركب الريح ويحلّق غربا حتّى يشعر بذلك الخطّ اللعين تحته والمحدَّد بالأسلاك الشائكة، الخيط الذي من المستحيل عبوره على الأرض.

الفصل الثالث

(1)

كانت نُدَف الثلج تلتفّ في الهواء لتتحوّل إلى ماء حالما تلامس ثياب الناس. كان الحشد كثيفًا بشكل لا يدع ندفة ثلج واحدة تقريبا تبلغ الأرض. وكان «بافل» يشقّ طريقه وسط الناس حاملا كاميرته على كتفه حتّى بلغ تمثال القدّيس الراعي للبلد. لقد علّقوا فوقه أعلاما وأحاطوه بالزهور والشموع الموقدة وألصقوا لافتات على قاعدته تطالب بانتخابات حرّة وبالديمقراطية وبنهاية حكم الحزب الواحد وبالحوار وحريّة التعبير والمعلومة وبتفكيك الميليشيات الشعبيّة والتضامن مع الطلبة وبإضراب عامّ وباستقالة الحكومة. منذ أيّام قليلة فحسب لم يكن أحدٌ يجرؤ على التعبير عن واحد فقط من هذه المطالب فما بالك بكتابتها ونشرها في قلب المدينة. وحتّى لو تجاسر أحد على فعل ذلك، لاختفت الملصقات قبل أن يتسنّى لأحد الاطّلاع عليها.

كانت المظاهرات مستمرّة منذ خمسة أيّام إلى حدّ الآن. في اليوم الأوّل هاجمت الشرطة مسيرة طلّاب بشراسة فأصابوا الكثير من

المشاركين في المسيرة والمتفرّجين بجروح. لم يكن هو ولا أيّ أحد آخر يعرف كم جُرِحَ منهم حقّا. فالتقارير الرسميّة لا مصداقيّة لها ثمّ إنّ الكثير من الجرحى كانوا يخشون طلب العلاج، والأطبّاء يفضّلون عدم الكشف عن عدد الذين عالجوهم. فإمّا أنّ وحشيّة البوليس قد فاقت طاقة التحمّل أو أنّ النظام الحاليّ جاء ببساطة دون أن يلاحظه أحد. أعلن الطلّاب إضرابا وانضمّ إليهم الممثّلون ودعمهم كلّ الذين يعرفهم بافل من المظاهرات السابقة. وهذه المرّة يتمّ دعمهم هم أيضا من طرف كلّ أولئك الذي التزموا الصمت حتّى هذه اللحظة. كان هناك كثيرون منهم إلى حدّ لا يمكن تفريقهم إلّا بإطلاق الرصاص عليهم.

كان يراقب باندهاش أو بالأحرى بارتياب هذا التحوّل الغريب لدى أولئك الذين كان يقع إلى وقت قريب إغراقهم بخراطيم المياه والآن ها هم يخاطبون الحشود المتجمهرة وأولئك الذين حتّى عهد قريب، كانوا يُسكَتون ويُرضَخون والآن يهتفون ويرفعون قبضاتهم وإشارات النصر ويحرّكون مفاتيحهم فتحدث قعقعة إيذانا بالنصر.

ما النصر؟

إنّه الأمل الزائف بدوام الحلم. وهو الرقصة المجنونة لأولئك الموشكين على الموت على قبور الميّتين لتوّهم. إنّه حالة تغرق فيها صرخات الفرح وسط نحيب الضحايا وبكائهم.

على وجوه الناس، رأى نشوة نادرا ما شهدها في السابق.

بحث حوله عن الوجوه المألوفة لكنّه لم يتكمّن من رؤيتها. فالناس

الذين تعجّ بهم الساحة الآن كانوا قد تدفّقوا بأعداد كبيرة من أماكن لم يزرها قطّ. كانوا أناسا غرباء، لكنّه وجد حماسهم مُعْديا إلى حدٍّ جعله مضطرّا إلى تذكير نفسه بأنّه هنا لتسجيل الحدث وليس للانضمام إليه. إذا كان ثمّة ما يثير حماسه فلا بدّ أنّه احتمال أن يصل ما يصوّره إلى مشاهدي التلفزيون. خلال اليومين السابقين، قام «بافل» بجولة في المكان رفقة «سوكول» الذي تحوّل فجأة إلى رجل عمليّ. شقّ طريقه وسط المدارس المضربة يطرح على الناس أسئلة بلا كلل دون أن يشكّك في إجاباتهم كما كان يفعل دائما في الماضي.

وها هو «سوكول» الآن يدفع بالميكروفون في وجه امرأة عجوز بدينة. فلعلّ اختياره وقع، بشكل لا واعٍ، على نوع من الناس كان يختار استجوابهم في احتفالات عيد العمّال كلّ سنة. سألها: «ماذا تعملين؟».

«أشتغل في مزرعة تعاونيّة».

«عظيم، وماذا تشتغلين بالضبط هناك؟».

«أحلب البقر».

«إذَن فقد جئت من مكان بعيد؟».

«لديّ ابنة تدرس هنا، ليس من حقّهم أن يَضربوا الأطفال».

تجمّع الناس حولهما للاستماع.

«يكفيهم ضربهم إيّانا. لقد سحبوا والدي من مناجم الأورانيوم. هل تعرف لماذا؟» كانت تتأهّب للانطلاق في سرد قصّة حياتها. لكنّ الآن ليس وقت قصص الحياة. وجّه «بافل» كاميرته نحو الحشد وكان

هناك طفل صغير يجلس على كتفَيْ رجل ويلوّح بعلم.

وكان بوسعه سماع الهتافات أسفل السّاحة: «نريد الحقيقة! نريد الحقيقة!».

وقد هتف الطفل أيضا بشيء مّا، غير أنّ صوته ضاع وسط موجة الأصوات الأخرى لكن يبدو أنّه سينضمّ إلى ترديد الهتافات.

ما الحقيقة؟

أدار «سوكول» الآن الميكروفون نحو رجل شابّ يرتدي بذلة عمل زرقاء.

كان الاعتقاد السائد إلى حدّ الآن أنّ الحقيقة هي ما وُجد في جيوب بذلات العمّال وتحت خوذ عمّال المناجم وفي القفّازات الثقيلة لعمّال الصلب والحديد.

أعلن الشابّ أن زملاءه في مكان عمله بالمصنع يدعمون الطلّاب وأنّه جاء إلى هنا للتظاهر من أجل الاشتراكيّة الحقيقيّة.

ما الذي فهمه من خلال ذلك؟

إنّهم يطالبون بالعدالة والانتخابات الحرّة وألّا يَضرب البوليين الناس الأبرياء، وكذا بالحقّ في السفر.

انتهت المظاهرات تقريبا. وبينما كان عائدا بكاميرته إلى البيت رأى أخيرا وجها مألوفا وابتسم ابتسامة واسعة: «آليس، ماذا تفعلين هنا؟».

«بالتأكيد لم تكن تتوقّع منّي أن ألزم البيت في وقت كهذا؟».

سارا معا على طول الساحة وكان الحشد قد بدأ يتقلّص .

«هل تذكرين تلك المرّة، منذ زمن طويل، هنا بالضبط... عندما التقينا أوّل مرّة؟».

«أجل. حينذاك كان الأمل مفقودا أكثر من الآن بكثير. كان ذلك الزمن بداية العتمة».

«هل تظنّين أنّ الضوء آتٍ الآن؟».

«ألا تعتقد ذلك؟».

هزّ كتفيه غير عابئ بذلك ثم قال: «ليس لديّ الآن الوقت تقريبا للتفكير. نحن نصوّر منذ الصباح الباكر حتّى حلول الليل. في الواقع، لم أتناول شيئا منذ فطور الصباح».

وضعت ذراعها في ذراعه تماما مثلما كانت تفعل منذ واحد وعشرين سنة، باستثناء أنّهم، في ذلك الوقت، كانوا ثلاثة.

وجدا طاولة فارغة في مطعم صغير تماما أسفل الساحة. كان ثمّة جهاز تلفاز في زاوية الحجرة ما يزال يبثّ المظاهرة. قالت وهي تشير إلى جهاز التلفاز: «لقد أنجزت عملا عظيما، فالناس الذين لم يتمكّنوا من المجيء إلى المدينة سيطّلعون على ما يجري».

«هل تركت بيتر في القصر؟».

«لم أره منذ ثلاثة أيّام تقريبا. لقد تبخّر ببساطة. إنّه يحضر اجتماعات

في مكان ما». لم يكن يبدو عليها القلق عند الحديث عنه.

«ماذا عن الأطفال؟».

«إنّهم مع جدّتهم. فنحن نتناوب في الاعتناء بهم والآن جاء دورها للقدوم إلى هنا غدا».

«أنت مسؤولة بشكل كبير عن ذلك».

قالت: «لكن ثمّة أشياء كثيرة على المحكّ، وذلك بخصوص كيفيّة عيشنا من هنا فصاعدا. فإذا خسرنا الآن، سنخسر الفرصة للسنوات القادمة. ألا ترى الأمر بهذه الصورة؟».

«أخبرتك أن لا وقت لديّ للتفكير».

«أنت تختلق الأعذار يا بافل».

«أنت قلت «إذا خسرنا» من «نحن»؟».

«نحن تعني جميعنا، أليس كذلك؟».

«لا يمكن لجميع الناس أن يخسروا طوال الوقت ولا أن يربحوا طوال الوقت أيضا».

«لم يخطر لي البتّة أن أنظر إلى الأمر بهذا الشكل».

«لست أنظر إليه بأيّ طريقة. أريد فقط أن أقول إنّه في العادة يربح بعض الناس ويخسر آخرون. ويتّضح أحيانا أنّ أولئك الذين يخسرون هم الذين يظنّون أنّهم ربحوا، والعكس صحيح».

«أنت موضوعيّ بشكل مقرف حيال هذا الأمر أو على الأقلّ أنت

تدّعي ذلك. ألا يهمّك أيّ من هذا؟».

وضع النادل كأسين من النبيذ على الطاولة. فسألها بافل: «هل ستغادرون قصركم الآن؟».

«ربّما. إذا نجح كلّ هذا. لكن حتّى أُصْدقك القول، لا يمكنني تخيّل الرحيل. لكن على أيّة حال، لقد طرحت عليك سؤالا: ماذا عنك؟».

لماذا تسأل؟ هل تفعل ذلك بدافع الاهتمام به؟ أو بالأحرى بدافع ذلك الإحساس بالتشفّي واللذّة الخبيثة لأنّ دوره حان الآن حتّى يعاني هو أيضا من أجل التغيير؟

«أنا قلق جدّا. هل تظنّين أنّني أرغب في العمل بحرّيّة؟ ما لا أعرفه هو: هل سيتسنّى لي العمل بحرّيّة إذا أصبحت الأمور على ما يرام؟».

«هل تظنّ أنّك فقدت موهبتك؟»

«آمل ألّا يكون ذلك قد حدث. لكن ماذا لو قرّر الفائزون حشري ضمن الخاسرين؟ ما الذي بوسعي فعله عندئذ؟».

«هراء، في النهاية ستفعل ما تتقن فعله، وستفعله بالطريقة التي أردتها».

ربّما كانت، في النهاية، مهتمّة به حقّا.

«ليتك، ليتك فقط كنت أنت من تتّخذين القرارات». توقّف لحظة ثم أضاف: «سيكون ذلك جميلا. لكن شخصيّا، لا أكاد أتخيّل ذلك،

ولم أفكّر حتّى في الأمر كثيرا. فليس من عادتي التفكير في ما سيأتي. لقد أمضيت وقتا طويلا غارقا في الحاضر. كان الأمر أشبه بشبكة عنكبوت وفي داخلها عناكب كثيرة لا واحدة فقط. تظلّ هناك متربّصة بك في كلّ ركن من الشبكة. وبمجرّد أن تعلق هناك لا يمكنك الخلاص. لكنّهم لا يمتصّون دمك في الحال بل يلتفّون عليك داخل الشبكة ويسمحون بهذا ويصادرون ذاك، ويضغطون عليك لإظهار ما لا يجب إظهاره أو عدم إظهار شيء وجب إظهاره. سيُقحمونك في اجتماعات وجلسات إحاطة إعلاميّة وحصص تدريب سياسيّة حيث يملون عليك كيف تعمل مع أشخاص لم يسبق لهم أن اشتغلوا شيئا في حياتهم. وإذا أخبرتهم عن رأيك بهم، ستُطرَد في الحال. أحيانا أشعر أنّني لم أعد أتحمّل ذلك».

«لكنّك فعلت».

أومأ موافقا. وظلّ يبحث عن طريقة لتبرئة نفسه لديها. فشرح لها بأنّه لا يمكن تقسيم الكون بشكل واضح وجليّ بواسطة خطّ يفصل الخير عن الشرّ، ويفصله عنها. ثمّ قال وقد خطرت له ذكرى حادثة جعلته يتوصّل إلى هذه الحقيقة: «عندما كنت في مكسيكو، سنحت لنا الفرصة لرؤية أستوديو للتصوير التلفزيونيّ فعرضوا علينا تجهيزاتهم الرائعة. فقد كانت شبكتهم تُموَّل بشكل جيّد، بالإضافة إلى أنّها تقع في منطقة ثريّة. وظننّا أنّ بإمكاننا العثور على موقع قريب لنلقي نظرة على بركان پوپوكاتيپيتل. فقطعنا الطريق أعلى التلّة مارّين بفيلات مذهلة ومزارع مترفة، ثمّ فجأة، وكما لو أنّنا خطونا على حدود لامرئيّة،

وجدنا أنفسنا محاطَيْن بأكواخ مثبّتة بواسطة صناديق قديمة وألواح معدنيّة. وصلت الطريق المعبّدة فجأة إلى نهايتها وصارت الشوارع بحرا من الوحل وأطفال كثيرون يغرقون داخلها. صرخ البعض منهم مناديا، إنّهم يتسوّلون النقود، ودعتنا مراهقة هجينة إلى داخل كوخ بلا باب. ثمّ ركضت إلينا فتاة صغيرة ترتدي أسمالا رثّة. كانت لا تكاد تتجاوز الرابعة وتحمل في يدها زهرة ذابلة، زهرة أقحوان أو شيئًا كهذا، ثمّ حاولت أن تبيعنا إيّاها. حينها فقط أدركتُ أنّ المرء سيعلق في نوع من شبكة العنكبوت التي لا يمكن الفكاك منها، أينما كان».

قالت تقاطعه: «انتظر دقيقة، انظر إلى هذا».

كانوا يذيعون فيديو تصويريّا عن مظاهرة الطلبة التي انطلق منها كلّ شيء. إنّه يعرض اللّحظة التي سبقت هجوم قوّات الشرطة، كانت كتيبة من الرجال بأزياء رسميّة ودروع بلاستيكيّة تحمي وجوههم وكان هناك حشد من الطلبة يردّدون النشيد الرسميّ وفتيات يلقين بالزهور على دروع رجال الشرطة. لم يتحرّك أحد، فقد كان كلّ طرف ينتظر الآخر ليتقدّم، وكان الشباب والشابّات يجلسون على الأرض وتنتصب أمامهم على الحجارة المرصوفة شموعٌ موقدة، وهم يهتفون: أيادينا فارغة! بعد ذلك، بدأت كتيبة الشرطة في التململ والتحرّك نحو الأمام. ثمّ بدأت اللكمات المسعورة وصرخات الألم وضجيج الضربات الطاحنة والهتافات الغاضبة ودقّ الجزم على الرصيف وصراخ الذين يتعرّضون للضرب.

كانت «آليس» تنتحب. وكان الصمت مطبقا، فالجميع يشاهدون

التلفزيون. حالما انتهى العرض مسحت «آليس» عينيها وقالت بهدوء: «هذا مريع، لكنّ مجرّد عرضه يعني... أنّها بداية الحريّة». ثمّ احتضنته، وللحظة واحدة كان كلّ ما يستطيع رؤيته هما عينيها الزرقاوين الممتلئتين بالدّموع.

عندما عاد إلى مقرّ التلفزيون، ذهب رأسا الى المرآب حيث كان قد انتهى للتوّ اجتماع عاطفيّ جدّا. كانوا يتناقشون، مثلما كانوا يفعلون طوال الأيّام القليلة الفارطة، بشأن وجوب بثّ المظاهرات القادمة بثّا مباشرا من عدمه. فالإدارة مازالت ترفض السماح بذلك. وأغلب الفريق التقنيّ، كما أخبره «إيفان الصغير» عندما جلس إلى جواره، جعلوا من البثّ المباشر مطلبا غير مشروط، وإلّا فإنّهم مستعدّون للإضراب عن العمل. «هل ستقف لتقول شيئا؟».

«لا أعرف ما الذي قيل».

قال إيفان الصغير: «إنّه لمن البديهي أن نعرض البثّ المباشر. ففي نهاية المطاف، نحن نبثّ كلّ مباراة هوكي سخيفة بشكل مباشر».

أومأ «بافل» موافقا. ظلّ بعض الوقت يصغي إلى الخطابات الحماسيّة، خطابات كان يمكن أن يجدها مقنعة تماما ومعقولة لو لم يكن يلقيها الأشخاص نفسهم، أولئك الذين كانوا قبل أيّام عديدة فقط مستعدّين لقول العكس تماما. خلال النهار، عندما كان يركض من كلّيّة إلى أخرى وقد جمّده البرد في الساحة، بدا له أنّ مسار الأحداث قد تحوّل بشكل راديكاليّ إلى حدٍّ يدلّ على أنّ الأمور سارت في اتّجاه لا رجعة فيه تقريبا. لهذا السبب كان الجميع يركضون فارّين إلى الطرف

الفائز قبل فوات الأوان.

لكن من الذي سيشهد نيابة عنهم إذا ما اعتبروا كلّهم خاسرين؟

لا شهود لدينا، وليس ثمّة من نروق له. ثمّ إنّ عملنا سيوظَّف ضدّنا.

طلب الرقم المألوف لديه: «هل هذه أنت يا آلي؟ ألم تنامي بعدُ؟».

«كلّا، ليس بعد. أنا أقرأ ولا أعرف حتّى كم الساعة. هل حدث شيء؟».

«كلّا، لا شيء. أنا فقط لا أستطيع النوم».

«أنا سعيدة أنّك هاتفتني».

«أنا ممدّد هنا منذ ساعة أحدّق في السقف وأرى الخنافس تتجمّع هناك في الأعلى. إنّها في سباق. وأنا أراقبها وأراهن على هذا الخنفس الغاضب الذي سيخسر ويعضّ ساق الخنفس الذي أمامه. ثمّ أدركت أنّها ليست خنافس، بل بشر. حتّى إنّي أكاد أتعرّف على وجوههم».

«حبيبي، هل ثمّة خطب مّا؟».

«كلّا، لا شيء. إنّها مجرّد خنافس. إنّها تحاصرني».

«هل كنت تشرب؟».

«إنّها خنافس، هذه التي أراها. وليست فئرانا بيضاء».

«هل عليّ المجيء؟».

«لقد تأخّر الوقت».

«لكنّني متعوّدة على ذلك. تعرف أنّني متعوّدة على المناوبات الليليّة».

«ذاك أمر مختلف، لكنّني أرغب في رؤيتك. سآتي إلى هناك بالسيّارة وأجلبك. فعلى الأقلّ سترين أنّني لست ثملا».

«لست مضطرّا إلى القدوم إلى هنا. سأستقلّ سيّارة تاكسي».

كانت هناك خلال نصف ساعة. قبّلته وهما يقفان في الممرّ. «ألا تشعر أنّك بخير؟».

«لماذا تظنّين ذلك؟».

«أستطيع رؤية ذلك».

«أنا أفضل بكثير الآن. شعرت فجأة أنّني لا أستطيع التنفّس، لكنّه كان إحساسا خاطفا فقط».

«هل أدعو الطبيب؟».

«لا يمكنني تحمّل الأطبّاء. فالشخص الوحيد الذي يضع نفسه بين أيدي الأطبّاء هو ذاك الذي يخشى الانتحار فقط».

«إذَن عليك أن تتمدّد قليلا على الأقلّ». جعلته يبتلع حبّة دواء ثمّ وضعت كمّادة باردة على الجانب الأيسر من صدره.

قال: «لقد تراكم عليّ العمل، عليّ أن أنهيَ كلّ شيء قبل أن أذهب ولم يتبقّ من الوقت إلّا القليل».

وضعت يدها على جبينه وقالت: «لا تحدّثني عن عملك أو عن الرحيل!».

كانت يدها ناعمة ودافئة وتفوح منها رائحة أوراق الشجر .

قال: «عندما أعود سنتزوّج».

«أعلم، لكنّنا لسنا مضطرَّيْن إلى الزواج. ليس أمرا مهمّا».

«حسنا، تعالي وتمدّدي إلى جانبي».

«أفضّل الجلوس إلى جانبك».

«تمدّدي معي، أريدك أن تكوني قريبة منّي قدر الإمكان».

«تريدني قريبة قدر الإمكان، ومع ذلك ها أنت سترحل بعيدا إلى الطرف الآخر من العالم».

راقبها تخلع ثيابها. «سأذهب لشهر فقط، لكن إذا كنت لا ترغبين في ذهابي فلن أفعل».

«كلّا، لا أرغب في أيّ شيء من هذا. أنا فقط أشعر بالقلق. لكن ليس بالأمر الهامّ، إنّه وضعي».

«ليس ثمّة ما يدعو إلى الخوف. سأعود متى شئت أنت ذلك».

«لست أنت من يقرّر متى تعود. لا يمكنك الذهاب هكذا وترك البقيّة هناك».

«لطالما كنت أتّخذ قراراتي بنفسي».

«لا تكن متغطرسا هكذا. لا أحد يتّخذ قرارات تخصّه بمفرده أبدا».

«فمن الذي يتّخذها إذَن؟».

«الربّ أو الملائكة».

كان «هالاما»، رئيسه في العمل، يحذّرهم من التورّط في حالة الغضب لدى الحشود. فبالتأكيد، كلّنا نحاول تحسين ظروفنا المعيشيّة والمهنيّة والحصول على قدر أكبر من الحرّيّة، لكنّ الأسس التي يقوم عليها النّظام حاليّا في خطر-كلّ شيء اشتغلت في سبيله أجيال وأجيال، وكلّ ما لم يتردّد الشعب في إراقة دمائه من أجله.

في العادة كانت خطاباته باهتة ولها تأثير المخدّر، والآن باتت كلماته مفعمة بالعواطف. إذا واصلنا الخضوع لمطالب الجماهير، فسنعجز سريعًا عن إيقاف القوى التي أطلقت العنان لهذه الحملة بأسرها. سيجرفون الحكومة وسيجرفوننا وسيجرفون النظام برمّته وسيعودون بنا قرنا إلى الوراء. لذلك، علينا أن نهدّئ من روع الشعب وألّا نسكب البنزين على اللهب. لقد كان بثّ لقطات عن ممارسات الشرطة خطأً فادحًا. فالشرطة تتدخّل بتلك الطريقة في كلّ مكان من العالم.

فصرخ أحدهم في الغرفة أنّهم، في أيّ مكان في العالم، يعرضون ذلك في اليوم نفسه على التلفزيون.

فاعترف رئيسهم في العمل: «أجل، إنّهم يفعلون ذلك لكنّ المشاهدين في كلّ الأماكن الأخرى أكثر صلابة. فهم متعوّدون على

هذا النوع من الأشياء».

بدأ أحدهم بالتصفير في الغرفة وانضمّ إليه آخرون.

فكّر «بافل» بأنّه ما كان ينبغي عليهم أن يصفّروا بصوت عالٍ هكذا. ففي النهاية، توقّعات هالاما كانت في محلّها من وجهة نظره. إنّه يخشى على النّظام الذي مكّنه من أن يصبح رئيسا في عمله ومكّنهم كلّهم من العمل في المكان الذي يعملون به. إذا انهار ذلك النّظام، فمذيعو التلفزيون وكلّ من يقف وراءهم سيكونون أوّل من يرحل. تذكّر آليس وهي تذرف الدموع على ما بثّوه وما قالته من أنّها بداية الحريّة. لكن هل سينجو أيّ منهم من هذا النوع من الحرّيّة التي في الأجواء، هذا النوع الذي يحاول دعمه؟ من حسن حظّه أنّه متعب جدّا ليتساءل عمّا إذا كان بصدد بناء كاتدرائيّة للحرّيّة أو أنّه يحفر ببساطة قبره. حاول أن ينسلّ خارج الحجرة لكنّ «سوكول» أمسك به في الردهة وأخبره بأنّ مجلس إضراب الطلبة مازال منعقدا ويجب عليهم الذهاب إلى هناك الآن.

«سيعقدون جلسة أخرى غدًا».

«قد يفوت الأوان غدا. لا تنسَ أنّ كلّ شيء على المحكّ الآن».

لقد سبق وسمع هذا الكلام قبل هذه المرّة هذا اليوم. وفي النهاية فهو لطالما كان يتوق إلى تصوير ما يراه، أو بالأحرى ما يختبئ خلف ما يراه، بحرّيّة. فلماذا يضيع هذه الفرصة الآن وقد لا يحظى بها على مدى وقت طويل.

تقع كلّيّة المسرح في شارع يحمل اسم إمبراطور قديم كان قد ترك أثره على المدينة في الماضي. وحينها كان كلّ شيء على المحكّ أيضا. كان أمام البناية طالبان يذرعان المكان جيئة وذهابا كأنّهما حارسان لها. وكان عليهما الانتظار حتّى يُسمَح لهما بالدخول. ثمّ كان عليهما الانتظار من جديد حتّى يتمكّن أحد أعضاء المجلس من إجراء لقاء معهما. في الأثناء أحضر لهما الطلبة قهوة وطبقا مليئا بالسندويتشات. ورغم أنّ الوقت كان يشير إلى ساعة متأخّرة من ذلك المساء، فإنّ الأنوار مازالت مضاءة في كلّ الغرف والشباب يركضون منشغلين جيئة وذهابا في الممرّات وأطراف الحاسوب تومض في أحد قاعات المحاضرات. وفي قاعة أخرى هناك طالبات ينحنين على قطع كبيرة من الورق ويُعددن الملصقات. وحالما يجفّ الطلاء على الملصقات، تلفّها أخريات وتأخذنها. أُزيلت معظم المقاعد من قاعة المحاضرات الكبيرة وكان هناك شابّ يتحدّث، كان يضع نظّارتين ويبدو وجهه مألوفا، ربّما من إحدى المظاهرات. جلس الطلبة المهتمّون بالموضوع متحلّقين حوله بينما كان الآخرون قد تسلّلوا إلى داخل أكياس نوم مصفوفة على طول الجدار في عمق الحجرة.

دُعي بافل منذ سنوات عديدة ليشارك في حلقة نقاش هنا. وكان قد حاول جاهدا أن يشرح ليس تقنية العمل فقط وإنّما الفلسفة التي في خلفيّته.

الآن وفي خضمّ سباق الجرذان هذا، حيث لم يعد للناس وقت للنّظر حولهم، علينا أن نفتح أعينهم على ما يفوّتونه كلّ يوم. وهذا لا

يعني المرور السريع من صورة إلى أخرى بل الإطالة في تأمّل أشياء قد تبدو لنا اعتياديّة. ففيديوهات الموسيقى، مثلا، هي تعبيرات على العصاب الذي يغلّفنا.

أصغوا إليه ثمّ نشب بينهم جدال، فقد أحسّوا أنّه يهاجم فيديوهات الموسيقى لأنّها قادمة من العالم الذي خلف الأسلاك الشائكة. وكان قد شعر بعداء مبطّن في إجاباتهم، عداءٍ موجّه نحوه، بل أكثر من ذلك نحو العالم الذي يظنّون أنّه يمثّله.

ظهر أخيرا رجل شاحب ومنهك، إنّه ذاك الذي سيُجرون معه اللقاء. فالتقط «بافل» عن قرب صورة لوجهه وشفتيه المتحرّكتين وعينيه المائلتين إلى الحمرة. وقد بدت الكلمات التي تفوّه بها الشابّ أشبه بطنين بعيد .تحدّث عن اللّاعنف وعن عودة الأخلاق وعن الحرّيّة في الإيمان بأيّ شيء يرغب به الفرد وعن ضرورة اقتناصهم هذه الفرصة التاريخيّة التي فرضت نفسها.

ما معنى فرصة تاريخيّة؟

إنّها ببساطة لحظة يعتقد فيها الشعب أنّه نجح في عرقلة مسار التاريخ ثمّ خلق مساحة للمناورة. وسواء فعلوا ذلك حقّا أو أنهوا شيئا مّا فهذا حكم لا يمكن أن يصدره إلّا التاريخ في حدّ ذاته.

انتهى اللقاء وكان على الشابّ أن يسارع بالعودة إلى اجتماع اللجنة. قال إنّهما إذا أرادا الانتظار فسينتهي الاجتماع خلال ساعة. عندها سيعرفان المزيد.

نظر «سوكول» بريبة إلى الكاميرا مان المصاحب له.

«بالتأكيد، يمكننا البقاء هنا حتّى الصباح، إذا رأيت أنّ هذا سيكون مفيدا. فمن المؤكّد أنّ البقاء هنا أكثر إثارة للاهتمام من التزام البيت والبقاء في السرير».

عاد إلى قاعة المحاضرات الرئيسيّة حيث لا يزال الرجل صاحب النظّارتين الطبيّتين يتحدّث وقد تزايد في الأثناء عدد النائمين على البلاط. وجد مكانا شاغرا قرب الجدار فطوى معطفه ليستخدمه وسادةً وأعدّ نفسه ليتمدّد. وكانت هناك طالبة تتمدّد على يساره تراقبه فقالت له: «إذا كنت لا تملك بطّانيّة، فاذهب إلى القاعة رقم ثمانية، هناك سيقدّمون لك شيئا». كان نطقها السليم للأحرف وصوتها الرنّان يوحيان بأنّها ممثّلة صاعدة.

فقال لها: «شكرا، لكنّي لن أطيل البقاء هنا لذلك فالأمر لا يكاد يستحقّ العناء».

«إذَن يمكنك الحصول على واحدة من بطّانيّتَيّ. فلديّ اثنتان».

«شكرا لك لكنّي لا أحتاج إليها حقّا. فالمكان هنا دافئ بما يكفي».
كان يمكن أن تكون ابنته، كلّ الذين هنا كان يمكن أن يكونوا أبناءه. ماذا كان لابنه أن يفعل الآن؟

«كما تريد». قالت الفتاة والتفتت لتعود إلى النوم. ملأ الغرفة ضوءٌ مزعج، وكان الهواء يفوح برائحة لاذعة للأجساد البشريّة المتعبة. لوهلة واحدة ذكّره ذلك بالليالي التي قضّاها في السجن منذ زمن

بعيد، فلم يكن ينقصها إلّا وجود الفتاة التي تنام إلى جواره وذلك المزاج الغريب والبهيج تقريبا الذي يبدو أنّه يقرّب الجميع بعضهم من بعض، بما في ذلك هو. فاجأه هذا الشعور بالتضامن، إذ لم يكن مستعدّا له. وفي الواقع لطالما كان يقاومه أو من المؤكّد أنّ ذلك حدث منذ أن أصبح واعيا بالقوانين التي تحكم الحياة في السجن .

لو لم يدخل السجن لربّما كان قد تزوّج وكان لديه الآن أطفال. لم يعلّمه السجن أنّ عليه دومًا أن يراقب ما يتفوّه به ويفعله أمام الناس فحسب، بل السجن كان أيضا السبب في أن يظلّ في تلك الفترة بعيدا عن دائرة العمل والسينما في الوقت الذي كان فيه أبناء جيله يكوّنون علاقات، ثمّ بدّد ما تبقّى من ذلك الوقت عندما أطلقوا سراحه. كان يحكمه مزيج من مشاعر الغضب والإحساس بالذنب تجاه والدته. كان أيضًا فقيرا وأراد الذهاب إلى الجامعة، لكنّ ذلك كان مستحيلا بسبب سجلّه السجنيّ. فاشتغل مرافقًا لسائقٍ ثمّ تحصّل لاحقا على عمل في مخبر للصور. ثمّ قُبِل أخيرا لمواصلة دراسته بالمراسلة. خلال تلك الفترة التقى بالكثير من النساء ومارس الحبّ مع بعضهنّ لكنّه لم يثق بأيّ منهنّ. ولم يشأ أن يؤسّس عائلة مع أيّ منهنّ. وعلى أيّة حال فقد كان لأغلبهنّ أطفال. في النهاية فقد القدرة على معرفة إذا ما كان مولعا حقّا بأيّ امرأة من اللّواتي التقى بهنّ أم لا. فبقي طفله غير مولود.

ظلّ باب قاعة المحاضرات يفتح ويغلق فتمتزج أصوات كثيرة وتتداخل. وكان الهاتف على الطرف الآخر من الجدار يرنّ دون

انقطاع فيسحبه من حافّة النوم.

قبل يوم من سفره إلى مكسيكو، ذهب صحبة «آلبينا» إلى أستوديو التصوير. كان الوقت لا يزال ما بعد الظهيرة لكنّهما خلعا ثيابهما وتمدّدا على الأريكة ومارسا الحبّ. ثمّ احتسيا النبيذ والقهوة ومارسا الحبّ مرّة أخرى، احتسيا مزيدا من القهوة وقرأت له طالعه. فرأت منحدرات وهاوية كان يبدو من المستحيل تسلّقها أو عبورها فجعلها ذلك تشعر بالحزن. لكن لحسن الحظّ، بدا لها أنّها رأت أيضا طيرا كاسرا بجناحين مفتوحين حتّى آخرهما فوق تلك الهاوية. قد يكون هو ذلك الطائر الذي قد يحلّق عبر الجبال وأبعد من ذلك، لكن هل سيعود إليها؟ ثمّ تذكّرت أنّه ذكر ذات مرّة قصّة كان يشتغل عليها ويرغب في تحويلها ذات يوم إلى فيلم. فطلبت منه أن يقصّها عليها.

لكنّه قال إنّها مجرّد فكرة أوّليّة.

«مازلت أرغب في سماعها كطريقة لقول وداعا».

«إنّها ليست قصّة يقال من خلالها وداعا».

«لمَ لا؟».

«إنّها عن شيء آخر». ثمّ طوّقها بذراعيه مضيفًا: «ولا أتذكّر أنّه سبق أن حدّثتك عنها».

«أرغب في سماعها».

«في الواقع هي ليست قصّة، إنّها مجرّد مجموعة من الصور. فأنا أستمتع بالتقاط الصور. وقد أجمّعها معا يوما مّا في شكل

قصّة وستكون مهداة إليك».

«إذَن، هيّا، أخبرني. لا تجعلني أجبرك على ذلك».

كانت تتمدّد إلى جواره، وكان بوسعه مداعبتها وملامسة نهديها وهو يتكلّم. «عمّن تتحدّث القصّة؟».

«تعلمين، حتّى الاسم لم أطلقه عليه. إنّه يسمىّ فقط «هو» وأحيانا يخطر لي أنّه بالفعل«أنا» لكنّنا بعد ذلك ننفصل من جديد، لأنّني مختلف. آسف لست واضحا بشكل كبير. هذا الشخص يمتهن النجارة مثل والدي لكنّ ذلك ليس مهمًّا، فهو ناجح وغنيّ ومشهور بمنحوتاته. ثمّ تعرّض لحادث وفقد يده اليمنى».

«كم كان عمره عندما حدث له هذا؟»

«ليس طاعنا في السنّ، لكنّه بلغ في ذلك الزمن شهرة. ولم يشأ أن يسمح لهذا بمنعه من العمل. لذلك فقد حاول النحت بيده اليسرى لكنّه عندما يفلح في إنهاء شيء مّا، يبدو كما لو أنّه أنجز من طرف شخص آخر. فيدمّره هذا الأمر ويشعر كما لو أنّه فقد نفسه».

«أليس لديه عائلة؟».

«لديه ولدان لكنّهما لا يعيشان معه. فقد أخذتهما والدتهما بعيدا عندما كانا صغيرين. بعد الحادث قَدِما لرؤيته في الأستوديو الخاصّ به حيث لديه منحوتات كثيرة، بعضها منجز وبعضها لا. وكانت ثمّة منحوتة في شكل طائر على وشك التحليق ومنحوتة أخرى لِنَمِرٍ يستعدّ للقفز. إيكاروس وبروميثوس وهما مقيّدان بالأغلال. أراد

ولداه معرفة ما سيفعله الآن. فأجابهما بألّا يقلقا، فقد فعل ما يكفي من الأشياء في حياته وهو ببساطة سيعيش حياته ويفكّر».

«لقد حاول ذلك حقّا. فتجوّل في المدينة والريف الواقع وراءها لكنّ الأشياء التي رآها تتطلّب أخذ شكل مّا وعليه أن يجيب بأنّه لا يستطيع وأنّ ذلك يشعره بالاكتئاب».

«بدأ يلزم البيت ويطرد الأشياء والأشخاص من عقله حتّى وجد نفسه في حالة من الخواء».

«وماذا عن الله؟».

«إنّه لا يؤمن بالله».

«لكنّ الله موجود».

«لا أحد يعرف ذلك. لكنّه ليس في انتظار الله. إذا كان ثمّة ما ينتظره فهو الموت، وكان ينتابه الفضول إلى صورة وجه الموت. هل سيظهر في شكل وجه امرأة تزحف حول العالم بمنجل في يدها أم سيكون في شكل شابّة جميلة تقترب منه بذراعين مفتوحتين؟».

«وذات يوم حصل على دعوة لزيارة عمٍّ قديم له يظنّ كلّ أفراد العائلة أنّه مجنون. ولم يكن لديه شيء أفضل من ذلك للقيام به، فقبل الدعوة. فهو يعيش في النهاية فراغا. إنّني أتخيّل فراغ ذلك اليوم بالذات كضباب مائل إلى الصّفرة تلوح من خلاله ملامح بيت بين فينة وأخرى. لكن فجأة، ينبثق من ذلك الضباب الأصفر غراب أسود فيقف على حافّة نافورة ويحدّق به. ثمّ ينشر جناحيه كما لو أنّهما

يستعدّان للطيران بعيدا، لكنّ ذلك لا يحدث. بل يكتفي بمراقبته من خلال عينيه الصغيرتين والذكيتين بينما يدخل إلى مبنى عمّه.

كان للعمّ وجه مثير للاهتمام يذكّره بشيء من «سبنسر ترايسي». وكان الشيء الوحيد الذي يمنح العمّ الحياة هو رسم شجرة العائلة. فيبحث عن أسلاف مباشرين وبقدر ما تسمح له قوّته، ويبحث عبر فروع أخرى للعائلة أيضا. يخبره العمّ بأنّه نجح في العودة بالزمن بعيدا إلى حدود ستّة عشر قرنًا وأنّه وجد جنودا مجهولين وجرّاحين ونبلاء مفقّرين وشهداء وقع تعذيبهم من طرف محاكم التفتيش وقضاة القرية وأجيال من العبيد. لقد اكتشف فرعا من العائلة كان قد عاش في السابق في «بورغندي». وفي خزانته توجد أكوام من الخرائط ورزم من ورق الرسم البيانيّ الذي رسم فوقه الفروع المختلفة لرسوم العلاقات البيانيّة. أعلن له العمّ أنّه ينوي ترك كلّ ذلك له».

لكنّه اعترض قائلا إنّه لم يكن يوما مهتمّا بتلك الأشياء. ومع ذلك أحضر العمّ صندوقا مليئا بالوثائق، من بينها نُسخ رسميّة لمضامين ولادة واتّفاقيّات بيع ورسائل باهتة وأشرطة وزهور مجفّفة وإشعارات جنازة ونُسخٌ من سجلّ الأبرشية. وقال إنّ المعنى من وراء عمله هو معرفة من أين أتى، وبناء على ذلك إلى أين يتّجه.

فيسأل عمّه: «ما الذي يمكن أن تكشفه بعض التواريخ وأسماء أشخاص فارقوا الحياة منذ زمن طويل؟» فمال عمّه نحوه وهمس: «إنّهم يكلّمونني. إنّهم ليسوا موتى، بل يتحرّكون في فضاء مختلف».

«في الأسبوع الموالي، استأجر سيّارة أجرة لنقل كلّ الوثائق. وبينما

كانوا يحملون علبة الكرتون الأخيرة وهو يتأهّب لدفع الأجرة للسائق، لاحظ أنّ غرابا ضخما يحطّ على كومة من الأوساخ وحجارة الرصيف يراقبه. فأدرك أنّها إشارة لكنّه لم يفهم المغزى من ورائها. هل أضجرك؟».

«كيف لك أن تضجرني؟».

«على أيّة حال، فأنت من قدتني إلى إنجاز هذه القصّة؟».

«أنا؟».

«من خلال تصرّفك على طبيعتك».

«وماهي طبيعتي؟».

«غامضة».

قبّلته.

لم يبدأ العمل إلّا عندما توفّي العمّ. فقد وجد قطعة ورق عمّه الأخيرة، تلك التي جعلته على مقربة من بداية مّا، رغم أنّ اثني عشر جيلا لا تعني شيئا في تاريخ أيّ عائلة. على رأس الشجرة يوجد اسم «أجريبا سيفر» الذي ولد في الرابع من نوفمبر بقرية «تشيلينه» الصغيرة بمنطقة «إليس». دوّن هذه المعلومة ولم يكن يعرف في أيّ البلدان سيعثر على منطقة «إليس» هذه، لكنّه يستطيع تخيّل الحقبة التاريخيّة. فثمّة قصر قوطيّ ينتصب على صخرة بحريّة يصعب الوصول إليها وعربة ثقيلة يسحبها زوج من الثيران على طول طريق صخريّ.

تسمّى قرية «تشيلينه» الآن «كيلين» حسب ما اكتشفه من خلال تفحّص الخرائط القديمة وهي تقع على صخرة بحريّة في شمال غربيّ «البيلوبونيز». وعليه الذهاب إلى هناك إذا أراد أن يستمرّ في التحقيق. عندما يصل سيحاول إنجاز بحث حول كنيسة الأبرشيّة لكنّه لن يتوصّل إلى شيء، فلم يعد الكاهن يملك الدفتر الخاصّ بتلك الحقبة الزمنيّة. سيأخذه إلى المقبرة لكنّه لن يجد قبرا واحدا يعود إلى أكثر من مائة وخمسين سنة ولا شاهدة قبر واحدة تحيل على الاسم الذي يبحث عنه. فيرسله الكاهن إلى المدينة الواقعة على حافّة البحر .

«هل سبق أن رأيتها؟».

«ربّما في فيلم أو حلمت بها. بناياتها حجريّة وشوارعها مرصّفة بالحجارة وكلّ الجدران مطليّة بالأبيض وأشجار الدفلة ورديّة اللون مزهرة في الجنائن وأشجار التين والزيتون يانعة. والأطفال أصحاب البشرة الداكنة والشعر الأسود يلعبون في الشوارع الضيّقة والحمار يجرّ عربة ذات عجلتين صاعدا إلى أعلى التلّة».

«سأل عن الأرشيف لكن لم يفهمه أحد. أخذوه إلى حانة حيث يجلس بحّارة كثيرون وبعض النساء الشابّات. وقدّموا له النبيذ. بعد ذلك أصابته دهشة عندما رأى منحوتة غراب تنتصب على إفريز بجوار الباب. فأدرك أنّ رحلته لن تكون بلا جدوى. وبالفعل، في اليوم الموالي عثر في الأرشيف على اسم كان يبحث عنه. واكتشف أيضا أنّ جدّ هذا الرجل جاء إلى هنا صحبة جيش دوق البندقيّة».

«هل كان عليه أن يذهب إلى إيطاليا إذَن؟».

فجأة تحمّس وأصبح يتوق إلى اكتشاف المزيد من الأسلاف. كان اسم الجنديّ الإيطاليّ «سيفيروس». ماذا لو كان هذا الرجل من سلالة الأباطرة الرومانيّين؟ سيطرت الفكرة عليه. لكن ليس بشكل كبير وذلك لأنّه كان يتوق إلى أن يكون سليل أباطرة عاديّين، غير أنّه رأى شيئا يمكنه التمسّك به. لكن كيف بوسعه ردم فجوة من آلاف السنين؟ والعودة إلى زمن كان فيه البربر يعيثون فسادا في أوروبا ويدمّرون البلدان والمدن؟ وكان يبدو كما لو أنّ الملوك والأمراء أيضا ينبثقون من العتمة لتتلاشى ذرّيّتهم داخلها من جديد؟

«واصل رحلته عائدا عبر الزمن رغم أنّ التجربة ازدادت صعوبة. فتحدّث إلى أمناء أرشيف مجهولين وأقنع آخرين بالسماح له بالدخول إلى الأديرة وبيوت القساوسة والمكتبات. وكتب رسائل، فعامله بعض الذين راسلهم معاملةَ غريب أطوار واعتقد آخرون أنّ بإمكانهم انتزاع شيء مّا منه، إذا لم يكن مالًا فهو على الأقلّ شيء ثمين.

زاره أبناؤه من جديد فوجدوا أنّ الاستوديو فارغ الآن إلّا من قطع خشبيّة مازال لم يشتغل عليها ومنحوتةِ طير بجناحين ممدودين. فحاولوا إقناع والدهم بالتخلّي عن هذا الأمر وصرخوا في وجهه: لقد جننت وتحتاج إلى المساعدة. لكنّه رماهم خارجا.

ربّما كان يحتاج إلى استشارة طبيب، لكنّه واصل بحثه بدلًا من ذلك. تمرّ في حياته الآن سلسلة من المناظر الطبيعيّة والمدن وبيوت القساوسة والأديرة وتمرّ أمام عينيه بسرعة الوميض وثائق لا تكاد تقرأ فتبدو الحروف راقصة ومعيدة تشكيل نفسها إلى كلمات وأسماء.

تدخل مناظر طبيعيّة أخرى حياته وأشخاص فُقدوا منذ زمن بعيد ولم يتبقّ منهم سوى الاسم لكنّه مع ذلك يراهم. فمرّة يراهم كما لو أنّهم في موكب زفاف يرتدون بذلات كلاسيكيّة ويسيرون على إيقاع ترنيمة غريغوريّة نحو كنيسة صغيرة تقع على صخرة بيضاء. وفي مرّات أخرى يرى أسلافه ضمن مجموعة من المحاربين يشحذون سيوفهم على طول طريق غابيّة ويرقصون نصف عراة حول النيران. ويسمع الصيّادين يهتفون عندما يطيحون بفريستهم. وتتكثّف الصور، في البداية تأتي إليه في الليل فقط، ثمّ تبدأ في الظهور نهارا كذلك. ينظر إلى البحر فيتراءى له فجأة أسطول من السفن الحربيّة – سفن ثلاثيّة المجاذيف– تقترب من الساحل. أو من خلال نافذة خان يلمح دزينة من الكتوريّين يرتدون عباءات التوغا. وذات مرّة انتبه إلى أنّه مراقب من طرف رجل مشعّر بجبين منخفض ومائل أشبه بجبين قرد. كان الرجل يمسك بهراوة في يده اليمنى الضخمة. توقّف حتّى يتيح للرجل اللّحاق به لكنّه اكتفى بالدوران حوله كما لو أنّه يطوف حول دائرة لا يمكنه اختراق حدودها الخارجيّة. حدث هذا على امتداد أيّام متتالية إلى أن ظهر أخيرا هذا الرجل ذات ليلة بجوار سريره. فسأله عمّا يريد لكنّه كان يعرف أنّ الرجل لن يجيبه: فهو قادم من فضاء آخر وماهيّة أخرى. إنّه ببساطة ظلٌّ لأحدٍ أكثر قدما ينحدر منه.

ثمّ أصبحت الأشباح تزوره أكثر فأكثر، فتأتي إليه في الأستوديو الخاصّ به وتقبع في الزوايا أو تتحلّق في الليل حول سريره فيسمعها أحيانا تهمس فيما بينها ويفهم بعض أجزاء من الجمل التي تتفوّه بها

فيقفز من السرير ويخربش بيده اليسرى ما تحاول إخباره به :لو أنّي عثرتُ أخيرا على الرحمة أمام وجهك... على مقربة منك، أيّها الربّ، على مقربة من النار... يُخلق الطين من الطين، وينبعث الرماد من الرماد، والغبار من الغبار... وتنهض الحياة من الموت... اسجدْ أمام القدير ودُلَّ أرواحنا على الطريق إليه.

كان يحاول أحيانا رسم الوجوه، وجوه الرجال البدائيّة المشعّرة ووجوه النساء، يرسم جباههم الخفيضة وأنوفهم المسطّحة وذقونهم الصغيرة التي تمنحهم شكلا بدائيّا وشبه حيوانيّ. ثمّ إنّ أسماءهم تبدأ كذلك بامتلاك وقع أكثر غرابة. إنّهم قصار القامة وغالبا ما يذكّرونه بصراخ الطيور وصوت الحيوانات أو عواء الريح. عرف أنّ «سيسيسي» صديق «تاكتاك» لكن متى وأين وإلى أيّ حدّ عاش؟ هذا ما لا يمكنه اكتشافه. حاول استدعاء روحه من جديد، لكنّ أيّا من الأشباح لم يعد قطّ كما لو أنّ عليها ترك مكانها لأشباح أخرى. لقد شرعوا في التصرّف بإهمال أكثر فأكثر وصارت جُملهم أقلّ اتّساقا ثمّ أصبحوا ينطقون بكلمات منفردة ثمّ يتلعثمون بمقاطع صوتيّة وأخيرا يطلقون صرخات حيوانيّة وسط مقاطع صوتيّة كعواء وحشيّ لوحوش كاسرة قديمة وهدير عميق منبعث من حناجر دببة وحفيف أفاعٍ وشيك وشبه دائم الآن وصوت صدى مسموع لبلح البحر والمحار. إنّه لأمر منهك، فهو مازال يحاول رسم ملامح تلك الأشباح لكنّه لم يعد قادرا على رؤية شكلها. وربّما لم يعد لها شكل أو لعلّ أشكالها اضمحلّت بمرور الزمن، إنّه يستطيع رؤية نقاط ملوّنة وضبابيّة فحسب، تطير وتحوم حوله.

بعد ذلك نفدت قوّته ولم يعد قادرا على مغادرة السرير. وصار يكتفي بالنظر إلى أنصاف الرقصات الضوئيّة ويصغي إلى أصوات الضجيج التي تتجمّع معًا وتمتزج فتصدر صوتا أشبه بمياه متدفّقة بقوّة. شعر أنّه لم يعد يتمدّد بل يسقط، يسقط داخل أعماق بلا حدود أكثر من السّماء، وبينما يتهاوى يصبح الضوء حوله أكثر خفوتا ووضوحا وتمتزج الأصوات لتصبح رنينا منفردا، وهمسا ثاقبا يخترقه فلا يعود يعرف ما إذا كان قادما من الخارج أم من الداخل. في تلك اللحظة يدرك أنّه يرى الحضور السماويّ، حضور الله فيهمس بكلمته الأخيرة: الله.

عثروا عليه وسط الأستوديو الفارغ والخاصّ به ممدّدا وسط قطع من الورق تغطّيها كلمات مكتوبة بلغة غير مفهومة ورسوم لمخلوقات غريبة. كان الرجل الميّت مبتسما. قال أحد الذين عثروا عليه: «لا شكّ أنّ هذا التافه قد جنّ».

كان الصمت يخيّم على الحجرة، مثل أستوديو الرجل الميّت. ربّما غطّت في النوم لكنّ عينيها كانتا تحدّقان باتّساع في العتمة خارج النافذة. ثمّ أخيرا سألته: «والطائر، ماذا عن الغراب؟».

أصابه سؤالها بخيبة أمل وقال: «نسيتُ أمره. لقد اكتشف أنّ كنية أحد أسلافه كورفوس».

«إنّها قصّة غريبة، ليست من نوع القصص التي توقّعتها منك. فكما لو أنّ شخصا آخر اخترعها، شخصا آخر داخلك، شخصا يتوق إلى الإيمان بشيء مّا». مالت نحوه وبدأت تقبّله ووجنتاها مضمّختان

بالدموع. لم يعرف أكانت تبكي لأنّها تأثّرت بالقصّة أم لأنّها تشفق عليه أم لأنّهما على وشك الفراق».

ما هو الإيمان؟

الإيمان توق يلبس ثوب الإدانة .

توقّف الضجيج فجأة في الحجرة ثمّ أعلن صوت رجاليّ قويّ أنّهم يحتاجون إلى خمسة مبعوثين للخروج إلى الريف في تلك الليلة وعليهم أن يستعدّوا لاحتمال وقوع أيّ شيء لأنّ الوضع ضبابيّ في الريف، وقد وصلتهم تقارير غير مؤكّدة بأنّ وحدات ميليشيا مسلّحة تقف على تخوم المدينة وتستعدّ لاقتحامها. عدّد الصوتُ جميع الأماكن التي يجب على المبعوثين الذهاب إليها، وكان أبعد مكان يقع في طرف المدينة. فنهض فورا متطوّعون. في تلك اللحظة سُمع صوت «سوكول» يعرض عليهم استخدام شاحنة التلفزيون.

فنهض. لم يكن يبدو أنّ في الأمر احتمال إطلاق نارٍ، لكن لو حدث ذلك ونجا هو وكاميرته، فسيحظى بلقطات فريدة من نوعها رغم أنّه من المؤكّد أن يكون هناك دائما إطلاق نار في مكان مّا من العالم، وسيبدو ذاك النوع من اللقطات الفريدة متشابها دائما.

صعد إلى الشاحنة فتى بشعر طويل وصبيّة بوجه طفوليّ. وأحضر طلبة آخرون صرّة من الملصقات وبعض المطويات.

عندما انطلقت الشاحنة، نظر خارج النافذة ورأى كثيرا من الأيدي تلوّح لهم. إنّها المرّة الأولى التي يلوّح فيها غرباء لشاحنة تُقلّه. جلس

الطفلان إلى جواره يتحدّثان عن أشخاص لا يعرفهم. كانت الفتاة تخاطب الفتى باسم «دان» وهو يطلق عليها اسم «دورا».

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل والشوارع خاوية تماما ولم يكن هناك أثر لأيّ وحدة ميليشيا.

سحب علبة سجائر وعرض سيجارة على الطالبَيْن الجالسَيْن حذوه. فاعتذر الفتى، لكنّ الفتاة أخذت واحدة. لاحظت وهو يشعل لها لفافة التبغ أنّ ولّاعته على شكل مسدّس صغير فعلّقت: «إنّه لأمر جيّد أن نكون مسلّحين».

فقال الفتى: «نحن لا نطلق النار في هذا البلد». وكما لو أنّه تذكّر شيئا فأضاف: «عندما يبدأ إطلاق النار، سيأتي شخص آخر من مكان آخر وسيكون عليه التصدّي لذلك».

فعارضته الفتاة قائلة: «يمكنك القتل دون إطلاق النار».

فسألها: «هل قتلوا أحدا تعرفينه؟».

فأجابته: «كلّا، لا أحد أعرفه، لكنّ ذلك غير مهمّ. فيمكن وضع السمّ للناس والإجهاز عليهم ببطء دون أن يلاحظ ذلك أحد».

«هل تقصدين بسبب ما يُبثُّ على التلفزيون؟».

فقالت: «ذلك ممكن، لكن توجد طرق أخرى عديدة لفعل ذلك. مثلا لقد سمّمونا في المدرسة طوال خمس عشرة سنة».

«هل أحصيت سنوات الحضانة؟».

فضحكت قائلة: «لقد بدأ الأمر حينئذ. لكنّ كلّ شيء انتهى الآن».

فالتفت «سوكول» الجالس إلى جوار السائق نحوها: «إنّه لمن المؤسف جدّا أنّك لم تقولي هذا الكلام أمام الكاميرا».

فقالت: «سيقول أيّ كان لك ذلك في أيّ وقت. فلسوء الحظّ أنّك أبطأت كثيرا في القدوم إلينا».

«كنّا سنأتي أبكر من هذا الوقت، لكن ما كان لهم أن يسمحوا لنا ببثّ الفيلم. ولعلّه لم يكن بوسعك قول هذا الكلام قبل الآن أيضا».

فأقرّ الصبي قائلا: «ربّما. فكلّ شيء يحدث في الوقت المناسب».

تحرّكت الشاحنة خارج المدينة لكن كان عليهم عدم الإسراع، فالطريق زلقة بفعل طبقة الندى التي تغطّيها. مالت الفتاة برأسها على كتف الفتى وأغمضت عينيها.

سأل «بافل» الشابّ: «ماذا تدرس؟».

«في الواقع، ما تقوم به أنت بالضبط. أعني أنّني أدرس لأصبح كاميرا مان».

«هذا جيّد يمكنك أخذ مكاني إذا اقتضى الأمر ذلك».

فقال: «لمَ لا؟ سيكون ذلك أكثر إثارة للاهتمام».

«ماذا تعني؟».

«لم أكن أتحمّل أيّ برنامج من برامجك. ففي كلّ مرّة يشغّلون التلفاز في البيت، كنت أغادر الحجرة. والآن ها أنا هنا أركب معك السيّارة

نفسها».

فقال سوكول: «ربّما كنّا نعتبر الأمر أكثر قرفا ممّا تفعل، بل كانت لدينا أسباب أكثر لنشعر بذلك».

فاعترض الطالب: «لكنّكم مع ذلك فعلتموه».

قال سوكول: «واستمررت أنت في الدراسة أيضا، رغم علمك بأنّهم يسمّمونكم».

«هذه مقارنة مثيرة للاهتمام، لكنّ الأمر ليس كذلك تماما».

فقاطعهما بافل: «ربّما سيكون بإمكانك فعل كلّ شيء بشكل أفضل الآن، عندما تأخذ مكاننا».

«آمل ذلك، وإلّا ما كان لي أن أرغب في التورّط في هذا الأمر».

فقال «بافل» في نفسه: هذا ما تقوله الآن، لأنّ لديك أملًا في أنّ الأمور ستتغيّر. لكنّه لم يقل شيئا. بل أشعل سيجارة أخرى ونقل نظره خارجا نحو الضباب الكثيف.

هو أيضا كان يأمل في أن تتغيّر الأمور ويأتي أشخاص مثل هذا الطالب ليحلّوا محلّه لأنّه كان أحد المسمّمين. وسيذعن لأنّه هو نفسه يودّ أن يتحسّن كلّ شيء. فهذه هي بداية الحرّيّة وإذا لم تكن من أجله فستكون من أجل طفله الذي لم يولد.

(2)

كانت الكاميرات جاهزة وطاولة الكتابة مضاءة. وكان الرجل

العجوز يمسك في يده بعض أوراق يقرأ منها. بدا نحيلا ومتعبا ومسنّا، لكنّ صوته خشن وآمر مثلما كان دائما. كان من الواضح أنّه يرغب في الانتهاء من الأمر بسرعة: «هل يمكن أن نبدأ؟» لقد فُرضت عليه الاستقالة، فرضتها عليه المظاهرات الشعبيّة في الشوارع والشعب الذي ينتظر الآن بفارغ الصبر إذلاله.

«بعد دقيقتين، سيّدي الرئيس». كان «بافل» أيضا يرغب في الانتهاء من الأمر رغم أن لا أحد سيراه وهو يفعل ذلك. فهو لم يكن يريد رؤية هذا الرجل عن قرب من جديد رغم أنّها ستكون ربّما المرّة الأخيرة. «ومن غيرك؟» هكذا قيل له.

«استعدّ سيّدي الرئيس!»

جلس الرجل المسنّ وسحب منديلا وتمخّط فيه. كان من الواضح أنّه في غاية التأثّر. عندما انتُخِب منذ سنوات رئيسًا للدولة، تأثّر كذلك إلى حدّ أنّه ذرف الدموع. ولا شكّ أنّ آخرين كثرا في البلاد كانوا قد بكَوْا أيضا، بسبب الشعور باليأس أو العار. لكنّ الأغلبيّة ظلّوا يراقبون، مثلما فعل «بافل»، بفضول فحسب أو بلامبالاة مَنْ تَعرّضَ لصدمة.

«خمس عشرة ثانية! وسأعطيك إشارة بيدي، سيّدي الرئيس».

كانت الورقة المغطّاة بالحروف التي تمّ تكبيرها مرّات عديدة، حتّى يتسنّى للرجل نصف الأعمى قراءتها، ترتجف في يده. أعطاه بافل الإشارة، فبدأ الرجل المسنّ بإلقاء خطابه الأخير قبل السقوط في الهوّة المعتمة للنسيان المطلق.

عبر عدسة الكاميرا، شاهد الوجه الذي صوّره كثيرا والتقطت الميكروفونات الصوت الذي التقطته مرّات عديدة قبل الآن. كان الصوت مرتعشا والوجه أكثر كآبة وجدّيّة من المعتاد. وكان من الواضح أنّه لم يكتب هذا الخطاب بنفسه فحسب بل شحنه أيضا بمشاعر حقيقيّة. والآن، ها هو يحاول التحدّث من القلب ليصل إلى الشعب الذي كان يوجّه إليه في السابق نداءات تافهة ورسائل فارغة تغلّفها كلمات طنّانة لا تعني شيئا في عمقها.

تحدّث هذه المرّة بواقعيّة جافّة، فقال إنّ الشعب يطالب بحكومة جديدة وباستقالة الرئيس. وقد تلقّى رسائل عديدة حول هذا الأمر، بعضها تسانده وأخرى تنقده. شكر الجميع على آرائهم، سواء كانت إيجابيّة أو سلبيّة. فهو يعرف الآن على الأقلّ كيف ينظر الشعب إليه. وقد قرّر تعيين حكومة جديدة ثمّ الاستقالة.

«لطالما كنت أؤمن بالمُثل العليا ذاتها منذ أن كنت شابّا وسأواصل الإيمان بها». كان يتحدّث عن إيمانه الواهم من حفرة مظلمة، فبدا كغراب غريق يضرب بجناحَيه الكسيرَين على الأمواج العاتية التي أحاطت به أخيرا من كلّ جانب وغمرته. «من المؤكّد أنّه كانت توجد أخطاء، لكنّ تلك الأخطاء كانت في الناس وليست في المُثل وهكذا سأظلّ وفيّا لمبادئي مثلما سيبقى، حسب رأيي، كثيرون منّا».

راقب «بافل» الوجه الحزين عبر عدسة الكاميرا بمنتهى الانتباه الحِرَفيّ. فلم ينتبْهُ أيّ شعور ولا أدنى إحساس بالعطف تجاه الرجل المسنّ. كان يراقبه مثلما يراقب حيّة زاحفة أو جرذا منزوعة أحشاؤه أو

مستودعا مليئا بالفضلات السامّة.

ماذا كان سيحدث لو لم يخرج هذا الحاكم من العتمة التي يعود إليها الآن؟ لو لم يظهر ويدنّس حياة «بافل» وحياة الجميع في هذا البلد؟ هل كانت حياته ستكون أقلّ تشوّهًا؟ وهل كان سيقف كما يفعل الآن على حافّة حفرة سوداء معتمة على وشك أن تبتلعه؟

تمنّى الرئيس للمرّة الأخيرة أن ينجح الجميع في تجاوز المصاعب الحاليّة وكريسمس هادئا وسنة جديدة وسعيدة .

ما كان لطفله أن يولد على أيّة حال.

انتهى الخطاب وأطفأ التقنيّون الأضواء ووضع تقنيّو الصوت الميكروفونات بعيدا.

تقدّم الرجل المسنّ نحوه وكان يبدو متردّدا كما لو أنّه يخشى أن يُقابل بالرفض ثمّ مدّ يده وشكره، فشكره «بافل» من جهته وتمنّى له التوفيق.

من سيأخذ مكانه يا ترى؟ ومن سيصوّر خطابات الرئيس الجديد؟

كانت أمّه ترقد بالمستشفى الآن لأنّها لم تنتبه أثناء تسخينها لبعض الشاي على الموقد، فنشبت في ثوبها النيران. ومن المثير للدهشة أنّها نجحت في تمزيقه لكنّ اللهب أحرق يدها اليسرى وفخذها قبل أن تتمكّن من ذلك.

أخبرته الطبيبة قائلة: «لو حدث هذا لشخص شابّ لما سبّب له أكثر من كدمة وألم طفيف. لكن من الصعب أحيانا أن يُشفى الجلد في

هذه السنّ».

«فهمت». كان يحمل في يده باقة من الزهور أحضرها لوالدته، فخطر له أنّها لن تنتبه إلى الورود على أيّة حال، لذلك يمكنه أن يقدّمها للطبيبة. لكنّه فوّت اللّحظة المناسبة، ثمّ إنّه قد لا يكون من اللّائق أن يدفع للطبيبة أجرتها قبضةً من الزهور. فقال: «إذا كنتم بحاجة إلى دواء أو أيّ نوع آخر من المساعدة...».

فطمأنته الطبيبة قائلة: «أرجوك لا تقلق. سنفعل كلّ ما في وسعنا».

لو كان يملك بيتا خاصّا به حيث يمكن لوالدته العيش معه، ربّما ما كان لكلّ هذا أن يحدث. لكنّ الحقيقة أنّها هي السبب وراء عدم زواجه. كان يمكن أن يقضّي معها وقتا أكثر ممّا فعل، لكنّه كان ينفر من اضطرابها العقليّ. فعندما كان معها، كان غالبا يفكّر كيف يبتعد من جديد بأسرع وقت ممكن.

كانت تتمدّد في غرفة صحبة ثلاث نساء أخريات وذراعها المضمّدة ترتاح على اللحاف الأبيض وعيناها مغمضتان. كان الهواء في الغرفة حارّا والجوّ مشبعا بالعفن وكان بوسعه أن يشتمّ رائحة الأجساد المسنّة ونوعا من مادّة مطهّرة.

قالت المرأة في السرير المجاور: «إنّ المرأة المسنّة تنام كثيرا وقد تأوّهت طوال الليلة الأولى لكنّها تحسّنت الآن». بدت على وجه المرأة الشابّة آثار ندوب خلّفتها حروق يبدو أنّها سترافقها إلى آخر حياتها.

ملأ قارورة ليموناضة ببعض الماء ووضع داخلها الزهور ثمّ جلس

على كرسيّ قريب من سرير والدته. وناداها: «أمّي؟».

فتحت عينيها ببطء ونظرت إليه، فكانت تعابير وجهها فارغة.

«هذا أنا يا أمّي».

«من أنت؟».

«بافل».

فقالت المرأة في السرير المجاور: «إنّه ابنك، لقد حدّثتني عنه أنت بنفسك».

«هل هذا أنت؟».

«أجل».

«من الجيّد أنّك أتيت. أين أنا؟ هذا ليس سريري».

«أنت في المستشفى يا أمّي».

«كيف عثرت عليّ هنا؟».

قالت الجارة: «لقد بحث عنك، أليس كذلك؟ هو يعلم أنّ أمّه هنا».

«أجل، لقد قال إنّني كنت أمّه»، أقرّت وأردفت: «ألن يأتي والدك؟».

«كلّا».

فقالت الجارة: «لعلّه لا يملك الوقت. فكما قلت لك، لم يعد أحد

يملك الوقت. فزوجي لم يزرني مدّة أسبوع. اتّصل بي على الهاتف فقط. لقد قالوا إنّ الرئيس استقال، هل هذا صحيح؟». سألت «بافل».

فأجابها موافقا بإيماءة من رأسه.

فقالت: «من المؤسف أن أكون هنا. أعني أنّني لو كنت في البيت لاحتفلنا».

قالت أمّه: «لكنّه استقال مرّات عديدة قبل الآن».

فضحكت جارتها: «ليس هذه المرّة».

قالت الأمّ: «ليس مهمّا. سيكون عليهم جميعا الذهاب يوما مّا. هل وضعوه في المستشفى هو أيضا؟».

«من؟».

«هذا الذي تتحدّثون عنه دومًا».

قال: «كلّا، هل تشعرين بأيّ ألم؟».

«كيف لي أن أشعر بأيّ ألم. لقد نزعوا منّي جسدي».

داعب يدها ولم يكن يعرف ما يقول لها. فقد تموت خلال بضعة أيّام وعليه أن يفعل شيئا مّا من أجلها، لكن ما الذي يمكن فعله من أجل أمّ تركتها روحها وسيغادرها جسدها؟ هل يكلّمها عن الأمل؟ لكن أيّ أمل ستفهمه؟ وأيّ أمل تبقّى لها؟ وأيّ أمل يؤمن به هو نفسه؟ فيمَ كان سيرغب لو كان في مكانها؟

كان سيرغب في ألّا يكون وسط أشخاص غرباء تماما. كان سيرغب في أن يمسك أحد بيده. داعب مرّة أخرى يدها غير المضمّدة وكانت باردة ومجعّدة وخشنة.

قالت: «الهواء هنا غريب. لا أظنّ أنّني في البيت ولا أعرف أين يكون بافل الصغير».

«أنا بافل».

«أنت تسخر منّي فقط. بافل الصغير ابني، صبيّ صغير جدّا».

«حسنا، من أكون أنا حسب رأيك؟ لقد كبرت قليلا منذ ذلك الوقت فحسب».

«بافل الصغير لم يكبر مطلقًا ولا أعرف ماذا حدث له. كان طفلا جيّدا وكنت مولعة به وكان مولعًا بي. يحزنني أنّي لم أره منذ زمن بعيد». كانت تنشج بصوت خافت. أغمضت عينيها واستمرّت في النشيج.

رنّ الهاتف، «السيد فوكا؟».

«أجل فوكا يتكلّم على الجهاز». لم يكن قد استفاق تماما ولم يكن يعرف كم الساعة، لكنّ الليل ما يزال دامسا خارج النافذة. كانت المروحة تدور في السقف محدثة ضجيجا هائلا وهو ممدّد على السرير في النزل وسوكول ينام بعمق على السرير الآخر. لقد احتسيا الكثير من التاكيلا في الليلة الفارطة. لماذا لم يجب «سوكول» على الهاتف؟ لكن لا، فيبدو أنّ المكالمة كانت من أجل «بافل». «من المتكلّم؟».

«لحظة، لديك اتّصال».

«دكتور فالنتوفا تتكلّم، هل تسمعني؟».

«أجل، دكتور فالنتوفا، إنّي أسمعك بشكل واضح».

«أنا والدة آلبينا».

«أجل أعرف ذلك، دكتور».

«أردت فقط إعلامك بالأخبار، لقد أخذت ابنتي الليلة الفائتة إلى المستشفى».

«أووه يا إلهي! هل حدث شيء خطير؟».

«لقد بدأت تنزف، لكن مازال هناك أمل. فكّرت أنّك يجب أن تعلم بذلك فحسب».

«أجل، لكن لا أعرف... هل تظنّين أنّ عليّ العودة؟».

«ليس لديّ أيّ فكرة عن مسؤوليّاتك. لكنّ ابنتي ليست في أفضل حال، أقصد نفسيّا. أنت تعلم ماذا يعني لها هذا الطفل...».

«أعلم. أرجوك أخبريها أنّني سآتي. أخبريها أنّني سآتي في أوّل رحلة مُتاحة بالطائرة».

«سأمدّك برقم الهاتف في المستشفى. ربّما عليك أن تخبرها ذلك بنفسك».

«أجل، شكرا لك. سأتّصل بها».

«إنّها الرابعة صباحا وهو ما يعني العاشرة صباحا في بلده، كلّا، بل الحادية عشرة».

سأله «سوكول» وهو نصف نائم: «هل ثمّة خطب مّا؟».

«سيكون عليّ العودة».

«العودة إلى أين؟».

«العودة إلى البلد».

«ماذا–هل جننت؟ هل كان الاتّصال من الإنتاج؟ فقد وافقوا على تمديد إقامتنا».

«لم يكن الإنتاج. يمكنك العودة إلى النوم».

«كيف لي أن أعود إلى النوم وقد فقدت رشدك تماما؟».

«سأشرح لك في الصباح».

عليه الاتّصال بالمستشفى في الحال، لكنّه لا يملك شيئا نهائيّا يخبرها به. ثمّ إنّ ذهنه مشوّش. أوّلا عليه أن يحجز رحلة، وقبل ذلك عليه أن يرتّب الأمور مع «سوكول»، فلا يمكنه النهوض والطيران بعيدا بهذه البساطة والعمل لا يكاد يبلغ منتصفه. لذلك عليه أوّلا أن يتّصل بالمستشفى ويرى إذا كان مازال هناك معنى لعودته إلى هناك الآن. لكن قبل ذلك عليه أن يتأكّد بشكل نهائيّ من قدرته على الذهاب، فمن المفترض أن يسافرا إلى «ميريدا» ولن يكون بإمكانه التملّص من ذلك، فقد تمّ الإعداد لكلّ ترتيبات التصوير.

عندما حلّ الصباح بدا كلّ شيء أقلّ حدّةً ممّا كان عليه في عمق الليل. وكانت المكالمة الهاتفيّة قد صارت بمثابة كابوس من نسج الخيال.

قال سوكول: «من المؤسف أنّك لم تعرّفني عليها. أرغب في رؤية المرأة التي من أجلها أنت مستعدّ لترك كلّ شيء». ثمّ واصل: «لن تستطيع مساعدتها على أيّة حال، فأمّها طبيبة ويمكنها الاعتناء بها، ثمّ إنّ لديك مسؤوليات هنا. فلا يمكنك حزم أمتعتك ببساطة والمغادرة. عليك إدراك هذا الأمر».

بدا كلامه مقنعًا. ثمّ إنّه قد لا يحصل مرّة أخرى على فرصة للقدوم إلى هذا الطرف من العالم وما يزال هناك الكثير ممّا يرغب في رؤيته وتصويره.

في اليوم الموالي اتّصل بالمستشفى من المطار وترك رسالة لـ«آلبينا» يخبرها بأنّه سيعود في أقرب وقت ممكن. ثمّ طار إلى «ميريدا» لكنّه الآن في عجلة من أمره، ففي يوم واحد حاول إنجاز ما كان عليهم إنجازه في أسبوع. ثمّ اعترض عليه السائق الهنديّ الذي وظّفوه بلطف. لماذا هؤلاء الرجال البيض في عجلة من أمرهم دائما؟ وشرح له: إذا كنت في عجلة شديدة من أمرك فلا يمكن لعقلك مجاراتك وإذا لم تنتظره فلن يلحق بك أبدًا.

فتحت أمّه عينيها من جديد: «أين أنا؟».

فقال لها: «كنت نائمة، ومن حسن حظّك أنّك لم تصابي بحروق مميتة».

ضحكت والدته وقالت: «كنت محظوظة، كنت محظوظة مرّةً واحدة في حياتي. ماذا تفعل يا بافل؟ هل أنت أيضا محظوظ؟».

فقاطعتها المرأة التي في السرير المجاور: «كلّنا محظوظون الآن يا سيّد فوكا، كلّنا منتشون».

فقالت والدته: «أجل، نحن سعيدتان بقدومك يا بافل، وبأنّك هنا معي وستبقى معي».

أغمضت والدته عينيها من جديد. عليه أن يبقى هنا معها وألّا يستعجل الذهاب. عليه أن يبقى هنا معها حتّى النهاية.

(3)

أنهى العمل في غرفة التحرير بأسرع ممّا كان يتوقّع، فلاح أمامه وقت ممتدٌّ من الفراغ. رأى مجموعة من الغرباء في الممرّ يتحدّثون بحماس شديد. فقد أصبح المبنى الآن يعجّ بالوجوه غير المألوفة، ربّما يكون بعضهم قد عاد بعد سنوات طويلة من الغياب -ليس إلى هذا المبني الذي يبدو فعليّا جديدا ولكن إلى أعمال كانوا يقومون بها في السابق. أشعره هؤلاء الأشخاص بعدم الارتياح. فمرّ من أمامهم بأسرع ما يمكنه فعله. أومأ إليه بوّاب النزل عند خروجه بما يفيد أنّه تعرّف عليه. على الأقلّ لم يعوّضوه. ليس بعد.

كان مساءً باردا في الخارج والطريق المرصوفة بالحجارة زلقة بفعل طبقات السخام والغبار والرطوبة التي تغلّفها وكان الهواء لاذعا بسبب الدخان. صعد إلى سيّارته الرياضيّة وانطلق يقطع المسافة

القصيرة التي تفصله عن وسط المدينة. فأدرك أنّه على مقربة من المتجر الذي تعمل به «إيفا» ويمكنه أنّ يمرّ بها. فهو لم يرها منذ أيّام. إذْ لم يكن يبدو أنّه ثمّة ما يكفي من الوقت بشكل مّا.

لقد جاب صحبة «سوكول» مدنا وبلدات عديدة يقع أغلبها في شمال البلاد. خارج الضباب الذي غلّف الريف وجعل ملامح الناس والأشياء تبدو رقيقة، برز المتظاهرون ورفرفت الأعلام وارتفعت حناجر المتكلّمين عفويّة لتخاطب الحشود التي تجمّعت بتلقائيّة. كان أغلبهم من الناس الذين قُمعوا سنوات. تسلّقوا أكوام الصّخور ووقفوا باتّزان على حافّة النافورات وعلى ركائز التماثيل التي يطالبون بإزالتها مثلما يطالبون بإزالة أولئك الذين انحنوا أمام هذه التماثيل. فنسجوا رؤى حول التحوّل السريع الذي سيطرأ على حياة الجميع، بما في ذلك حياة «بافل»، وكيف سيتخلّصون من براثن الفقر الذي عانوا منه زمنا طويلًا. أمّا الآخرون الذين يفضّلون الأفعال على الأقوال فقد تسلّقوا الأسطح لإزالة رموز الأمس، رموز السلطة التي يكسوها الثلج. حطّموا علامات الشوارع وثبّتوا مكانها صفائح جديدة وخربشوا فوقها أسماء لم تكن إلى وقت قريب مذكورة. وكانوا أحيانا يتجمّعون تحت شبابيك أمانات الأحزاب المهجورة في تأهّب لاقتحامها. وبدأت، أو بالأحرى تمّت، عمليّة التطهير. رأى في كلّ وجه نوعا من النشوة بدت له أشبه بالنشوة الجنسيّة.

عندما رأى «إيفا» آخر مرّة، لاحظ وجود هذه النظرة ذاتها على وجهها. فعندما يتعلّق الأمر بالغرباء، يبدو أنّ ذلك يجعل وجوههم

أكثر جاذبيّة أو على الأقلّ أكثر إثارة للاهتمام، لكنّ نشوة «إيفا» صدّته. ما الذي كانت تأمله؟ وماذا كانت تتوقّع من الظروف المتغيّرة أن تجلب لها؟ ماذا بإمكانها أن تفهم من وقوع هذه الأحداث؟ لعلّ نفوره كان ببساطة مِن شعور لم يكن هو مَن أثاره لديها.

ركن السيّارة في شارع جانبيّ، مباشرة أمام مدخل حانة.

كانت تعجّ بالزبائن في الداخل كشأن كلّ الحانات في مثل هذا الوقت من النهار. وقف على مقربة من الحنفيّات وطلب كأسا كبيرة من الفودكا. على الحائط، إلى جانب ملصقات عارضات الأزياء أنصاف العراة وإعلانات البيرة، هناك صورة للرئيس الجديد. وانبعثت أغنية بوب أمريكيّة بانسيابيّة من مجموعة مكبّرات صوت، لكنّها غرقت وسط غمرة الأصوات. وكان هناك رجل ضخم الجسم يقف إلى جواره ويحاول إقناع البار مان برأيه في خصوص وضعيّة البلد قائلا: «لقد تساهلنا كثيرا معهم، سيؤدّي هذا إلى نتيجة عكسيّة».

فقال البار مان: «سيأتي دورهم. فكلّ شيء يأخذ الوقت اللّازم».

«ما أراه هو إمّا أن نتغلّب عليهم نحن أو يتغلّبون علينا هم غدا من جديد. إنّهم مثل الجرذان يقفزون من السفن الغارقة وإذا لم تضربهم حتّى الموت فإنّهم سيزحفون على ظهر سفينة أخرى من جديد وسيستمرّون في أكل ما تقع عليه أعينهم».

إلى من ينتمي؟ إلى أولئك الذين سيقومون بالضرب أو أولئك الذين سيتعرّضون للضرب حتّى الموت؟ هو لا يعرف أحدا هنا لكنّه يتساءل عمّا إذا كان من الممكن أن يتعرّف عليه أحد. فصوره تظهر

أحيانا في البرامج التلفزيونيّة. شعر بعدم الارتياح وطلب كأسا أخرى من الفودكا وشربها في جرعة واحدة ثمّ غادر البار.

كانت «إيفا» ترتّب شيئا مّا على الرفّ عندما دخل إلى المتجر. فاستدارت حالما سمعت صرير الباب. «هذا أنت إذَن؟ ماذا تفعل هنا؟».

«لقد عدت للتوّ إلى المدينة وأتيت فورًا لرؤيتك».

«هذا لطف منك، سأغلق المتجر بعد قليل. هل ستأتي معي الليلة إلى البيت؟».

«وأيّ مكان آخر قد أذهب إليه؟».

«لا أعرف. لا أعرف أين تذهب عندما لا تكون معي».

فقال: «يمكنك إغلاق المحلّ فورا. فللناس أشياء أخرى تشغل بالهم الآن عدا شراء المناديل أو الجوارب».

قالت: «إنّ العمل يمرّ دائما بفترة من الركود إثر الكريسمس». ثمّ نهضت واتّجهت إلى الباب، وأغلقته وعلّقت علامة تقول: «ذهبت إلى مكتب البريد. أنا هنا بمفردي وما يزال لديّ بعض الحسابات للقيام بها، ثمّ سيكون عليّ أخذ المال إلى مكتب البريد. يمكنك الانتظار في الخلف وسأعدّ لك بعض القهوة».

كانت الغرفة التي في خلفيّة المتجر أشبه بمكتب في جزء منها، أمّا في جزئها الآخر فتُحيل على غرفة للزينة، إذ يوجد بها حوض ورفّ مليء بالقوارير الصغيرة والقنّينات والكريمات وطاولة وكرسيّان بذراعين

يمكن لأحدهما أن يتحوّل إلى سرير. فوق خزانة معدنيّة للملفّات تنتصب صفيحة تسخين يوجد فوقها إبريق بداخله دائما ماء مغلًّى. كان الهواء في الحجرة حارّا، فنزع كنزته وجلس على المقعد وأشعل سيجارة. أعدّت له القهوة ولنفسها ثمّ جلست قبالته. لقد قضّت كامل اليوم في المتجر لكنّ شعرها ومكياجها كانا خاليين من أيّ عيوب وبلوزتها لا تشوبها شائبة واحدة فبدت كما لو أنّها نُزعت لتوّها من علاّقة الملابس.

«إذَن، كيف كانت الأمور هناك؟».

قال إنّه كان لديه عمل كثير وأنّ كلّ شيء في تغيّر الآن، فالكثير من الأشياء تحدث وتُرى، وهكذا توجد أشياء كثيرة ليصوّرها، ثمّ إنّه لم يعد هناك من يعطي الإذن بالتصوير.

سألته عن حال أمّه، لكن لم تكن لديه فرصة للذهاب إلى المستشفى في ذلك اليوم. غير أنّهم أخبروه على الهاتف بأنّ الحروق تتعافى بشكل مدهش.

سألها: «ماذا يفعل روبن؟».

«إنّه متحمّس إلى ما يحدث، ويريد مشاهدة نشرة الأخبار على التلفزيون كلّ ليلة».

«ألست متحمّسة؟».

نظرت إليه كما لو أنّها تتساءل عمّا يرغب في سماعه.

«طبعا، إنّها متحمّسة. فليس لديها ما تخسره، وهي لم تنخرط يوما في

السياسة. هي فقط تبيع أشياء أقلّ قيمة بكثير ممّا يباع في أيّ مكان آخر من العالم».

فقالت، وهي تتحاشى إجابته على سؤاله بشكل مباشر: «قيل إنّ المتاجر الخاصّة ستعود إلى الفتح من جديد وقالوا أيضا إنّهم سيعيدون إلى الناس أملاكهم، ربّما حتّى كلّ المصانع».

«وما علاقة هذا بنا؟».

«هذا فقط ما قيل لنا في المكتب الرئيسيّ».

فقال لها: «لم يمتلك والداي شيئا ولا حتّى بيت كلب. ولن أرث منهما شيئا».

«ولا أنا. إلّا إذا أعادوا إلى كوكيرا المصنع الذي كان على ملك والده». بدت نبرة صوتها عاديّة غير أنّه كان من الواضح أنّها فكّرت في الأمر مليّا.

رنّ الهاتف.

نهضت بسرعة والتقطت السمّاعة. كان بوسعه سماع صوت رجل يسألها سؤالا على الطرف الآخر. لاحظ احمرار وجهها. فنهض لكن لم يكن ثمّة مكان يذهب إليه إلّا إذا عاد إلى المتجر الذي من المفترض أن يكون فارغا.

قالت عبر الهاتف وقد تعمّدت خفض صوتها: «اتّصل بي غدا فلديّ زائر الآن». ثمّ وضعت السمّاعة بسرعة وقالت: «كان هو. إنّه يرغب في ترتيب أخذ روبن إلى التزلّج».

«إذَن لماذا لم ترتّبي معه الأمر؟».

هزّت كتفيها في عدم اكتراث: «أحتاج إلى بعض الوقت لأفكّر بالأمر». مشت نحو المكتب وانحنت وبدأت تفتّش عن شيء في عمق الدرج.

راقب نهديها نصف المكشوفين، ذينك النهدين اللذين داعبهما مرّات عديدة. اقترب منها وأخذها بين ذراعيه.

فنظرت إليه مندهشة، ثمّ سمحت له بتقبيلها، وعندما بدأ يداعبها قالت له: «هل جننت؟ لا يمكننا فعل هذا هنا...».

«لكنّك أقفلت الباب».

«لدى رئيسة العمل مفتاح».

«هل تظنّين أنّها قد تظهر؟».

«ثمّ إنّ عليّ الذهاب إلى مكتب البريد».

كان يداعب نهديها.

«لا أعرف، لا أعرف»، لكنّها لم تقاومه وهو يحملها إلى المقعد.

مارست معه الحبّ برتابة وصمت وسلبيّة، ربّما لأنّ المكان لم يعجبها.

ثمّ قالت وهي ترتدي ملابسها: «أنت تمارس الحبّ معي لكنّي لا أعجبك حقّا».

«ما الذي يجعلك تقولين هذا؟».

«متى كانت آخر مرّة أخبرتني فيها أنّك تحبّني؟».

«أحبّك».

«لكنّك لا ترغب في إنجاب طفل منّي».

التزم الصمت.

«ولا تريد أن تتزوّجني».

«لكنّنا نبدو كمتزوّجين».

«أجل، يمكنك الحصول عليّ في أيّ وقت تشاء، في متجر على كرسيّ لمجرّد شعورك برغبة في ذلك. لكنّك لست مهتمّا بما تبقّى. لست مهتمّا بي ولا بروبن. أنت لا تحبّ أيّا منّا».

«لا أفهم لماذا تتكلّمين هكذا».

«لطالما كنت أعرف هذا. لكنّني قلته لك الآن فحسب. أنت لا تهتمّ سوى بأمّك وربّما كاميرتك -فأنت في الأقلّ حريص على ألّا يلحق بذلك أيّ أذى».

«هل ألحق بك أيّ أحد الأذى؟».

«أجل. أنت!».

«هنا؟ الآن؟».

«هنا أو في أيّ مكان آخر. ليس مهمّا أين. أنت لا تحبّني فعلا. ولا تفكّر إلّا بنفسك».

عادت إلى المكتب ودفعت بالدرج وأغلقته. ثمّ تناولت أحمر شفاه من حقيبتها وبدأت تطلي به شفتيها في عناية وهي تنظر إلى المرآة. «كم تعتقد أنّي سأبقى بانتظارك حتّى تقرّر البقاء معي أو اختيار شخص آخر؟».

«لكنّني سأبقى معك».

«لا فرق، فأنت تخونني. لا تظنّ أنّي لا أعرف ذلك».

فقال لها دون اقتناع: «أنا لا أخونك».

فاجأه انفجارها، فحتّى الآن كانت تفعل كلّ شيء وهي خاضعة بالشكل الذي يريده هو. لا شكّ أنّ شيئا قد حدث. لقد كانت بارعة في عملها بائعةً في محلّ، كان ذلك في دمها. إنّ العالم ينهار حولها ويعيد تشكيل نفسه إلى شيء يمكن أن يأتي بالفائدة أو الخسارة أو شيء آخر تماما.

كان حتّى الآن يمثّل لها الربح. فهو أفضل من أيّ رفيق كان يمكن أن تأمل في الحصول عليه. فإمّا أنّها وصلت إلى استنتاج أنّه لم يعد بإمكانه تقديم أيّ امتياز لها، أو أنّ أحدا آخر ظهر في حياتها وقدّم لها قيمة أكبر، أو أنّ كلا الشيئين حدثا وهو لم ينتبه إلى ذلك.

نهضت وهي تضع معطفها وألقت نظرة على وجهها في المرآة مرّة أخرى، ثمّ وضعت قبّعتها وقالت:

«هل نذهب؟».

بقيا صامتين بقيّة اليوم، وعندما اقتربا من بيتها، سألها: «هل ثمّة

شيء آخر تريدين إخباري به؟».

«لماذا؟ لقد قلت كلّ شيء أريد قوله في الوقت الحاليّ».

(4)

حلّ «بيتر» محلّ «هالاما» وأصبح هو الآن رئيس «بافل» في العمل. لم يعرف «بافل» إن كان هذا أمرا جيّدا أم لا. فلا شيء تغيّر ظاهريّا في حياته لكنّه الآن ينقصه الشعور باليقين. فهو يذهب ليصوّر إلى حيث يرسلونه، ثمّ يبثّون المادّة دون أن يوافق أحدٌ أو يعترض على ذلك. يمكنه أن يعتبر نفسه قد حصل أخيرا على استقلاليّته ومسؤوليّته لكنّ الوضع في الواقع يجعله يشعر بعدم الارتياح.

فقد صار يصعب عليه التركيز حتّى على التنس، إذ خسر ثلاث جولات أمام «سوكول» في صباح واحد. عندما أخبره أثناء أخذهما لحمّام بأنّ كلّ شيء بدأ من جديد، سأله «بافل» عن قصده من ذلك.

فشرح له: «أنت تعرف أنّهم في البداية يغيّرون رؤساء العمل ثمّ يبدأ الرؤساء في تغيير أولئك الذين في مراتب أقلّ منهم وهكذا، حتّى آخر السلّم. ما عدا السيّدات اللواتي يقمن بأعمال التنظيف، فأولئك عليهنّ البقاء. أم أنّك لا تعتقد أنّ هذا ما قد يحدث هذه المرّة؟».

فهزّ كتفيه غير عابئ.

أعلمه سوكول قائلا: «يقال إنّ هذا الرجل الجديد قضّى سنوات في حراسة قصر وإنّه كاثوليكيّ».

فصحّح له: «بل بروتستانتيّ».

«هل تعرفه؟».

«نسبيًا».

«إذَن ماذا تظنّ أنّه سيفعل؟».

«لا أعرف. ربّما هو لا يعرف نفسه».

«قد يطلب منك النصيحة مادام أحدكما على معرفة بالآخر».

«أشكّ في ذلك».

«أو ربّما ستكون أنت أوّل من سيُطرَد».

«لا أعرف، حقّا لا أعرف».

«ماذا لحارس مبجّل بحقّ الجحيم أن يعرف عن إدارة شبكة تلفزيون؟».

«لم يكن دائما حارسا».

«حتّى لو كان ذلك صحيحا. فالشيء الوحيد الذي من المؤكّد أنّه سيعرفه هو كيف يبدّلنا. لذلك من الأفضل عدم الانتظار. سنضيّع وقتنا، والآن أكثر من أيّ وقت مضى، فالوقت يساوي مالًا. هل فكّرت بشأن ما حدّثتك عنه بخصوص تأسيس وكالة إعلانات؟ تتذكّر، لقد تحدّثنا في ذلك؟ هل لديك أيّ فكرة عن الأموال التي يجنيها من يعملون في ذلك المجال؟».

هزّ «بافل» كتفيه قائلا: «لا أعرف لماذا تريدني أن أكون معك في هذا

المشروع؟» كان قد انتهى من ارتداء ملابسه ولا يريد أن يتحدّث الآن عن ذلك. لقد كان متعبا ويشعر بالعطش بعد المباراة.

قال «سوكول» مصرّا على مواصلة الحديث في ذلك الموضوع: «ستكون مبان عديدة متوفّرة الآن. وإذا أسرعنا في الأمر قد نتحصّل على شيء لائق جدّا، شيء يمكننا تحويلة إلى أستوديو. سيكلّفنا قليلا لكن إذا اشترك كثيرون منّا في الأمر...».

«لماذا تظنّ أنّ أيّ أحد قد يسارع إلى منحنا مبنى؟».

«سيمنحونه لمن يدفع أكثر، ولو حدث ولم تعجبهم أنت أو أنا فسنفعل ذلك تحت اسم آخر».

«ربّما، لكن لماذا؟»

تنهّد سوكول: «يا إلهي، أين تظنّ أنّنا نعيش؟ ألم تدرك أنّ كلّ شيء تغيّر؟ إذا بقينا في التلفزيون فسنظلّ دومًا منبوذَيْن في نظرهم. لكن إذا بدأنا مشروعنا الخاصّ فلن يسألنا أحد عن ماضينا وعمّا نعرفه وإذا ما كان بإمكاننا القيام بالعمل أم لا».

«كانت لديّ فكرة مختلفة عمّا سأفعله عندما تتغيّر الأمور».

«فكرة مختلفة؟».

صمت «بافل» لحظةً ثمّ قال: «كأن أنجز فيلما أرغب حقّا في إنجازه».

بدا «سوكول» مندهشا: «فيلمك الخاصّ؟ وعن ماذا، لو سمحت

لي بالسؤال، سيكون هذا الفيلم؟».

«ألم يخطر لك ذلك قطّ؟».

«ماذا تقصد؟».

«تعلّم أن تكون لديك طريقتك الخاصّة في قول الأشياء التي طالما أردت قولها كما هي».

فحرّك رأسه قائلا: «أووه طبعا، لكنّ الجميع سيفعلون ذلك الآن».

«إذا كان ما يزال بوسعهم ذلك».

«وهل يمكنك النجاح؟».

«أستطيع المحاولة على الأقلّ».

«ماذا عن المال؟ من أين ستأتي به؟».

«سنرى ما سنفعل حيال ذاك الأمر».

«حسنا، لمَ لا؟ سيكون لدينا أستوديو ويمكنك إنجاز فيلمك الكبير»، أَحبَّ وقع الفكرة في نفسه. «من المحتمل أنّه المكان الوحيد الذي سيكون بإمكانك أن تفعل فيه شيئا كهذا».

عندما عاد أخيرا إلى البيت متأخّرا بثلاثة أسابيع (كان يعمل طوال الوقت) كانت «آلبينا» قد تعافت وغادرت المستشفى، لقد عادت الآن إلى البيت. انتظرها خارج بوّابة المستشفى وكان يحمل حقيبة بداخلها هدايا مغلّفة بشكل جميل: قلادة من الأحجار الفيروزيّة الصغيرة وكنزة من صوف الألباكا ودبّوسان فضّيّان وصغيران للشعر، لكن

لحظةَ رآها آتية أدرك بشعور عميق أن لا شيء قد ينفعه، حتّى أكثر الهدايا روعة. لا شكّ أنّها رأته أيضا، لكنّها لم تُقبل نحوه وعلى وجهها أيّ علامة تدلّ على أنّها مسرورة لرؤيته .

قالت: «لقد عدتَ إذَن؟».

فقال محاولا تقبيلها: «أنا معك من جديد».

لكنّها ابتعدت وقالت: «لست معي، أنت تقف في الشارع».

أراد أخذها إلى سيّارته، لكنّها رفضت الذهاب معه.

قال: «سنذهب إلى مكان مّا».

«كلّا، لن نفعل. لم أكن أنتظر قدومك».

«لم تكوني بانتظار قدومي؟».

«أردتك أن تأتي، أردتك أن تأتي بشدّة لكنّ ذلك كان منذ شهر».

حاول أن يشرح لها بأنّه لم يكن يستطيع المجيء وبأنّه حاول الاتّصال بها لكنّه لم يتمكّن من التوصّل إليها. فقالت له إنّه لا شيء هناك لشرحه، وفي الآن ذاته إنّ الأمر بأكمله يعود إليها سواء أشاءت البقاء معه أم المكوث بمفردها.

صعدت أخيرا إلى السيّارة معه وسألته عن الرحلة.

حاول مجدّدا أن يشرح لها أنّه لم يتوقّف يومًا عن حبّها وأنّ كلّ ما في الأمر هو أنّه لم يكن قادرا على العودة فورًا، لكنّها أصرّت أنّه ليس بحاجة إلى أن يشرح لها أيّ شيء. فطالما كانت تعلم أنّه سيظلّ يهرب

منها وأنّه يوما مّا سيتركها إلى الأبد، إنّه شيء بداخله أو بالأحرى ثمّة شيء ينقصه، ينقصه بشكل تامّ إلى درجة أنّه لم يكن واعيا بذلك.

فسألها عمّا إذا كان بوسعها على الأقلّ أن تقول ما هو ذلك الشيء.

فكّرت بعض الوقت، ثمّ قالت إنّه ينقصه الأمل.

الأمل في ماذا؟

الأمل في أنّ في الحياة شيئا ذا معنى، وأنّ للحياة نفسها معنًى.

كان غريبا أنّها لم تتحدّث لا عن الحبّ ولا عن الإيمان بل عن الأمل.

أيّ معنى للحياة إذَن؟

إنّها تعني، مثلا، أن تكون إلى جوار المرأة التي تحبّها عندما تكون بحاجة إليك.

أرادت مغادرة السيّارة لكنّه أقنعها بأن تُطيل البقاء. فبقيا ساعة أخرى غير أنّه كان عاجزا عن قول أيّ شيء ذي أهميّة. لقد نسي حتّى أن يعطيها الهدايا التي أحضرها من أجلها. لكنّها كانت سترفضها. عندما خرجت طلبت منه ألّا يتّصل بها من جديد وألّا ينتظرها بعد العمل.

لكنّه حاول انتظارها مرّات عديدة بعد ذلك اليوم رغم علمه بأنّه لا جدوى من ذلك. فقد كان يعرف أنّ كلّ شيء قد انتهى.

في وقت لاحق من ذلك المساء التقى مصادفةً بسكرتيرة هالاما

السابقة، وهي تعمل الآن لحساب «بيتر». لقد كانت تفتّش عنه منذ يوم أمس، فرئيسها الجديد في العمل يرغب في التحدّث إليه.

«متى؟».

«هذا المساء، إثر العمل».

«يعني متى؟».

«حوالي الساعة التاسعة، كلّ يوم. إنّه أمر رهيب يا «بافل». أنا أجلس معه ليس لأنّني مضطرّة إلى ذلك بل لخشيتي من أن يحسبني متهاونة في عملي، بينما لديّ طفلان في البيت يصرخان طلبا للعشاء».

«سيتخطّى الأمر».

دخل إلى غرفة التحرير ليناولهم تسجيلا عن احتفاليّة هدم حصون الحدود. صبّ لنفسه كأسا من النبيذ الأحمر وظلّ يترشّف المشروب ببطء وهو يدخّن وينظر إلى الشاشة.

كان الوزراء وأولئك الأقلّ رتبًا منهم والذين يمثّلونهم يقطعون الأسلاك التي بدت ليّنة وسقطت مع مقصّ قاطعي الأسلاك على الأرض، دون أن تضرّ بأحد. فشعر أنّ شيئا يخصّه بشكل شخصيّ قد انتهى. أعاد الشريط من البداية فلم يكن يستطيع التركيز. لماذا يريد بيتر لقاءه؟ هل سيحاول أن يذكّره بفشله؟ أم هل يكون فقط لطيفا معه؟ بدا وزراء الحكومة على الشاشة ودودين، بل إنسانيّين. في الواقع، لم يكن يبدو عليهم أنّهم وزراء إطلاقا. إنّه جيل جديد من الأشخاص، جيل مختلف جدّا عن ذلك الجيل القديم. إلى متى ستدوم

تعابير الوجه تلك؟

فإمّا أن يأخذ آخرون مكانهم، أو أنّ تلك التعابير ستتأقلم تدريجيّا مع مناصبهم الجديدة. لا يزال يوجَد بعض الوقت قبل أن يذهب للقاء «بيتر»، لكنّ شعوره بعدم الارتياح تعاظم.

أعاد الشريط من البداية مرّة أخرى وأخذ رشفة من النبيذ. يقينا، لا شكّ أنّ ما حدث كان مصدرا كبيرا لشعور «بيتر» بالرضا. فقد كان يُعدّ أرضيّات اللينوليوم ويعمل حارسا في قصر ويخضع للتحقيق بينما كان هو، أي بافل، يقضي وقته يُعدّ أشرطة وثائقيّة تتوافق مع القواعد التي يفرضها النظام ويسافر حول العالم يصوّر أفلامًا تشيد بالرجل الذي قاد البلاد نحو الهلاك. وفي مقابل ذلك يحصل على امتيازات وجوائز. ومن حين إلى آخر يجلب قنّينة من النبيذ ويذهب للقاء صديقَيه المنفيَّيْن في القصر لمجرّد أنّه يرغب في رؤية «آليس». والآن ها هو صديقه يدعوه لمنحه العفو والثقة والعمل. أو ربّما قد لا يكون كذلك. فثمّة شيء مهين في هذا التحوّل. وقد يكون سوكول على حقّ: ومن الأفضل عدم الانتظار.

أوقف الشريط ووضع قدميه على لوحة التحكّم وأشعل لفافة من التبغ. في الحقيقة هو لم يتحصّل على امتيازات عديدة لأنّه لم يشعر قطّ باضطراره إلى تملّق رؤسائه كما فعل أولئك الذين لا نفع لهم. بل كان يجادلهم ويرفض أن يقتطعوا ما كانوا يريدون اقتطاعه. ففي اجتماع مع كبير المنتجين، ذات جمعة، صدح بما كان الجميع يرغبون في قوله: وهو أنّهم ينتجون مزيجا من أشياء مملّة وبلا طعم. وكم كان يرغب في

إضافة «وأكاذيب»، لكنّه عندما رأى التعبير الذي ارتسم على وجه المدير، ابتلع الكلمة. وعقابا له على ذلك، كلّفوه بتصوير اجتماعات كانت تقوم بها منظّمات بلا معنى أو زيارات رسميّة من طرف حلفائهم الرسميّين بالرغم من عدائهم. كانت ثمّة اجتماعات تبعث على القرف وجلسات اعتماد سخيفة وكان مضطرّا إلى الجلوس هناك والإصغاء إلى ذلك الهراء الذي كثيرا ما كان، يُضيع، وفي لحظة واحدة، أيّاما من الجهد. لم تكن الحياة التي عاشها رائعة ولا يسيرة. بل وأحيانا كانت تبدو غير محتملة. لكنّه كان مثل أغلب الناس في هذا البلد يقوم بعمله. لقد كان أحد أولئك المسحوقين يوميّا وليس واحدا من الذين يقودون المحدلة. وكان يغمره الإحساس بالحسرة عندما يفكّر بما كان بوسعه فعله لو منحوه فقط بعض الحريّة. انشغل بمشاهد الغبطة على وجوه أولئك الذين يقطعون الأسلاك وأولئك الذين يشاهدونهم، فلم يتفطّن إلى أنّه كان يذرف الدموع.

كان سكّيرا بائسا لا يعلم إن كان يبكي من الفرح أو الحزن أو الغضب أو ببساطة لأنّه أفرط في الشرب إلى حدّ جعله يذرف الدموع.

بدا «بيتر» متعبا وهو يجلس في مكتب «هالاما» الضخم حيث لم يتغيّر شيء عدا صورة الرئيس والكتب التي فوق الرفوف. قد يكون «هالاما» أخذ كتبه معه أو على الأرجح تخلّص منها، فهو لم يقرأها قطّ على أيّة حال. كان ثمّة جهازَيْ تلفاز في الغرفة، أحدهما يشتغل لكنّ الصوت منخفض.

نهض «بيتر» وترجّل نحوه للقائه. لقد كبُر خلال الأشهر التي تلت

آخر لقاء لهما فكان وجهه شاحبا وممتقعا.

«هل جعلتك تنتظر كثيرا؟».

«لقد جعلت نفسك تنتظر كثيرا أيضا». شعر «بافل» بانقباض في معدته.

«لم أشأ التحدّث إليك لسبب محدّد، لكن خطر لي أنّنا نعمل تحت السقف نفسه ولم نلتق بعد».

«إنّ الأشخاص الذين يعملون هنا، لا يرى بعضهم بعضا لأشهر أحيانا».

«لا نيّة لي في التحدّث معك بشأن أيّ كان».

«لا يمكنني قول الكثير على أيّة حال. ففي عملي، ما يجب التأكّد منه أنّ الإضاءة تعمل على أحسن ما يُرام وأنّ النّظر إلى العدسة أهمّ من النظر إلى الأشخاص المحيطين».

فقال بيتر: «من الصّعب قليلا تصديق هذا الأمر، لكن ليس هذا ما قصدته. أعرف أنّ الناس يعيشون توتّرا».

«بعضهم كذلك، أمّا البعض الآخر فلا».

«ليس عليهم أن يكونوا كذلك».

«ألا تعتقد ذلك؟».

«يبدو لي أنّهم لم يفهموا أنّ هذا أمر مختلف عن التحوّلات التي شهدوها في السابق، فلا أحد سيشرع في أيّ عمليّات تطهير».

«لقد طُرد للتوّ اثنان من عملهما».

«ذاك أمر مختلف. فهما لم يكونا محترفين حقّا في عملهما أو بالأحرى فقد خرقا الميثاق الأخلاقيّ للعمل الصحفيّ. أقصد أنّه لا يمكنك أن تتوقّع من الناس القبول بمذيع يطبّل للديموقراطيّة بينما كان ذلك الشخص نفسه يطبّل منذ شهر للنظام القديم. بالإضافة إلى أنّ أولئك الذين كانوا يفرضون الرقابة لا يمكن أن نتوقّع منهم إنتاج برامج جديدة».

ها قد بدأ يقدّم المواعظ، قال «بافل» في نفسه.

«لم يكن أغلب الأشخاص هنا يطبّلون لأيّ شيء. ثمّ إنّنا نحن من كنّا في جدال مع من يفرضون الرقابة ولست أنتَ».

«أغلبنا تقريبا كان في جدال معهم بطريقة أو بأخرى. وماذا عنك؟ هل أنت سعيد بعملك؟».

«كلّا، لست كذلك. فأنا لا أستطيع التركيز بالصورة التي أريدها».

«لِمَ لا؟».

فهزّ كتفيه قائلا: «إنّ الأجواء في هذا المكان ليست جيّدة كثيرا».

«هل كانت جيّدة في السابق؟».

«كلّا، لكنّ ذلك كان مختلفا. عفوا لقد سألتني وأجبتك. فقد قلت بنفسك إنّ بعض الأشخاص كانوا غير أخلاقيّين. إذَن من الذي يطلق الأحكام هنا؟ ومن يقّرر من المذنب؟ وماذا عنّي؟ ماذا

سيفكّرون بشأني؟».

«لقد أخبرتك سابقا بما يكفي عن رأيي فيك».

«الأمر لا يكاد يكون إطراءً».

«تعرف جيّدا أنّني لم أضع نفسي قطُّ في موقع من يحاسبك. كنت أعرف أنّك أفضل بكثير من أن تفعل هذا».

«لست مضطرّا إلى الاعتذار. إذا كنت تريد منّي الرحيل فلتقل ذلك ببساطة».

«لا أريدك أن ترحل من هنا، لكن إذا لم تكن مرتاحا، فلا يمكنني إجبارك على البقاء».

«أنا سعيد بسماع أنّك لن تجبرني على البقاء». فكّر بينه وبين نفسه في أنّ عليه النهوض الآن ووضع نهاية لهذه المحادثة المحرجة.

لكنّ «بيتر» شرع في الحديث عن نفسه. فقال إنّه فكّر بوجوب قبول المنصب الذي عُرض عليه من باب المسؤولية، لكنّه يجد نفسه الآن بمثابة دخيل. فالبعض يكرهه والبعض الآخر يرغب في التملّق له وآخرون يحاولون كسب رضاه من خلال الإبلاغ عن زملائهم. ومع ذلك فليس لديه لا الميل ولا الرغبة في لعب دور الحكم. فكلّنا نعيش في هذا البلد. ونظرا إلى الظروف الموجودة هنا، فكلّ منّا خرج بندوب بشكل أو بآخر. ومن في وسعه الفصل بين الذنب والبراءة، في حين أنّ ذلك الخطّ الفاصل بينهما يمتدّ أحيانا في مكان مّا، تماما في منتصف كلّ شخص؟ فالشعب انقلب على النظام القديم على أمل أن يرى العدل

متجسّدا أخيرا. كان لا بدّ من القيام بنوع من المحاسبة. قال «بيتر»: «يُحتَمل أنّ هناك من يرسم ذلك الخطّ الفاصل، لكنّه لن يكون أنا. بل ربّما يؤدّي هذا العمل شخص سيستغل ذلك للتغطية على ذنبه هو».

ما العدل؟

إنّه الانتقام الذي يتخفّى تحت عباءة المبادئ السامية.

على شاشة التلفزيون، ها هو الوزير الآن يقطع الأسلاك على الحدود والناس وراءه يهتفون بصخب. نظر «بيتر» إلى الشاشة برهةً وقال: «لقد حاولنا الفرار معا ذات مرّة، هل تتذكّر؟».

قال بافل: «كان ذلك منذ زمن بعيد».

«هل كنّا نحن حقّا؟ الناس يلتقون ويبتعدون وقد يلتقون مجدّدا لكنّهم يصبحون عندئذٍ أشخاصا آخرين».

أومأ «بافل» موافقا. «حتّى لو حدث ذلك، فإمكانهم دومًا أن يستقلّوا السيّارة ذاتها. أقصد إذا كنت أنت أيضا ستغادر».

عندما صعدا إلى داخل السيّارة قال لـ«بيتر»: «أنا لا أعرف حتّى أين تقيم الآن».

«حاليّا أقيم في بيت شقيقتي».

«وماذا عن آليس والأطفال؟».

«لقد بَقيتْ في الريف، كنت أظنّ أنّك تعرف ذلك». ثمّ التزم الصمت وقتا طويلا كما لو أنّه يتساءل عمّا إذا كان يمكنه البوح بما

يفكّر فيه ثمّ استأنف قائلا: «أنا على علاقة بشخص آخر، فتاة تكتب الشعر وتغنّي. آليس جُرحت كثيرا. لقد انفصلنا».

«لم أكن أعرف».

لقد مرّ زمن طويل منذ أن أنجز ذلك الفيلم عن الأطفال الذين فقدوا آباءهم.

قال: «أنا آسف». ولأوّل مرّة منذ أيّام، شعر ببصيص من الأمل غير متوقّع.

الفيلم

(I)

أُقيم حفل الاستقبال بالبيت الصغير الذي كان يقطنه أيضا. كانت الطاولات المغطّاة بشراشف بيضاء منتشرة هنا وهناك وموزّعة على خمس غرف. وكانت في الخارج طاولات أيضا، في أنحاء الحديقة المجاورة للبيت، إلّا أنّ المكان هنا مازال يبدو مكتظّا. لقد دعا كثيرا من المتطفّلين الذين تجمّعوا في شكل حلقات من الشياطين يضعون بذلات رخيصة وبوجوه سوداء وعيون ضيّقة مائلة. فكان أينما يرمي بصره يرى الاتّكاليّين والملحَقين الإداريّين الرديئين المرتدَين أزياء موحّدة مزيّفة وآكلي لحوم البشر تحت ملابس منمّقة ومحاربين بحُلل مزركشة وأدميرالات محالين على التقاعد وسفراء من أماكن بعيدة وغريبة وملوكا منبوذين وجحافل من أشباه الفنّانين وممثّلين وموسيقيّين وضبّاطا. لقد أحضروا له قائمة مدعوّين لكنّ شعورا بالإنهاك ألمّ به قبل أن يُتمّ قراءة الصفحة الأولى فوقّعها كما وقّع مئات الوثائق الأخرى. هو يعلم أنّ هنا أشخاصا لم يكونوا على قائمة المدعوّين، أشخاصا متنكّرين في بذلات رسميّة وسترات نُدل، ومتخفّين وراء ملابس البستانيّين والطبّاخين وتقنيّي الإضاءة وكاميرا مان التلفزيون ومنتشرين على كلّ الجوانب المحيطة به، وبذلك يشكّلون حوله دائرة لا يمكنه اختراقها.

كان يجلس في صالون صغير خارج الحجرات الرئيسيّة. فقد أقحموه هناك وسط ضيوفه الخاصّين من السود، الذين كانوا يجلسون على مقاعد صغيرة من الروكوكو ثمّ انهالوا عليه بأطباق من الكافيار والسلَطة اللذيذة ولحوم سرطان البحر والخرشوف المحشيّ والجمبري والكحول. خلفه تمامًا كانت تقف مترجمة بغيضة تضع نظّارتين وتطنّ بلا انقطاع بصوتها المرتفع الأشبه بالأزيز. فبمجرّد أن تُحرّك المرأة الهمجيّة التي على يساره شفتيها المكتنزتين والمطليّتين بإسرافٍ وتنطق ببعض الأصوات غير المفهومة، وهي أشبه بالهمهمات، حتّى تنهال عليها المرأة التي تقف خلفه بوابل من الكلمات في سرعة تجعله غير قادر على التركيز في فكرة واحدة من أفكاره. ولحسن حظّه فقد دُرِّب على كيفيّة التصرّف في وضعيّة كهذه. فكان يلقي من حين إلى آخر كلمات مثل «يا له من أمر مثير للاهتمام!» وهو يبتسم. ثمّ يلتفت إلى زوجها وينصحه بأن يجرّب رشفة من مشروبه المفضّل ويرفع كأسه مقترحا أن يشربوا في نخب الصراع ضدّ الرأسماليّة والامبرياليّة والاستعمار الجديد والصهيونيّة والعنصريّة والأبرتايد ونخب الحرب ضدّ الفقر والجوع والجهل والفساد والجريمة والمرض والاستغلال. وعندما يومئ ضيفه بغطرسة موافقا على ذلك النخب، ذلك الرجل الضخم الغارق باسترخاء في الكرسيّ الإمبراطوريّ كما لو أنّه ولد ليكون إمبراطورا، وكما لو أنّه لم يكن منذ زمن ليس ببعيدٍ يتسكّع على حافّة نهر النيل، أو أيّ نهر آخر وسط أفراس النهر والتماسيح. يفرغ الرئيس كأسه ثمّ يعلن أنّه أعدّ شيئا غير تقليديّ نسبيّا لإضافة وهج إلى البرنامج. بما أنّ لضيفه دراية قانونيّة، فقد يهتمّ بقضيّة الإرهابيّ

الذي اختطف، بمساعدة إرهابيّ آخر، حافلةً مليئة بالأطفال. لقد حُكم عليه وسُلّطت عليه بطبيعة الحال أقصى عقوبة، لكنّه قبل أن يقرّر بشأن طلب الرجل في العفو، فهو يرغب شخصيّا في سماعه. لقد كان أسلافه، منذ ألف عام، يعملون بالطريقة نفسها. لقد كان ينوي أن يجلب إليه المختطف في وقت مّا خلال الأيّام القليلة الماضية، لكنّه قرّر، من أجل ضيفه، القيام بذلك هنا والآن.

أومأ الضيف الأسود مُصدرا بعض الهمهمات التي كانت تحوّلها المترجمة إلى كلمات مفهومة وتربط بعضها ببعض في شكل جمل مشوّشة تماما. لكن ما أهميّة ذلك؟ ففي النهاية، ليس دوره هنا أن يتأمّل ما يجترّه شخص نشأ أبَواه في الأدغال. سيُريه السجين، وسيدع ضيفه يرى بنفسه أنّ كلّ ذلك الحديث عن غياب الحرّيّة وعن المحاكم المتحيّزة في بلده محض افتراء من طرف أعداء حاقدين، سيُريه أحد المنبوذين الذي حُكم عليه حكما عادلا بالموت. ثمّ سيتحدّث بعد ذلك إلى هذا المنبوذ ويصغي إلى ما يرغب في قوله. إنّه يتفهّم هؤلاء الناس، فقد كان هو نفسه على مسافة شعرة من المقصلة. فأيّ مكان آخر من العالم يمكن أن تجد فيه رئيس الدولة مستعدّا للقيام بشيء كهذا؟ لقد أمر حتّى بإعداد غرفة خاصّة من أجل هذا الحدث. هذا إذا أطاع فريق عمله أوامره وجلبوا له الكرسيّ الذي كان أسلافه يجلسون عليه منذ ألف عام. عندها سيقرّر، وربّما يمنح السجين العفو أيضًا. ولمَ لا يكون عليه فعل ذلك؟ فالعالم يقدّر الرحمة أكثر من العقاب حتّى لو كان عادلا. سيشير إلى هذا التصرّف الرحيم عندما يضرّ به أعداؤه. إنّه يمارس سلطته الشرعيّة فحسب. ثمّ إنّ من يمنح العفو، يمسك بزمام

السلطة بحزم، إنّه يحكم. إنّهم يعرفون هذا جيّدا ولذلك يمتعض بعضهم عندما يدركون هدفه.

لقد سيّر عمله على أكمل وجه وهو يشعر بالرضا عن نفسه وبذلك الإصرار القديم يندفع داخل شرايينه. لقد أحسن أيضا ضيافة مدعوّيه. فقد قال ملتفتا إلى ضيوفه السود: «فلتعتبروا أنفسكم في بلدكم، كما لو أنّكم وسط أهلكم. كلّ هذا أُعدّ من أجلكم. فلتزهر الصداقة بيننا وبين شعوب بلدينا اليوم وغدا وإلى الأبد!» ألقى، وهو يقول هذا الكلام، ببصره إلى الحديقة عبر رؤوس كلّ تلك الفزّاعات التي ترتدي أزياء تنكّريّة هناك، فرأى ينابيع المياه الملوّنة والمتلألئة تندفع في الفضاء، كان يستمع بابتهاج إلى المترجمة وهي تترجم كلماته المفهومة والثاقبة إلى حزمة من الأصوات الصاخبة والبربريّة. استمرّ يقول: «من أجل غدٍ تسوده الحرّيّة ونكاية في أولئك الذين يريدون أن يمتصّوا الحياة من الشعب ويسعون إلى تضليله، لا حاجة إلى مواصلة حكم اللوردات ورجال الدين».مكتبة سُر مَن قرأ

كان وزير الماليّة صاحب الأذنين الكبيرتين، والجالس على مقربة كافية لالتقاط كلّ كلمة، يحرّك رأسه في بطء بشكل لا يكاد يكون ملحوظا. ماذا يحاول أن يقول له؟ ربّما يريد قول إنّ هذا الدجّال الأسود هو فوق كلّ شيء رئيس أساقفة أو كاهن، إن لم يكن نوعا من الأتقياء المحلّيّين، وإنّ عليه أن ينتبه إلى عدم إهانته. هل وصل الأمر إلى نقطة تجعله في بيته وفي بلده، يراقب ما يقوله وما يفكّر به؟

رفع الكوب إلى شفتيه -كان وزير الماليّة يراقبه عن كثب- وأخذ

جرعة صغيرة. ربّما عليه أن يغيّر الموضوع وإلّا فإنّ وزير الماليّة، هذا القزم الضئيل الخبيث، سينزعج. عليه أن يحاول إخبارهم بقصّة مرحة. فبعد أن أطلقوا سراحه من السجن، اشتغل في قسم الدعائم بالمسرح حيث كان يستمع إلى قصص كثيرة. وقد قصّ هو نفسه الكثير منها. ويمكنه أن يقصّ عليهم كيف قبضوا عليه تحت تهديد السلاح، إلّا أنّه في أرض آكلي لحوم البشر والهمجيّين أصحاب البذلات المخطّطة، ربّما يحدث هذا النوع من الأشياء كلّ يوم. في الواقع هم لا يقبضون على الأشخاص هناك فحسب، بل يطلقون عليهم النار. وبذلك الشكل يتأكّدون أنّ خصومهم لن يعودوا إلى مطاردتهم من جديدٍ. لذلك فقد اكتفى بقصص عن إعداد الدعائم لعرض مسرحيّة هزليّة تقليديّة تقع في الجبال. وفي أحد المشاهد كان قطّاع الطرق عائدين إلى مخابئهم في الجبال وأمام المدخل، وكان من المفترض على كلٍّ منهم أن يطمر فأسه داخل عوارض خشبيّة في الأعلى. وكانت لهذه العوارض واجهة من الخشب الليّن التي نُقِعت قبل العرض في الماء حتّى يكون من السهل اختراقها بواسطة الفؤوس. وكان الممثّل الذي لعب دور زعيم اللصوص جاسوسًا لدى الشرطة ومخبرا يخشاه الجميع. وذات يوم عندما كان الرئيس يُلبِس طاقم الممثّلين استعدادا للعرض، أدار عوارض الخشب بحيث صارت الواجهة الخشبيّة الليّنة في الخلف، وحين جاء زعيم اللصوص إلى الركح ولوّح بالفأس بشكل عرضيّ داخل الخشب، ارتدّ عليه وارتطم أرضا. فانحنى الممثّل والتقط الفأس من جديد ولوّح بها في عناية أكبر لكنّ الفأس، مرّة أخرى، لم تخترق الخشب فاهتزّ المسرح

هذه المرّة ضحكا.

عندما أنهى سرد قصّته، حدّق الحاكم الأسود فيه بعينين فارغتين دون أدنى ابتسامة. فلعلّه لا يفهم سوى تلك القصص عن أكل لحوم البشر. وكان وزير الماليّة أيضا يُجيل بصره بشكل يكشف نوعا من عدم ارتياح. عندها رفع الرئيس كأسه التي أعاد أحد أولئك المتآمرين المتنكّرين ملأها، وكان متحمّسا جدّا لقصّته فقلب الكأس كلّها في جوفه دفعة واحدة. أخذ ضيفه أيضا رشفة وكان يبدو راضيًا. فيبدو أنّ هذا المتوحّش يتذوّق الشراب الجيّد. عليه أن يسأله عن الشراب الذي يتناوله الناس في بلده، على حافّة نهر النيل أو مهما يكن البلد الذي يأتي منه. عليه أيضا أن يسأله ماذا كان قبل أن يجعلوا منه بطلا للسلام وحقوق الشعب. ربّما كان ضابط صفّ، اجتمع مع بعض ضبّاط مثله ونظّموا ثورة ناجحة ثمّ نصّب نفسه ورفقاءه في السلاح جنرالات. لكنّ جنرالاته على الأقلّ أثبتوا أنفسهم في ساحة المعركة، فكّر بمرارة، فله زوجة جميلة لم يتخلّصوا منها. لقد كان قادرا على حماية زوجته أكثر منّي، وربّما يكون له أكثر من زوجة. ربّما يملك عددا من الحريم وفي هذه الحالة لن يكون هناك أيّ معنى للتخلّص من واحدة فقط. سيكون عليهم افتعال حوادث كثيرة لهنّ جميعا وهذا ليس سهلا.

تذكّر زوجته المسكينة وكيف سارع الجميع إلى إخباره بالحادث، كانوا هم من خطّطوا للحادث بدقّة عالية ونفّذوه بإتقان كبير على نحوٍ لا يدع مجالا لإثبات فعلتهم. لقد كان محطّما جدّا حتّى إنّه لم يحاكمهم

ولم يعاقب أحدا.

مدّ يده إلى كأسه، لكنّهم نسوا أن يعيدوا ملأه أو بالأحرى أُمروا بعدم ملئه. إنّه ذلك النذل وزير الماليّة مَن أمرهم بذلك وها هو يجلس أمامه مبتسما بتكلّف. من المؤكّد أنّه ارتكب أخطاء وسيعترف بذلك. قذف بالرشفة الأخيرة في جوفه مثلما كان يفعل في تلك الأيّام الغابرة، لكن أَلَمْ يكن باستطاعتهم أن يغفروا له تلك الهفوة عوض أن يتركوه عالقا هنا؟ لقد كان بوسعه طبعا أن يطلب كأسا أخرى من أحد أولئك المتنكّرين في صورة نادل، لكنّ أوّل شيء سيفعلونه غدا صباحا هو انتقاده لفقدانه ضبط النفس وسيكون أعداؤه سعداء جدّا باستغلال هذا الخطإ.

نظر حوله بلا جدوى على أمل أن يأتي أحد لإنقاذه. ولكن من الذي يتوقّع منه أن يفعل ذلك؟ ولماذا لم يجلبوا له ذاك المجرم إلى حدّ الآن؟

وهل أعدّوا الغرفة كما أمرهم؟ بذلك الكرسيّ الخاصّ في وسطها والاثنين وعشرين كرسيّا في الباحة المحيطة بها من أجل الضيوف؟ وهل تذكّروا إعداد الثوب؟ عليه التأكّد من ذلك على الفور فلا يمكن الاعتماد عليهم في أيّ شيء. إنّه وحيد تماما ومحاط بالأعداء. إنّه يعرفهم، فبعضهم يترنّحون ثملين حوله والبعض الآخر يتربّصون به بين المزهريّات الصينيّة أو مختبئين خلف الستائر الثقيلة والحواجز الشبكيّة للنار والأبواب السرّيّة وكلّهم متنكّرون تماما في بذلات وقمصان بيضاء جعلت أجسادهم بمثابة شبكة سميكة، لا يمكن

حتّى لطائر صغير المرور من خلالها والطيران بعيدا بالإضافة إلى أنّ لديهم فخاخا مخفيّة داخل بناطيلهم. أوحى إليه خياله الخصيب بمزيد من الأشياء. نظر حوله فرأى أنّ عددهم قد تزايد الآن: على الجدار المقابل وتحت الجداريّة الضخمة التي تُصوّر مشهد غواية بين امرأة عارية وبجعة، فيطلّ زوج من الأحذية السوداء. رأى بابا صغيرا مفتوحا في أحد رفوف الكتب وعينا شرّيرة تطلّ عبر الشقّ. فالتقطت حواسّه المتصاعدة رائحة لاذعة لذرّات الخداع في الهواء. فلا شكّ أنّهم يخطّطون لشيء مّا ويحيكون خيانة مّا. لذلك فعليه الآن، وبشكل خاصّ، أن يكون منتبها. عليه أن يؤخذ على حين غرّة، لكن يجب ألّا يُظهر أنّه كشف مؤامراتهم.

فهو الذي يمنح العفو وعليه أيضا أن يُنزل بهم العقاب. فمن المفترض أنّه عندما يمنح العفو لذلك الخاطف، يعاقب أيضا بعض هؤلاء المتسكّعين الذين يتظاهرون غدرا بأنّهم أصدقاؤه؟

كان يأمل ألّا يكونوا قد نسوا تعليق اللّافتة العتيقة. فنهض ليتثبّت من ذلك، لكن قبل أن يسير بعض خطوات سمع صوت حكّ شيء معدنيّ خلفه كما لو أنّهم كانوا يشحذون السكاكين خلسة. استدار بغتة ورأى وزير الماليّة، ذلك الضبع المخادع، منكبًّا على محادثة خبيثة مع وزير الداخليّة المزعوم، عدوّه الرئيسيّ. ثمّ فجأة تفرّقا وابتسما ابتسامة عريضة تفوح منها رائحة النفاق. لكنّه تظاهر بأنّه لم يرهما وعاد إلى مكانه وسط الوحوش.

قبل أن يتمكّن من الجلوس، جاء وزير الماليّة المخادع يتبختر على

ساقيه تلك الأشبه بساقَيْ دجاجة راسمًا على وجهه تعبيرا في منتهى الكآبة فأدرك حالما وجّه إليه وزير الماليّة الكلام أنّه سيرشقه بخبر محبط.

«سيّدي الرئيس، لقد علمت للتوّ بخبر سيّئ». كان الشعور بالرضا باديًا على وجهه رغم أنّه حاول إخفاءه. «سيكون علينا تحديد موعد آخر لمسألة منح العفو الخاصّ». وقبل أن يتمكّن الرئيس من سؤاله لماذا يريد أن يفسد الخطّة، أعلمه ذلك الوغد بأنّ السيّارة التي كانت تقلّ الخاطف تعرّضت لحادث وأصيب الحرّاس بجروح بليغة وأنّ الخاطف حاليّا في حالة فرار.

«هل مات الحرّاس؟».

أومأ وزير الماليّة برأسه في إيجاب وذكر الأسماء والتفاصيل. إذَن فقد كانت لديهم في النهاية خطّة. لقد كانت خدعتهم المفضّلة -حادث سير. فقد نجح الأمر في السابق والآن سيعملون على إتمامه حتّى الموت. سيزداد عدد الضحايا وسيجلبونها بعد ذلك إلى هنا كي تظلّ تطارده. يمكنه توقّع مجيئهم في أيّ لحظة الآن. وها قد قتلوا الحرّاس هذه المرّة أيضا ولن يبقى عليه إلّا أن يزيّنهم بعد وفاتهم ويوقّع رسائل التعزية إلى الأرامل ويقوم بالترتيبات من أجل رواتب التقاعد الخاصّة بهنّ. كلّ هذا من أجل إحباط خططه وتقزيمه أمام هذا الهمجيّ الذي يحدّق الآن بشماتة كما لو كان يعرف مسبقا ما فعلوه. ولا يستطيع حتّى مقاضاتهم. لكن في كلّ الأحوال من الذي سيحاكم؟ ليس بيده ما يفعله سوى انتظارهم حتّى يدبّروا له حادث سيّارة هو أيضا.

قال وزير الماليّة بصوت يشبه الطنين البعيد: «هذا مريع، لكن يجب ألّا يلقي بظلاله على المساء. ثمّ أشار بأصابعه إلى أحد الخدم وقد أتى مهرولا يحمل طبقا به كأسٌ من مشروبه المفضّل الذهبيّ والفوّاح. ها قد فعل شيئا ذا فائدة على الأقل -إنّ هذا الثعلب الصغير يحاول تهدئته. انتزع الكأس ورغم أنّ ذلك القَدْرَ الصغير من السائل الذهبيّ نادرا ما يطفئ عطشه، فقد منحه انتعاشا فتذكّر شيئا آخر».

«ماذا عن الرجل الآخر؟».

راقب ذلك القزم المخادع الصغير بابتهاج بينما كان يتلوّى في حرج ويبحث بلا جدوى عن عذر.

تساءل وزير الماليّة بحزم: «هل هذه حالة أخرى من العفو؟».

فقال متذكّرا: «أجل، وبخصوص فيلم، فيلم عن الأفاعي».

كان وزير الماليّة على وشك إطلاق سَيل من الأعذار المعتادة، لكنّه أخطأ في حساباته هذه المرّة، لقد قلّل من شأنه وعجز عن إدراك أنّ الإصرار اليوم يتدفّق داخل شرايينه.

«لمَ ذلك الرجل ليس هنا؟ كيف تجرؤ على عدم إحضاره؟».

خفض القزم رأسه. بدا الآن ضئيلا جدّا حتّى إنّ كلّ ما كان عليه فعله هو رفع ساقه و...

أمره الرئيس قائلا: «أحضره الآن! واجلب لي الآخر أيضا، ذلك الفارّ، الإرهابيّ. اتّبع جميع الوسائل الضروريّة لذلك. أعني جميعها! حالّا!».

لقد نجح على الأقلّ في إحباط مخطّطهم.

(II)

انسدل الظلام في الخارج. فجلس روبرت القرفصاء وسط الشجيرات النابتة قرب الجدار، جائعا وظمآن ككلب هارب، وكانت ساقه تؤلمه .

لقد حان الوقت ليعثر على سقف فوق رأسه في مكان قريب. فيجب ألّا يراه أحد يجوب الشوارع. لذلك فإنّ أفضل شيء يفعله هو أن يختبئ يومين في أحد تلك المباني السكنيّة على الجانب الآخر من الجدار.

تفحّص النوافذ المضاءة. فبدا أحدها مكانا محتملا للاحتماء به، تلك الشقّة الثانية على اليسار في الطابق الثالث وسط البناية السكنيّة. لقد أُشعلت فيها الأنوار للتوّ، فرأى سقفا مطليّا بالألوان وجدرانا تغطّيها الصور من الأسفل حتّى السّقف. ظهرت فتاة شقراء في النافذة وحدّقت في العتمة بعض الوقت. انتظر حتّى يتأكّد ممّا إذا كان بصحبتها رجل، لكن لا، يبدو أنّها بمفردها. فظلّ يراقبها وهي تتجوّل في الغرفة.

لقد تأخّر الوقت. إنّه مساء الجمعة وعليه أن يتحرّك قبل أن يُقفلوا المبنى السكنيّ. تسلّق الجدار الواطئ وقفز على الجانب الآخر منه. وكان ثمّة ممرّ ضيّق فشقّ لنفسه طريقا فيه وسط الشجيرات. كان يأمل ألّا يكون ثمّة أحد مارّا من هناك في هذه الساعة. كان بوسعه أن يرى أمامه الجدران الرماديّة للمباني الجاهزة الصنع، عبر انعكاس ضوء

القمر والحاويات التي تُجمَّع بداخلها بطّاريّات وكذلك صناديق رمل فارغة. عليه أن يحسن استغلال هذه الفرصة. تفحّص النوافذ والسّاحات وآخر الممرّ. فلم يكن ثمّة مخلوق واحد .

عندما عبر الفضاء المفتوح حول البناية، حاول ألّا يعرج بساقه. وقبل أن يصل بخطوة أو خطوتين فقط فُتح باب المبنى السكنيّ المجاور فانبعث عمود من الضوء ولمح وجها منتفخا وعنقا قذرا مخنوقا بياقة قميص زيتيّة اللون، يبدو أنّه أحد الأشخاص يلبس زيّا موحّدا من نوع مّا. لاحظ كلّ هذا في لمح البصر قبل أن يمسك بمقبض الباب ويسحبه. الحمد الله أنّه لم يكن مقفلا، ثمّ ابتلعه الممرّ المظلم. لا يعرف إن كان ابن الحرام الذي في الخارج قد لاحظ وجوده أم لا. فربّما لم يكن بوسعه رؤية الكثير بما أنّه كان خارجا من الضوء نحو العتمة. عبر سلّما تنبعث منه رائحة نتنة. لعلّهم عرضوا صورته على جميع القنوات التلفزيونيّة لذلك لا شكّ أنّ ذاك الرجل يشعر بفضول حول غريب يلج بناية مجاورة من الباب الخلفيّ. وربّما عليه أن يخرج من هذا المكان بأسرع وقت ممكن. لكن إذا كان الرجل قد استدعى الشرطة فليس ثمّة الكثير ممّا يمكنه فعله.

في الطابق الثالث، وإلى جانب الباب الثاني على اليسار تحت الجرس، عُلّقت بطاقة كتب عليها اسم بخطّ اليد:

«فالنتوفا».

ضغط مرّتين على الجرس وانتظر. فسمع صوتا مكتوما لامرأة تقول: «لحظة واحدة». ثمّ صُفق باب وسمع صوت تدفّق مياه في

الحمّام.

أحدهم كان يصعد الدرج. إذا كان الرجل صاحب الزيّ هو من يطارده فلن يتوانى في تسديد اللكمات إليه. إنّه يعرف كيف يتعامل مع أشخاص مثله، ثمّ إنّه لا شيء لديه ليخسره. سمع وقع خطوات خفيفة قادمة من الطرف الآخر من الباب. وتناهى إلى مسمعه من الطابق الذي تحته صليل مفتاح يُدار في القفل. ثمّة أحد من شأنه أن يسمعه. حينئذ فُتح الباب.

لم تكن فتاة تماما، لعلّها تكبره بقليل وكانت جميلة إلى حدّ مّا، تتدلّى أقراط من شحمة أذنيها وترتدي كنزة بكمَّين قصيرَين وتنّورة مهترئة وقبقابا. لمح زيّ ممرّضة باللّونين الأزرق والأبيض معلّقا على مشجب خلفها. «مساء الخير، الأخت فالنتوفا؟».

«أجل، هذه أنا». وحدّقت به تحاول تذكّر ما إذا كان قد سبق لها رؤيته في مكان مّا .

«لديّ رسالة لك».

«ممّن؟».

لم تكن شقراء كما كان يظنّ عندما رآها من بعيد. بل كانت تضع وشاحا أصفر حول رأسها وكانت عيناها كعينيه: واسعتين وزرقاوين داكنتين.

قال، بينما كان الباب في الطابق السفليّ يُغلق أخيرا: «كنت على متن القطار طوال اليوم، وأتيت من المحطّة إلى هنا مباشرة».

«وما الذي عليك إخباري به في هذه الساعة من الليل؟».

«سيستغرق الأمر بعض الوقت لإخبارك، لكن أوّلا، هلّا أعطيتني كأسا من الماء؟».

كان يتكلّم ببطء وهدوء منتقيا كلماته بعناية لكنّ المرأة كانت قلقة.

فقالت: «أنا لا أعرفك ولا أنتظر رسالة من أحد. إذا كان لديك ما تقوله فقله، لا يمكنك الدخول».

لماذا يكلّف نفسه بآداب اللباقة؟ فالمرأة ستبدأ بالصراخ في أيّ لحظة الآن، وليس له وقت يضيّعه. أمسك بيدها ودفعها إلى الداخل قائلا: «اسمي بافل»، ثمّ أغلق الباب وراءه بيده الأخرى.

«أنت... أنت... ارحل حالّا وإلاّ فإنّني...».

فقال بسرعة: «لا تخافي منّي فلن أؤذيك. والآن اجلبي لي شيئا أشربه».

«ليس لديك رسالة لي، فماذا تريد؟».

«ألم تسمعي ما قلته لك؟ أنا أشعر بالعطش، ألا يمكنك أن تحضري لي كوبًا من الماء؟».

فقالت مشيرة إلى باب: «هناك، إذا كنت ظمآن فأحضر لنفسك شرابا ثمّ ارحل وإلّا فإنّني سأبدأ في الصراخ».

«شكرا، لكنّك ستأتين معي».

فرفعت صوتها قائلة: «كلّا، أنا سأبقى هنا إلى جوار الباب. وأنت

يمكنك أن تشرب ثمّ عليك الرحيل بعد ذلك».

فقال بصوت خفيض: «أصغي إليّ... هل ترغبين في معرفة من أين أتيتُ... لقد هربتُ من السجن». ثمّ دفعها أمامه إلى داخل الغرفة التي تغطّي الصور كلّ جدرانها قائلا: «الآن عليّ البقاء هنا وأنت ستظلّين معي».

«أنت مجنون».

«إذا تمالكت نفسك وحافظت على لطفك وهدوئك، لن يحدث لك شيء».

فتح الباب، كانت غرفة الحمّام صغيرة وكانت ثمّة فرشاة أسنان زرقاء في كوب أصفر اللون. فقال وقد أمسك عنقها بخفّة شديدة: «إذا صرخت...»، ثمّ حدّق لحظة في عينيها المتّسعتين رعبا ودون أن ينأى عنها بعينيه قلَب الكوب رأسا على عقب فانقلبت الفرشاة على الأرض. فتح الصنبور وأمسك بالكوب تحت المياه المتدفّقة.

كان صوتها يرتجف عندما قالت: «من أنت؟».

«لا يهم البتّة».

«ماذا تريد؟ ماذا تريد منّي؟».

«لا شيء!» كان يمسك بكوب مليء بالماء. «عليّ أن أبقى هنا معك، بعض الوقت». ثمّ قلب السائل المنعش في جوفه.

«لا يمكنك ذلك! ثمّة من سيأتي عمّا قريب لزيارتي».

كانت تكذب طبعا. وكان يدرك أنّها تكذب.

«هراء!».

«ثمّة من سيأتي».

«إذَن، لن تفتحي الباب».

«لديه مفتاح».

«إذا دخل فحظّه سيّء».

«لا يمكنك البقاء»، كرّرت بعناد.

«لم أتناول شيئا منذ الصباح، أين تحتفظين بالأكل؟».

«هل ترحل إذا أعطيتك شيئا تأكله؟».

«سأرحل» وعدها ثمّ استمرّ قائلا: «هذا آخر ما ستسمعينه منّي».

سحبت ستارا ورديّا، خلفه كان ثمّة موقد كهربائيّ فوق رفّ وإلى جواره سلّة خبز، ومقلاة وإناء للطهي أخضر اللون وعلب كثيرة وبرطمان مربّى. فتحت ثلّاجة صغيرة وتناولت قطعة كبيرة من لحم الخنزير المقدّد وبيضتين. وقالت: «هذا كلّ ما لديّ».

«سيفي ذلك بالغرض».

أشعلت الموقد ووضعت المقلاة فوقه. ثمّ قطّعت اللحم إلى شرائح وألقت بها في المقلاة.

استنشق الرائحة وقال: «إذا لم تحاولي فعل أيّ شيء أخرق، فلن

ألمسك. ثقي بي».

«متى هربت؟».

«لا موجب إلى أن تعرفي».

كسرت البيضتين في السمن الحارّ.

ابتلع ريقه منتظرا الأكل بفارغ الصبر وقال: «ماذا عن رغيف خبز؟».

فتحت سلّة الخبز وسحبت شريحة خبز يابس.

«هل تكفي هذه؟».

«هذا يكفي».

أخرجت طبقا من أسفل الستار البلاستيكيّ وأفرغت محتوى المقلاة فيه. وفي الغرفة الأخرى فرشت غطاء على طاولة صغيرة. كان غطاء أبيض ببقعة مائلة إلى الحمرة في إحدى زواياه، لعلّها بقعة من النبيذ لكنّها أزعجته فجلس بشكل يجعله لا يراها. رفع لقمة من الطعام إلى فمه لكنّها كانت ساخنة إلى درجة أدمعت عينيه، وكان الخبز قاسيا مثل ذلك الذي يقدّم لهم في الزنزانة المنفردة. هو يعرف أنّها كانت تكذب عندما قالت إنّها تنتظر أحدا.

وقفت أبعد ما باستطاعتها عنه وقالت: «عندما تنتهي من الأكل عليك أن ترحل. عليك حقّا أن ترحل، أتوسّل إليك».

قال وفمه مليء بالطعام: «حسنا، سأرحل لكن أحتاج أوّلا إلى أن

أغيّر ثيابي».

«لا ثيابَ من أجلك هنا».

«لديه مفتاح خاصّ به ولا يترك حتّى زوجا من الجوارب؟».

«ثمّ إنّ عليّ الذهاب إلى المستشفى. فلديّ مناوبة».

«أين تعملين؟».

«في قسم الجراحة».

«عظيم. يمكنك أن تلقي نظرة على ساقي، فقد تلقّيت عليها ضربة قاسية أثناء هروبي».

فقالت: «لا يمكنك البقاء هنا. لكن على أيّة حال يمكن أن يسمعنا أحد، فالحيطان رقيقة كالورق».

«إذَن سيكون علينا أن نهمس، أليس كذلك؟» قال بصوت خافت وحدجها بنظرة جعلت المرأة تومئ موافقة بسرعة. ومع ذلك ينبغي عليه ألّا يخيفها كثيرا. فهو بحاجة إليها كي تساعده على الخروج من هذه البلدة، أيًّا كان اسمها، وتساعده في الحصول على سيّارة وترافقه عندما يذهب إلى حبل المشنقة من جديد.

«لن تسلّميني للشرطة، أليس كذلك؟».

«لقد وعدت بأنّك سترحل!»، كانت بالفعل تهمس الآن.

«سأرحل عندما يحلّ الصباح. عليّ كذلك أن أتخلّص من هذه الثياب وإلّا فإنّهم سيلقون عليّ القبض قبل أن أغادر المبنى».

كانت خزانتها مغطّاة بالملصقات أيضا وفي داخلها تنانير كثيرة وبعض الفساتين ذات الألوان المشرقة وزيّ آخر للممرّضات وزوج من الجينز. على أحد الرفوف كومة عالية من الكنزات والقمصان المرتّبة بعناية. وعلى أرضيّة الخزانة كان ثمّة صناديق عديدة، لعلّها صناديق أحذية.

انتزع الجينز من المشجب، إنّه من نوع اللوفيس الأصليّ. يبدو كما لو أنّه سيناسبه -فخبير الطهي بالسجن اهتمّ بصحّته- لكنّ الساقين ستكونان قصيرتين. نظر إلى إحداهما وكانت حاشيتها مطويّة فقال: «اتركي هذا لي».

«لكنّي لا أملك غيره ولا أستطيع توفير المال لتعويضه».

«سأرسل إليك زوجا جديدا من الجينز، بل زوجين حالما أخرج من هنا».

«سيقبضون عليك عاجلا أم آجلا».

«ليس وأنا على قيد الحياة، لن يفعلوا ذلك». كان عليه أن يضيف: ولن يقبضوا عليها وهي على قيد الحياة أيضا، لكنّه لا يريد إخافتها. قذفها ببنطال الجينز ومدّ يده إلى كومة الكنزات الصوفيّة وأخذ واحدة بدت له أقلّ أنثويّة. نزع جاكيته فلم ينتبه إلّا الآن إلى أنّها ممزّقة في الظهر وملطّخة بالدماء. ارتدى الكنزة وكان كُمّاها قصيرين جدّا لكنّه رفعها حتّى مرفقيه. لن يبلغ طولها أعلى الجينز لكنّها ستفي بالغرض. كانت تمسك بالجينز بين يديها محدّقة به.

«إلامَ تحملقين؟ هيّا إنّه الأمر!».

فنهضت وسحبت صندوق أدوات خياطة من تحت السرير. سيكون من المفيد الحصول على زوج من الأحذية، لكنّه يشكّ في أن يعثر على ذلك هنا على أيّة حال. ورغم ذلك فقد انحنى وفتح إحدى تلك العُلب في قاع الخزانة وكاد يصرخ من الفرح لمّا وجده هناك، فما كان لهذا أن يخطر له أبدًا. الآن بدأ يصدّق أنّ بإمكانه الفرار.

سمع المرأة خلفه تقول: «إنّه شعر حقيقيّ، لا تأخذه أرجوك. عليّ أن أضعه فقد فقدت شعري».

وقف أمام المرآة وجرّب الباروكة، متجاهلا قولها. كان فاتحا قليلا بالقياس إلى شعره غير أنّه ناسبه بشكل جيّد. إنّه طويل جدّا لكنّ المقصّ سيحلّ الأمر. بهذا الشعر الطويل وهذه الملابس يمكنه الآن أن يتوجّه إليهم مباشرة، ذراعا بذراع صحبة هذه العصفورة ويسألهم عن الطريق إلى المحطّة.

«أنا أستعيرها منك فحسب، وسأرسلها إليك في طرد خاصّ». راقبها وهي تفكّ الخيوط حول حاشية ساق البنطلون فدبّ فيه الأمل. فهو يملك سقفا فوق رأسه، بالإضافة إلى أنّه هنا صحبة هذه المرأة التي يمكنه أن يمدّ يده ويلمسها متى شاء ذلك. في الواقع يمكنه أن يفعل كلّ ما يرغب به معها. كان يمكن أن يكون الآن ممدّدا في مكان مّا قلقا، كجثّة هامدة ويشعر بالبرد. «أنا مدين لك. سأرسل إليك بعض الأشياء، أشياء لم تريها من قبل».

«هل تعتقد ذلك؟... المهمّ، لماذا وضعوك في السجن؟».

قال بعصبيّة: «من أجل شيء تافه، أردت فقط اجتياز تلك التلال».

«هل كان هذا كلّ شيء؟».

«كان هذا كافيا».

«كنت أعرف في السابق أحدا مثلك»، ثمّ توقّفت وأضافت: «كان مريضا لدينا، في قسم الجراحة. وحاول الفرار أيضا فحكموا عليه بقضاء سنتين تقريبا في السجن من أجل ذلك...».

فكّر أنّ هذا الحوار لن يُفضي إلى أيّ شيء فقال لها: «هل لديك سجائر؟».

أبدت شيئا من التردّد قبل أن تلتقط حقيبة يدها على الأريكة بجانبها وتناوله علبة السجائر وعلبة الكبريت.

أشعل سيجارة واستنشق الدخان بنهمٍ، ثمّ تطلّع فيها من أسفل حتّى أعلى. وفكّر، إنّها جميلة. صحيح أنّها نحيلة قليلا، لكنّها تملك نهدين جميلين. يا إلهي، متى كانت آخر مرّة ضاجع فيها امرأة؟ لكن يجب ألّا يخيفها، ربّما ستستسلم له بإرادتها. فعادة ما يفعلن هذا في النهاية. لكن إذا بدأت الآن في الصراخ أو لاحقا عندما يأخذها معه... كلّا، ينبغي ألّا يخيفها. عندما ينتهي كلّ شيء وينجح في الخروج من هنا، سيحصل على ما يشاء من النساء.

ناولته الجينز، «ها هو... والآن بإمكانك...»، لا ترغب في تكرار نفسها، لذلك فقد اكتفت بالإشارة إلى الباب. «أنا أعني هذا حقّا، من فضلك».

نهض ونزع بنطاله، كان كاحله الأيسر متورّما وتظهر به كدمات زرقاء داكنة، كما لو كان قد صبّ عليه الحبر.

لاحظتْ ذلك وقالت: «هل مشيتَ كلّ هذه المسافة على هذا؟».

فقال: «وإن يكن؟ ماذا كان من المفترض عليّ أن أفعل؟ هل أستقلّ سيّارة أجرة؟».

«من الضروريّ أن تضعها في الجبس، على الأقلّ».

قال: «تبّا لهذا». ثمّ التقط الجينز.

فقالت له: «انتظر لحظة». ثمّ جلبت صندوقا من الخزانة. وأخرجت منه ضمّادة وأمسكت بكاحله محرّكة قدمه، فشعر كما لو أنّها تخترق ساقه لكنّه لم يطلق أنّةً واحدة، بل لم يتحرّك مطلقًا.

فتحت لفافة الضمّاد بحركة رشيقة من أصابعها قائلة: «هل يلاحقونك؟».

«ماذا تظنّين؟».

«وعندما يلقون عليك القبض؟».

«سيخنقونني من هنا»، وأطبق على عنقه بإبهامه وسبّابته مخرجا لسانه. «لكن مثلما قلتُ لك، لن يقبضوا عليّ حيّا».

«لا شكّ أنّك لست جادّا».

فالتزم الصمت.

«هل كنت في السجن بسبب...هل...؟».

«لقد أخبرتك، كنت داخل السجن بسبب شيء تافه. كلّا، لم أقتل أحدا. لو فعلتُ ذلك، لما كانوا ألقوا القبض عليّ قطّ. لكنّني كنت غبيّا».

«ما الذي ستفعله الآن؟ إلى أين ستذهب؟».

«سنرى. لكنّني لن أرتكب الخطأ الأحمق ذاته مرّتين، يمكنني أن أؤكّد لك هذا الآن».

لفّت الضمّادة حول ساقه فبلغت حتّى ركبته. فلم يتمالك نفسه، ووضع يده على كتفها. فقفزت إلى الخلف كما لو أنّه سكب عليها ماء مُغلّى وقالت: «أبعد يديك القذرتين عنّي!».

فخطا خطوة نحوها لكنّه لم يكد يستطيع تحريك ساقه وقال: «أغلقي فمك! لم أكن، لم أكن أنوي...».

ثم تعمّد أن يدير ظهره نحوها وارتدى بنطال الجينز. كان ضيّقا قليلا ولم يكد يستطيع سحبه إلى أعلى فوق كاحله المضمّد لكن عدا ذلك، فقد كان مناسبا. فتح الصنبور ليتدفق بعض الماء في الحوض ورشق نفسه بالماء. انخفض التورّم الذي على جبينه قليلا وستخفي الباروكة الندبة التي تلتفّ حول جبينه حتّى تبلغ صدغه الأيمن. عاد ليأخذ الباروكة ووضعها على رأسه وقال: «إنّها تحتاج إلى شذب».

«مالذي تفكّر بفعله بعد ذلك؟».

«أحضري لي مقصّا».

«كلّا! أرجوك!».

مدّ يده إلى صندوق أدوات الخياطة وأخذ مقصّا وقصّ بعض الخصلات من الباروكة ثمّ وضعها على رأسه من جديد ووقف قبالة المرآة. وفكّر، كيف يمكن أن يتعرّفوا عليه الآن؟

قالت من خلفه: «هلّا خرجت من هنا الآن؟ عليك أن تفرح لأنّهم لم يقبضوا عليك إلى حدّ الآن».

«دعيني أهتمّ بذلك». قال، رغم أنّها يمكن أن تكون على حقّ.

لقد تحصّل حتّى الآن على أكثر ممّا كان يأمله وعليه أن يختفي من هنا بأسرع ما يمكن قبل أن يطلقوا في إثره الكلاب فتشتمّ رائحته، وقبل أن يبدأ ذلك الوغد الذي يلبس زيّا بالتفكير في ما رآه، أو قبل أن يتساءل ذلك الفضوليّ الذي يقطن في الطابق الذي تحتها عمّن يتحدّث إليها.

ولكن ماذا عن هذه المرأة؟ هل هي حمقاء إلى هذا الحدّ حتّى تتوقّع خروجه من هنا ببساطة وتركها؟ فحال مغادرته هذا المكان، ستهرع إلى أقرب مركز للشرطة وتبدأ في الحديث. عليه أن يقنعها بالذهاب معه. لكن ماذا لو لم يستطع ذلك؟ أو ماذا لو وافقت ثمّ شرعت في الصراخ حال خروجهما إلى الشارع؟ لم يفكّر في هذا قبل الآن.

أشعل سيجارة أخرى وجلس. فحتّى لو تركها هنا وكمّم فمها وربطها فسيظلّ بإمكانهم العثور عليها. إذَن عليه أن يجهز عليها... لكنّه لا يريد أن يفعل ذلك ولن يكون هذا ذا فائدة كبيرة لأنّهم سيكتشفون ما نقص من خزانتها وسيحدّدون هويّة ما يبحثون عنه.

أرادت المرأة النهوض لكنّه أشار إليها بألّا تبرح مكانها. «يوجد شيء آخر عليّ أن أخبرك به»، ثمّ أشعلت سيجارة وسحبت المقعد قليلا وجلست.

فقال: «هذا ممتع، لكنّني لم ألحظ اسم هذه العاصمة في الطريق إلى هنا. كم تبلغ المسافة من هنا إلى هناك؟».

«إلى أين؟».

«إلى السياج».

«إنّها طريق طويلة. لن تستطيع قطعها أبدا».

«كم تبعد؟ ساعة؟».

«هذا يعتمد على الوسيلة التي ستسافر بها».

«على متن السيّارة».

«هل لديك واحدة؟».

«سأحصل عليها».

«حوالي الساعة».

«جيّد، يمكننا الذهاب!».

«يمكننا؟».

«ستذهبين معي».

«كلّا! كلّا!» قفزت من الكرسيّ فبدا له أنّها ربّما كانت تنوي الهرع

إلى الممرّ والشروع في الصراخ. فأحكم قبضته على كتفها ووضع يده الأخرى على فمها وهو يأمرها: «اجلسي». وكان إلى جانب سلّة الخبز سكّين ممدّد، ذلك الذي استخدَمَتْه في تشريح اللحم. فالتقطه ومرّره على إبهامه ليختبر مدى حدّته. ليس سيّئا بالمرّة، ثمّ حشره في جيب الجينز الخلفيّ.

«انظري الآن. ستذهبين معي وستظاهرين بأنّنا معا. سيكون كلّ شيء على ما يُرام إذا تعاونت معي. أمّا إذا لم تفعلي، فلن يكون كذلك». سحب السكّين من جيبه وأعاد تمرير إبهامه على حافّته الحادّة وقال: «هل فهمت؟».

رمقته دون أن تتجرّأ على الحركة. ثمّ تمتمت: «أيّها الوغد».

لم يجبها. سمع بعض الضجيج في الخارج فنهض من الكرسيّ بحذر شديد واتّجه نحو النافذة.

غير معقول، كيف أمكن لهم تتبّع أثر رائحته؟ لكن ها هم هناك. اثنان برفقة الكلاب. فعاد على أعقابه مسرعا من النافذة.

«ما الأمر؟» سألته ثمّ ألقت نظرة إلى الخارج. «هل يطاردونك؟».

كان بوسعه سماع نباح الكلاب. لقد أضاع فرصته في النجاة. فقد أهدر الكثير من الوقت هنا، يتسكّع ويدردش.

فسمعها تقول خلفه: «اذهب إذَن، ما الذي تنتظره؟ هل تريدهم أن يعثروا عليك هنا؟».

«اخرسي!».

إلى أين المفرّ الآن؟ ربّما إلى أعلى في العلّيّة ثمّ نحو السطح لكنّه لن يستطيع المضيّ بعيدا بهذه الساق اللعينة. لكن على أيّة حال، فقد طوّقوا المبنى. كان يستطيع سماع سيّاراتهم تتوقّف في الأسفل وبوسعه تصوّر كلّ واحد منهم يحمل مسدّسا في يده وقنابل يدويّة في جيبه. لكنّهم لن يصلوا إليه بهذه السهولة. من الجيد أنّها هنا. فلن يخدعوه هذه المرّة. فإمّا أن يوفّروا له سيّارة ليغادر بواسطتها صحبة المرأة أو سيكون عليهم حملهما معًا في نعش خارج هذا المكان.

أصبحت تصرخ في وجهه الآن: «ما الأمر؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ماذا تفكّر أن تفعل؟».

«اخرسي!».

أخذت تصرخ وتحاول دفعه نحو الباب: «هيّا ارحل من هنا! لا يمكنك البقاء هنا، لن تنتظر حتّى يجدوك هنا».

فصفَعها على وجهها وأشار إلى السرير قائلا: «عودي، عودي إلى هناك».

أمسكت وجنتيها وشرعت في البكاء.

صُفق الباب وسمعا صوت طَرق قويّ لأقدامٍ على الدرج. كم تبقّى منهم في الخارج يا ترى؟ عليه أن يظلّ بعيدا عن النافذة الآن وأن يفعل شيئا مّا كأن يوصد الأبواب. «هيّا!».

نهضت بخنوع وقالت متوسّلة: «دعني أذهب، ألا تستطيع على الأقلّ أن تسمح لي بالذهاب؟ فربّما يطلقون النار».

«لن يطلقوا النار مادمتِ هنا. فأسدي إليّ هذه الخدمة». ثمّ دفع الخزانة المغطّاة بالصور لتنزلق صوب الباب الأماميّ.

«دعني أذهب، أرجوك دعني أذهب. فأنا لم أفعل لك شيئا».

بعض المجهود الإضافيّ فقط وسيكون من الصعب فتح الباب. سمع وقع الخطوات أعلى الدرج.

«دعني أذهب وإلّا سأصرخ».

فقال: «هيّا اصرخي، دعيهم يعلمون أنّك هنا معي».

سدّ الباب بواسطة الخزانة. ها إنّهما الآن هنا معًا. هل سيجرؤ البوليس على فعل ما فعلوه إذَن؟ استعاد في ذاكرته تلك اللّحظة، وصفير الرصاص وأنين الرجل وراء المقود. كان العرق يسيل على جبينه وهو يقول: «هيّا –اصرخي، لماذا لا تصرخين؟».

توقّفت الخطوات خارج الباب ودقّ الجرس. كانت الكلاب تنبح وتزمجر فبدت كما لو أنّها على استعداد لابتلاع الطريق لتصل إليه بأقصى سرعة. تعالى صوت الجرس من جديد.

ما هذا؟ هل هم في زيارة إلى هنا؟ لديهم مسدّسات في أيديهم وكلاب إلى جانبهم وقنابل يدويّة في جيوبهم ويدقّون الجرس؟ لعلّهم لا يرغبون في إزعاج أحد. وربّما يفضّلون أن يفتح الباب لهم ويركع رافعا يديه. لكنّ هذا لن يحدث. يستطيعون العثور عليه هنا ممدّدا، لكنّه سيسعى إلى أن تكون يداه إلى جانبه .

اتّكأ على الصور الملصقة على الخزانة. وكانت المرأة بجواره ترتجف

وتنتحب بصوت عالٍ. فليسمعوها، فعندها على الأقلّ سيعلمون أنّها هنا قبل أن يبدؤوا في إطلاق النار. من أين ستأتي الرصاصة يا ترى؟ عبر الباب؟ أم عبر النافذة؟ لكن لا يوجد أيّ مكان يمكنهم أن يتّخذوه موقعا مقابلا للنافذة، ما لم يكن على سطح المستودع حيث اختبأ ذلك اليوم. لكن لعلّهم لن يطلقوا النار. سيكسرون الباب وسيندفع فصيلٌ كامل منهم إلى الداخل. لكنّهم لن يقبضوا عليه حيّا. وضع يده داخل جيبه وتحسّس السكّين ليطمئنّ أنّه هناك. فلن يخدعوه هذه المرّة، ولن يتحدّث إليهم أصلا، لن ينطق بكلمة واحدة!

توقّف الجرس بغتة وسكنت الكلاب. ربّما أبعدوها. كانت إلى جانبه وكتفاها ترتعشان ثمّ همست:

«دعهم يدخلون، لا فائدة من هذا. دعهم يدخلون».

«اسأليهم عمّا يريدون».

«إنّهم يريدون الدخول».

«لا أطلب رأيك أيّتها العاهرة».

أدارت رأسها نحو الخزانة وانفرجت شفتاها ثمّ زمّتهما من جديد.

«هيّا تابعي، اسأليهم!».

فقالت بصوت ضعيف: «من بالباب؟».

«ارفعي صوتك، اللعنة!».

«من هناك؟»

سمع بعض الأصوات الرجاليّة ثمّ صوتا غريبا لكنّه مألوف، إنّه

الصوت ذاته الذي كان يصرخ عليه في مأوى الأطفال وفي الجيش وفي السجن: «الأمن، افتحي الباب!».

التفتت إليه وكان وجهها شاحبا والأقراط في أذنيها ترتعش.

«قولي إنّك لا تستطيعين فتح الباب، قولي لهم إنّك رهينة».

ردّدت كلماته.

«قولي إنّني أريد قتلك».

فالتزمت الصمت.

«قولي إنّني سأقتلك إذا لم يوفّروا لنا سيّارة ويسمحوا لنا بالخروج من هنا».

لاذت بالصمت مرّة أخرى.

«قولي شيئا أيّتها العاهرة!».

كانت تنتحب.

فجاء صوت من الخارج: «بارتوس، نعرف أنّك في الداخل. افتح الباب!»

«كرّري ما قلته لك، أيّتها العاهرة، وإلّا سأقتلك».

«لقد قال إنّه سيقتلني إن لم تتركونا نغادر».

«بارتوس، لقد قرّر رئيس الجمهوريّة منحك عفوا. لذلك فمن مصلحتك ألّا تفعل شيئا يجعله يغيّر رأيه».

«أخبريهم أنّهم حفنة من الكاذبين اللعينين».

ساد الصمت مرّة أخرى وكانت المرأة تنتحب وهي ترتعش من رأسها حتّى أخمص قدميها. أدارت وجهها المبلّل بالدموع نحوه وكانت إحدى وجنتيها قد بدأت بالتورّم وقالت: «دعني وشأني، دعني أذهب».

فانفجر ضاحكا. فقد حكموا عليه بالإعدام عندما لم يؤذِ أحدا، وعندما ترك كلّ أولئك الأطفال لحال سبيلهم بناء على الوعد الذي قطعوه له. والآن بعد أن أرسل سيّارة مليئة بالحرّاس إلى الجحيم، سيمنحونه العفو؟ ربّما يظنّون أنّ السيّارة خرجت عن السيطرة على طريق زلقة. جعلته تلك الفكرة يرغب في الضحك أكثر. فضحك بشدّة إلى درجة أنّهم تمكّنوا، ولا شكّ، من سماعه في الخارج. فليعرفوا كم هو مستمتع بهذا الأمر.

«بارتوس؟ هل أنت الذي اختطف باص المدرسة؟» رمقته باندهاش وقالت: «دعني أذهب. لقد تركتهم يذهبون».

«كانت تلك أكبر حماقة ارتكبناها. لو لمسوا ذلك الباب...» سحب السكّين وأشهره في وجهها وقال: «هيّا قولي لهم ماذا سيحصل».

«سنمنحك دقيقتين إضافيّتين يا بارتوس».

أبعد السكّين قائلا: «أخبريهم!».

«بحقّ السماء، من فضلكم اذهبوا بعيدا ودعونا وشأننا. إنّه سيقتلني».

«بارتوس إذا وضعت إصبعا على تلك المرأة فلن تغادر هذا المكان حيّا».

ضحك.

«أخبريهم أن ينصرفوا وأن يوفّروا لنا سيّارة ويمنحونا الضوء الأخضر على كامل الطريق من هنا حتّى الحدود».

«إنّها الدقيقة الأخيرة يا بارتوس».

«دعني أذهب، أنت مجنون، لن يمنحوك سيّارة أبدا لكنّهم سيمنحونك العفو. لقد سمعتهم».

فضحك قائلا: «العفو؟».

«لديّ أمّ مسنّة. إنّها بمفردها ومريضة. دعني أذهب. فليس ذنبي أنّهم يريدونك... أرجوك، لقد أطعمتك وضمّدت ساقك، وكان بإمكاني طلب النجدة لكنّني لم أشأ خيانتك».

فضحك.

«أنا أشفق عليك، أشفق عليك الآن. أودّ مساعدتك لو كان بإمكاني ذلك لكن...».

«أغلقي فمك اللعين، أيّتها العاهرة الحمقاء».

«بارتوس، لقد استنفدت وقتك!».

بدؤوا بمحاولة فتح القفل.

فقبض على ذراعها ولواه وسحبها بعيدا عن الباب.

«يا إلهي، إنّه سيقتلني! النجدة! النجدة!».

وضع يده على فمها وحاول جرّها بعيدا عن الباب.

قاومته وحاولت أن تركله وتعضّه. فلوى ذراعها بشدّة فبدأت الآن

تصرخ بشدّة وهي في حالة رعب حقيقيّ. دفعها أمامه إلى حجرة أخرى وضربها بقوّة حتّى وقعت على الأرض وتطاير وشاحها من فوق رأسها. لم تكن على فروة رأسها شعرة واحدة. فاستدار، مشمئزّا، وأقفل الباب.

سمع طقطقة في البهو لكنّه لم يعد يكترث بعد الآن. إذا أرادوا القبض عليه فليفعلوا. طرحها أرضا وأحكم قبضته على عنقها. ظلّت تركله وتسدّد له الضربات على معدته وتخدش وجهه لكنّه لا يكاد يعي ذلك. لم يكن يعبأ، فلا شيء يهمّ بعد الآن. رماها أرضا ونزل بركبتيه على نهديها والتقط ذلك الرأس الأصلع الغريب بقبضته وبدأ يدقّه على البلاط. كان الجسد تحته يتخبّط ويئنّ ممّا أثار غضبه أكثر فظلّ يدقّ رأسها على الأرض مثل مجنون. فتوقّفت أخيرا عن المنازعة وهمد جسدها. سحب السكّين ووضعه على عنقها. سينتظرهم في هذه الوضعيّة حتّى يشاهدوا أنّ الأمر يتطلّب حركة واحدة فقط...

كان بوسعه الآن سماع أصواتهم، وراء الباب، والصوت الحادّ للمثقاب.

نظر إلى وجه المرأة الفارغ وجبينها الشاحب والمتعرّق. إنّها لا تتحرّك. ماذا لو كان قد أجهز عليها؟ ما فائدة رهينة ميّتة؟ انحنى عليها وحاول سماع صوت أنفاسها لكنّه لا يستطيع سماع شيء مع أزيز المثقاب المريع.

خنقه الخوف وأصبح يرتجف من البرد. سيقبضون عليه فهو لم ينجح في الهرب منهم في نهاية المطاف. ظلّ يهزّ رأسها الهامد: تكلّمي، قولي شيئا. فليس هذا ما كان يريده، أراد فقط الفرار من هنا، حيث لا

يوجد أحد، حيث لا يوجد كائن واحد... كان دائما... مثلما هو الآن: وحيدا تماما. لم أكن أنا، كانوا هم، لذلك ينبغي ألّا تفكّري أنّني... كان المفتاح ملقًى على الأرض إلى جانبه، ثانيتان إضافيّتان وسيجرّونه إلى المقصلة التي بانتظاره، لكنّهم لن يقبضوا عليه حيّا. حدّق في السكّين الذي لن ينقذه الآن ما لم يطعن نفسه به، لكنّه فجأة لم يعد يملك القوّة، لم يعد حتّى يعرف أين يغرز النصل. لكنّ النافذة كانت مفتوحة، يمكنكم جميعا تقبيل مؤخّرتي، أتبرّز على عالمكم. وكما لو أنّه يتسلّق حائطا واطئا جدّا، قفز على عتبة النافذة ودون أن ينظر إلى أسفل، ظلّ يحدّق أمامه في سطح المستودع والسماء الداكنة من ورائه، سماء دون نجوم. خطا خطوة واحدة، خطوة عاديّة جدّا كما لو كان يقف على أرض صلبة، كما لو أنّه ما يزال يركض، مستمرّا في رحلته المستحيلة لاجتياز الحدود التي لا يمكن اجتيازها.

(III)

كان «فوكا» نائما في شقّة أمّه عندما أيقظه الهاتف. تحسّس السمّاعة بيديه وأجاب: «من المتكلّم؟».

«حبيبي، هذه أنا إيلا، الحمد الله أنّك هناك. إنّهم بانتظارك...».

«من الذي بانتظاري؟ هل جننت حتّى تتّصلي بي وهم بجانبك».

«ليسوا هم. ليسوا الذين تعتقد، لقد جاؤوا ومن المفترض أن يأخذوك إليه».

«إلى أين؟».

«إلى القصر، إلى الرئيس. تماما مثلما أخبرتك. سيستقبلك!»، كانت «إيلا» تصرخ.

«متى؟».

«الآن، الآن حالّا».

«لن أذهب إلى أيّ مكان، أريد النوم فقط. لم أطلب منك فعل هذا».

«حبيبي، نحن قادمون إليك الآن. سنكون هناك بعد قليل».

رشق وجهه ببعض الماء. إنّها الواحدة ظهرا تقريبًا. هذا جنون حقّا. ربّما هو يحلم فقط أو ربّما هذه مجرّد دعابة سخيفة. لم يعرف أَيَعُود إلى النوم أم يضع عليه أفضل بذلة لديه. ذهب إلى النافذة وحدّق في الشارع المقفر. نظر إلى الحجارة المرصوفة المبلّلة واللّامعة في انعكاس مصابيح الشارع، ثمّ إلى بريق أضواء السيّارات التي تخيط الشارع ذهابا وإيابا وسيّارة ليموزين سوداء تتوقّف أمام بيته. قفز رجل خارج العربة وفتح الباب الخلفيّ فترجّلت «إيلا» إلى الخارج حتّى تجلب له الأخبار الجيّدة بنفسها.

ظلّ رجلان ينتظرانه إلى جانب السيّارة. لم يكن قادرا على تمييزهما من الرجلين اللذين تفحّصا في الآونة الأخيرة بطاقة هويّته وصادَرا فيلمه. كانت سحنتهما رماديّة ويرتديان الأسود، لكن هذه المرّة، لمعت أسنانهما في ابتسامة رسميّة لكنّها ودودة. وكمن يقدّم اعتذارا طلبا منه تفحّص بطاقة هويّته وقد بدا عليهما السرور وهما يؤكّدان له أنّه هو

بالفعل. وضعاه في المقعد الخلفيّ وانطلقا فورا، تاركَيْن «إيلا» على الرصيف، تلوّح له. كانت سعيدة، ففي النهاية كانت فكرتها، وكانت هي من أجرت اتّصالاتها وهي تظنّ أنّ طالعه، وطالعها بالنتيجة، سيتحسّن الآن. فسيحصل على عمل، والعمل سيجلب له المال، وبالمال سيشتريان بيتا، والبيت سيجعلهما سعيدين، وأخيرا سيصبح كلّه لها.

استقرّ في المقعد الخلفيّ وراقب مرور المدينة. لم يكن يعرف كم ستستغرق الرحلة، ولا حتّى ماذا سيقول لرئيس الدولة إذا كان بالفعل سيستمع إليه أو ماذا سيطلب. رغم أنّه لم يكن يريد الاعتراف بذلك لنفسه فإنّه كان متحمّسا. كان الأمر كما لو أنّ الشيطان بنفسه دعاه إلى قمّة الجبل وجعله ينظر إلى السفح ويطلّ على جميع ثروات العالم. وهو يقول له:

- كلّ هذا لك.
- حسنا، لكن كيف سأكافئك، يا أمير الظلام؟
- سنتحدّث عن هذا لاحقا.
- كلّا، أريد أن أعرف ذلك الآن. هل تريد ولائي؟ حرّيّتي؟ حياتي؟ أم روحي؟

انعطفت السيّارة لتلج طريقا رمليّة ضيّقة. وتوقّفت أمام بوّابة، ففُتحت البوّابة الحديديّة لينزلوا أسفل ممرّ تغطّيه الرمال بين صفّين من الأشجار العالية الدائمة الخضرة، ثمّ توقّفوا أمام بناية واطئة ينتشر الضوء فيها بكلّ ركن. وطلبوا منه أن يخرج من السيّارة.

كانت السيّارات مركونة في كلّ مكان والسائقون يقبعون بعيون يثقلها النعاس داخل تلك السيّارات القريبة منه. بدت بعض الأجساد مترنّحة في البعيد وتدفّق الضوء وجلبة الأصوات من النوافذ المفتوحة. ثمّ خطا نحوه رجل وقور يرتدي طقما مصمّما بمثاليّة وتوقّف أمامه قائلا: «كيف كانت الرحلة يا سيّدي؟».

شكره على سؤاله. فأشار الرجل إليه بأن يلحقه. دلفا إلى بهو تتوسّطه أرائك جلديّة عديدة. وكانت الجدران الخشبيّة عارية بشكل جليّ، أمّا الأشياء الأخرى التي في الغرفة فتتكوّن من صناديق زجاجيّة عديدة، بعضها مليء بالماء والبعض الآخر مليء بالرمل تنبثق منه أغصان ملتوية لنباتات غريبة ونافرة. قال الرجل: «هلّا جلست هنا دقيقة؟».

كان بوسعه رؤية جسم بنّيّ أسود لثعبان في أحد الصناديق البلّوريّة. نهض لكنّه خشي أن يجد نفسه بصدد خرق نوع من البروتوكول لو فعل ذلك. فعاد إلى الجلوس. أيّ التزامات يقوم بها الرجل عندما يقبل المساعدة؟ هل يتنازل عن حرّيّته أو على الأقلّ عن استقلاليّته؟ ما قيمة العمل إذا كان ثمنه فقدان الاستقلاليّة؟ فما كان يبدو أنّه استجابة لصلواته قد يفتح الباب ببساطة على هلاكه.

انتزعه من أفكاره صوت صفّارات الشرطة المفزعة. فنهض ثمّ جلس من جديد. كان يمكنه سماع صوت أبواب السيّارة تُصفَق بقوّة وأصوات الأشخاص. إثر ذلك دخل رجلان يرتديان زيّا ويحملان نقّالة. نظر إليهما لكنّهما لم يعيراه أيّ اهتمام. بل وضعا النقّالة على

الأرض وظلّا ينتظران.

كان الجسد الملقى على النقّالة بلا حراك وتقريبا مغطّى تماما بلحاف يبلغ فمه. كان رأسه ملفوفا بعمامة من الضمّادات وعيناه مختبئتين خلف نظّارتين سوداوين. فلم يكن يظهر منه سوى أنفه، بارزا بحدّة من وجهه. تملّكت «فوكا» حالة من القلق بينما كان يحدّق في هذا المخلوق الغريب.

ظهر الرجل الذي بدا مدير مراسم الحفلات من جديد وقال: «الرئيس بانتظارك». فنهض «فوكا» من مقعده. والتقط الرجلان اللذان يرتديان زيّا النقّالةَ. قطعوا غرف صالون عديدة متجاورة، حيث بدا من الواضح أنّ حفلا أقيم هنا في الآونة الأخيرة. فقد كانت الطاولات مبعثرة هنا وهناك وفوقها كؤوس فارغة وأطباق متّسخة وبقايا طعام جفّت فوق أطباق كبيرة فكان ثمّة جحافل من الذباب تحوم حول قطع من الكافيار وكتل من لحم الخنزير في الحساء، وفتات من قطع معجون كبد الإوزّ، وأجزاء نصف مأكولة من الدجاج والديك الروميّ.

كانت آخر غرفة دخلها تعجّ بأشخاص يتكلّمون بصوت عالٍ. لكن لحظةَ دخوله، توقّف الجميع عن الحديث. فنظر حوله وقد شعر بإحراج كبير. لاحظ وجود مقاعد بظهور عالية منتصبة في فضاء مربّع الشكل وفي وسطه أريكة رائعة، كانت أشبه بعرش، فبدت أنّها لا تنتمي إلى هذا المكان. كانت لها سيقان مطليّة بلون ذهبيّ وظهرٌ من الخشب في قمّته تاج مذهل من الخشب المنحوت تزيّنه مجموعة من

الماسات ويتكدّس فوقه رجل مسنّ بروب أسود.

في البداية لم يكن متأكّدا أنّه الرئيس إذ لم يسبق له أن رآه يرتدي مثل هذه الثياب. لكنّ ذلك الجسم الممتلئ وتينك العينين الرّماديّتين وتينك النظّارتين السميكتين وتينك الشفتين المكتنزتين، كلّ هذا ينتمي من دون شكّ إلى رأس السلطة.

لماذا أحضروه إلى هنا في منتصف الليل، وسط عدد كبير من الضيوف الثملين؟ تعرّف على بعض الوجوه التي كان يراها في الصحف. وتعرّف أيضا على الرجل الضخم الأسود الذي كان يحاول أن يضفي على نفسه بعض الوقار بجلوسه في مقعد إلى جوار العرش: إنّه ضيف رسميّ هنا أتى في زيارة للدولة. تعاظم لديه الشعور بالغموض، ما الذي يحدث؟ هل سيجلبون له كاميرا ويأمرونه بتصوير البعض من لقاء مجنون في منتصف الليل؟

لقاء مع من؟

لقاء مع نفسه.

ظهر في تلك اللّحظة رجل ضئيل أشبه بقزم وراء الرئيس، كما لو أنّه انبثق من اللّامكان. كانت لديه أذنان كبيرتان وطويلتان تنتصبان على جانبَيْ جمجمته مثل الأبواق. همس بشيء إلى الرئيس. لم يكن «فوكا» يستطيع سماع الكلمات منفردة لكنّه يظنّ أنّه سمع اسمه وكلمة «إرهابيّ». أضاء وجه الرجل المسنّ وقد أدرك الأمر. انفرجت شفتاه على ما يشبه الابتسامة وأومأ إليه قائلا: «حسنا، أخيرا. هيّا اقترب!».

اقترب «فوكا» من العرش لأنّ الكلمات كانت موجّهة إليه بشكل مباشر. فاندفع الرجلان اللذان يحملان النقّالة خلفة إلى الأمام. كان العجوز يراقبهما، وعندما وضعا النقّالة عند قدميه، تحرّك شيء مّا في وجهه المتصلّب، ولاحت تكشيرة لا تكاد تُلاحَظ أو ربّما هو تعبير عن الرضا.

لم يكن «فوكا» يعلم إن كان مسموحا له بقول أيّ شيء أم لا، مادام لم يوجّه إليه الكلام. وعلى كلّ حال فهو لا يعرف ماذا سيقول إذا حدث ذلك، لهذا اكتفى بالانحناء. تفحّصه الرجل الأسود باهتمامٍ وقال له العجوز الجالس على عرشه بصوت خفيض: «حسنا والآن يا بنيّ لقد بعثت بطلبك وها أنت هنا. كان يمكنني أن أرسلك، بجرّة قلم واحدة، إلى مكان لا يمكنك العودة منه. لكنّك ستحصل على فرصة أخرى وأنت هنا كي تشرح موقفك. ماذا تقول إذَن؟ وبأيّ شكل تودّ الدفاع عن نفسك؟».

حاول الرجل العجوز أن يثبّت عينيه عليه، لكنّه لم يستطع. فظلّتا تتنقّلان هنا وهناك، تنطفئان تارة وتعودان إلى الظهور تارة أخرى من مكان مّا في الأعماق. كانتا نديّتين ومليئتين بالدموع: «ها إنّك تلوذ بالصمت الآن، لكن ماذا حدث عندما رفعت يدك في غضب؟ لم تتردّد حينها ونفّذت القتل».

وقف «فوكا» مذهولا ولم يستطع إلّا تحريك رأسه. تقدّم الرجل الضئيل صاحب الأذنين الكبيرتين بضع خطوات وتمتم بشيء مّا في أذن الرجل العجوز. فأومأ العجوز وبدا أنّ عينيه الآن قد انقلبتا إلى

الداخل تبحثان عن شيء في الأعماق. ثمّ وبصوت مرتفع قال شيئا ربّما كان موجّها إليه أو ربّما إلى المستشار أو إلى أحد آخر: «غير مهمّ، غير مهمّ. ذاك المهتمّ بالثعابين، تذكّرته، أجل تذكّرت. لقد أمتعتنا جميعا. هل لديك أطفال؟».

هزّ رأسه نافيا.

«وزوجة؟».

ليس لديه زوجة، ليس تماما.

«لماذا إذَن؟ من أجل مَن تفعل هذا؟» سأل الرجل الذي على العرش، فشارك كلّ من كان حاضرا فوكا دهشته الآن. لم يتفوّه أحد بكلمة واحدة، ما عدا المترجمة النحيلة التي مالت نحو السياسيّ الأسود وتمتمت بشيء مّا في أذنه بصوت شبه مسموع.

قال الرجل العجوز الآن موجّها حديثه إلى البقيّة بعد أن فقد اهتمامه بفوكا: «أعرف ما تريدون جميعا. إنّكم تريدون العفو والحرّيّة والسلطة ولكن ما الهدف من وراء ذلك؟ إنّكم تريدون ذلك من أجل تجنّب مسؤوليّاتكم وحتّى تستطيعوا التخلّي عن السفينة التي مازلت أنا، بكلّ سلطتي، على متنها... ما رأيكم؟ هل تظنّون أنّي لا أعلم؟ وأنّي لا أفهم؟ وأنّي لا أسمع حفيف ما تُخفون في جيوبكم وبما تمسكون بأصابعكم وبما تهمسون فيما بينكم؟ من يجرؤ على تكذيب هذا؟» ثمّ صرخ: «مسؤوليّات! المسؤوليّات يجب أن تُتَحمَّل. مثلما أفعل أنا، ومثل أولئك الضحايا البؤساء الذين ينادونني بصرخات مثيرة للشفقة». حوّل عينيه إلى قدميه حيث ترقد النقّالة، لكن بعد ذلك

انقلبت عيناه في الحال إلى الداخل وقال: «ويطلبون منّي أن أضع حدّا لهذا بشكل نهائيّ. لن توجد اعتبارات خاصّة بعد اليوم!».

نزل صمت مطبق على الغرفة مثل ستار.

فصرخ بصوت حادّ: «أنا من يمنح العفو هنا، وأنا الوحيد الذي يعرف ويعترف بمسؤوليّاتي الخاصّة. وسأنجزها. وكلّ من يظنّ نفسه قادرا على إيقافي فلـ... بجرّة قلم واحدة...». ثمّ نهض رئيس الدولة ورداؤه الأسود الفضفاض ينتفخ حوله واستمرّ قائلا: «من يجرؤ؟ لا أحد؟ جيّد. سأعيدها للمرّة الثانية إذَن، فَلْيَرَ الجميع وليدوّنوا ملاحظاتهم أنّك مرّة أخرى ولآخر مرّة، كما حدث في الماضي وكما يحدث اليوم، ستحصل على طلبك! أنا أمنحك العفو ويمكن للجلّاد أن يغادر!» ثمّ مدّ ذراعيه نحو «فوكا» كما لو كان يباركه، وفتح قدميه في خطوة كبيرة ليتجاوز النقّالة. وبينما أخذ أحدهم في التصفيق، اختفى في حجرة مجاورة. واندفع الجميع وراءه بينما رفع الرجلان اللذان يلبسان الزيّ النقّالة التي تحمل شخصا قد يكون ميّتا وقد لا يكون كذلك وحملوها إلى الخارج.

فكّر «فوكا» أنّ بإمكانهما حمل الميّت بعيدا، لكنّ الموت سيظلّ دائما هنا، وكلّ ما سيأخذه معه من هذا المكان هو عناق الموت. هو يعلم أنّه يستطيع بل ينبغي عليه المغادرة لكنّه شعر أنّه مثبّت في مكانه يحدّق في الجدار العاري كما لو كان ثملا حتّى ظهر المسؤول عن الحفلات وأعلن: «انتهى اللقاء. اسمح لي بتهنئتك يا سيّدي».

الفصل الرابع

(1)

كانت حجارة الرصيف تشعّ منها الحرارة وتبدو كما لو أنّها تتحرّك تحت قدَمي بافل. لقد صار هذا يحدث له أكثر فأكثر في الآونة الأخيرة. فإمّا أنّه كان يشرب كثيرا أو أنّ تأثير الكحول أصبح يستغرق أقلّ وقتًا ممّا كان عليه في السابق.

توقّف أمام حانة صغيرة فتناهى إلى مسمَعه صوت مكبّر الصوت من بعيدٍ، لكنّ الكلمات لم تكن مفهومة. ربّما كانت بالإسبانيّة. وربّما ستطلّ يد طفل صغير في أيّة لحظة وترميه بوردة ذابلة أو امرأة بعينين داكنتين تشير إليه بإيماءة من رأسها. كان يشعر بالعطش فاسترق النظر إلى داخل الحانة عبر الباب المفتوح، لكنّها كانت مكتظّة جدّا، فلم يدخل. كان الجميع يشربون أكثر من المعتاد هذه الأيّام.

عند اقترابه من طرف الساحة السفليّ، بدأ يفهم كلّ كلمة. لم يكن ثمّة ما يمنعه من رؤية الخطيب، فهو ليس في عجلة من أمره. لقد توقّفوا عن إرساله لتغطية المظاهرات، لكنّه فعل كلّ ذلك في الماضي عندما كان البوليس لا يزال يضرب المشاركين في المظاهرات. ربّما

ليس من الجيّد أن يراه وراء الكاميرا من جديد أولئك الذين رأوه مرّة في السابق يتعرّض للضرب.

كان الخطيب اللّامرئيّ يحذّر الحاكمين الجدد المتنكّرين ببراعة في هيئة أشخاص كانوا في الماضي يعارضون مَن سبقوهم في الحكم. فقال للجمهور: «كلّنا نعرف أنّ المُثل كانت أبعد ما يكون عن تفكيرهم. فكلّ ما أرادوه هو السلطة».

صفّقت الجماهير الحاشدة البعيدة وما كان عليهم التصفيق. فكلّ شيء كان أكثر تعقيدا ممّا يمكن لأيّ خطاب أن يصفه، وحتّى وسط هذا الحشد الموالي ثمّة بالتأكيد عدد لا بأس به من الأشخاص الذين يتحدّث الخطيب عنهم هم بالذات.

لقد صار في الآونة الأخيرة يفكّر أنّه أصبح غريبا حتّى دون أن يغادر البلاد. ليس لأنّ كلّ الوجوه المألوفة كانت قد اختفت وإنّما لأنّ خلف تلك الوجوه ظهر أشخاص آخرون كثيرون. انبثقت الفراشات من شرانقها القبيحة، ولدهشتها المتنامية بمظهرها الجديد شرعت تبحث عن أماكن لتحطّ فيها.

فحتّى في شركة الإعلانات التي كان يملك جزءا منها، كان محاطا بمثل هؤلاء الغرباء، عدا «سوكول»، طبعا. إنّهم يبتسمون له ويتحدّثون عن الصفقات ويعبّرون عن ثقتهم في أفكاره رغم أنّهم لم يشاهدوا قطّ فيلما واحدا من أفلامه. كانوا ببساطة ينضحون برائحة الأعمال والمشاريع. لم تكن تنبعث من المستودع الذي اشتروه لتحويله إلى أستوديو رائحة الجلود القديمة النتنة فحسب وإنّما أيضا رائحة هذا

الشعور بالغربة. تجوّل داخل الفضاء الكئيب وفكّر كم من قسم سيحتاجون إليه وكيف سيقسّمونه وأين سيضعون الأضواء وكيف ستعمل الصوتيّات. لكنّه لم يستطع اتّخاذ أيّ قرار، فخرج ليتناول مشروبا بدلا من ذلك. عندما ذهب إلى «إيفا» ذلك المساء، أخذت تصرخ في وجهه وتنعته بأنه سكّير مثير للاشمئزاز وأنّ نهايته ستكون وخيمة وأنّها لم تعد ترغب في أيّ شيء يربطها به.

قال إنّه يستطيع تفهّم ذلك، وإنّه يشرب لأنّه لم يعد يرغب في أيّ شيء يربطه بنفسه أيضا.

«أيّ نوع من الهراء هذا؟».

«هذا شيء لن تستطيعي فهمه أبدا».

«أعرف. لستُ عندك أكثر من بقرة حمقاء لا تفهم شيئا. لكنّني على الأقلّ لست سكّيرة».

«ماذا يمكن أن يقول لها؟ فقد تغيّرت هي أيضا ولم يعد ثمّة ما يربطها بالماضي عندما كانت تأتي إليه وترغب في ممارسة الحبّ معه».

«ظننت أنّك ستتوقّف أخيرا عن الشرب الآن».

«لماذا الآن؟».

«لأنّه كان يبدو لي في تلك الأيّام أنّ ثمّة دائما شيئا يشغل بالك ويسبّب لك القلق».

«وما الذي كنت تظنّين أنّه يشغل بالي بالضبط؟».

«أنّك لم تكن قادرا على العمل بالطريقة التي تريدها».

«وهل تظنّين أنّ بإمكاني العمل بالطريقة التي أريدها الآن؟».

«أليس بإمكانك ذلك؟».

ماذا بوسعه أن يقول لها؟ ربّما سيسمحون له بمواصلة العمل، لكن من المحتمل أنّ أيامه صارت معدودة. بالتأكيد سيشدّدون المراقبة عليه. هل يمكنك فعل ما تريد عندما تكون مراقبا عن كثب؟ وربّما لا يعرف حتّى ما يريد. ربّما يكون هو أسوأ عدوّ لنفسه.

«لن تستطيع حلّ شيء بهذه الطريقة».

لكنّها هي، على الطرف المقابل وجدت حلّا لمشاكلها، فقد قرّرت العودة إلى زوجها السابق، فهو على الأقلّ يهتمّ بها وهي في نظره ليست امرأة ينام معها مرّتين في الأسبوع فحسب. ثمّ إنّ ذلك سيكون أفضل لـ«روبن» أيضا. فـ«كوسيرا» والده في النهاية. أخبرت «بافل» أنّها تريده أن يرحل، لكنّها قالت ذلك وهي تبكي. بكت لأنّه خذلها ولأنّها أهدرت وقتا كثيرا في أمره ولأنّه لم يعبّر قطّ عن امتنانه لها. فالنوم معها مرّتين في الأسبوع هو كلّ ما كانت تصلح له.

ذرفت الدموع رغم أنّ زوجها السابق سيرث مصنعا ومن المؤكّد تقريبا أنّه سيعطيها المال لتشتري المحلّ. وعندها قد تصدّق أنّها سعيدة.

عليه أن يعود إلى «آلبينا». ليته يستطيع، ليتها موجودة. لهذا فقد ذهب، بدلا من ذلك، لزيارة أمّه التي ما تزال تتعرّف عليه رغم أنّها

أحيانا تخلط بينه وبين والده.

كان غريبا، دخيلا وواحدا من كثيرين يأتون إلى هنا بهدف النّهب، أو ليؤسّسوا عملهم أو ببساطة ليراقبوا تغيّر المشهد. حتّى الكاميرا التي مازال يجرّها وراءه كانت علامة على حالته كرقيب غريب، حالة لا يمكن فيها تمييز ما هو أساسيّ ممّا هو ليس كذلك، حالة لا يمكن في أغلبها الشعور بالحماس حيال أيّ شيء بقطع النّظر عن الحاجة الظرفيّة لادّعاء الحماس. في الحقيقة، لقد صوّر في الآونة الأخيرة معارض الرسم وتدريبات المسرح واللقاءات مع الفنّانين وجلسات البرلمان وكذا وجوه السياسيّين الجدد بفتور متزايد. وذات مرّة صوّر حتّى كلمة الرئيس الجديد. يملك هذا الرئيس شيئا واحدا مشتركا مع سابقه، وبالنتيجة مع «بافل» أيضا: لقد أمضى سنوات عديدة في السجن. السياسيّون الجدد لا يملكون في مقابل ذلك أشياء كثيرة مشتركة مع القدامى، على الأقلّ إلى حدّ الآن. ومع ذلك فليس من مهامّه التحقيق في شكلهم وإنّما التقاط صورهم وحركاتهم وتقليدهم فحسب. ثمّ إنّه لم يكن يقاوم من حين إلى آخر رغبته في أن يلتقط بخبث صورا قريبة للأصابع المرتعشة التي تدلّ على عدم الثقة بالنفس، أو بعض اللباس غير الملائم. لم يفعل ذلك ليعبّر عن رأي بل للتخفيف من الرتابة. وخلافا لما كان يحدث في الماضي، لم ينتقده أحد لفعله ذلك ولا حَذَفه عند البثّ. هل كان يمنح أربابه في العمل بشكل لا واعٍ ذريعةً ليعتبروه غير جدير بالثقة؟ أم إنّه ببساطة كان يحاول إقناع نفسه بأنّ تقبّلهم إيّاه رغم ماضيه القريب أصبح الآن ممكنا؟

بعد العمل، سيقود سيّارته إلى الأستوديو الذي لم يكتمل بعدُ ويصوّر مقاطع تافهة لعارضات جميلات يمدحن موادّ تنظيف لم يستخدمنها قطّ ومجلّات جديدة لم يقرأنها قطّ وسيّارات أجنبيّة قد يرغبن في قيادتها لكنّهنّ لا يستطعن توفير المال لشرائها. إنّهم يتحصّلون على الكثير من العمولات ولديهم عارضات كذلك. كان «سوكول» مقتنعا بأنّهنّ سيرغبن في تجربة أشياء أكثر مخاطرة وإيروتيكيّة ممّا قمن به إلى حدّ الآن لكنّ «بافل» كان يشعر أنّه بلغ أقصى درجات الانحدار.

استدعيا رفيقهما «فوسوريك» الذي كان «سوكول» يزعم أنّ لاسمه وقعا يابانيّا ممّا قد يوحي بالجدارة، لكنّ «بافل» لم يكن يهتمّ لذلك بأيّ شكل من الأشكال.

ها قد رأى أخيرا الخطيب. كان رجلا مسنّا ونحيفا يقف على منصّة للارتجال ويتحدّث بحماس كبير كيف قضّى أكثر من عشر سنوات في معسكر للاعتقال بعد أن وُجّهت إليه تهمة ملفّقة، وكيف أنّ القاضي الذي حكم عليه ما يزال على منصّة القضاء اليوم. فأيّ نوع من العدالة، قال متسائلا، يصدر عن أولئك الذين دنّسوا اسم العدالة ذاتها؟ وأيّ نوع من الإصلاح قد نتوقّع حدوثه في مجتمع حافظ فيه أغلب أولئك الذين كانت لديهم يدٌ في جرائم سابقة على مناصبهم؟ إنّ الثورة لم تنته، ومازال الكثير ممّا يجب أن نفعله حتّى نستأصل القروح التي ما تزال تنخر جسد السياسة.

شاهد «إيفان الصغير» الذي كان يصوّر المظاهرة، لقد كان يعدّ

شريطا قصيرا عن كيفيّة مشاركة الشعب في الجرائم السابقة وتقريرا عن كونهم قرحة وجب استئصالها. سيكون الشريط القصير جيّدا جدّا إلى حدّ أنّه سيحصد المديح من طرف أولئك الذين يمسكون بالمشرط في أيديهم.

(2)

كانت أمّه ممدّدة على السرير بكامل ملابسها. كانت قد نزعت حذاءها فحسب ولم تسمعه عندما دخل.

«أمّي!».

«من؟».

«إنّه أنا».

«أنت، يا بافل؟ أين كنت كلّ هذا الوقت؟».

«كان لديّ عمل أقوم به».

«أنت مشغول دائما»، ثمّ أغمضت عينيها من جديد واستمرّت قائلة: «وأنا هنا بمفردي».

«هل نمت؟».

«أنا؟ لم يغمض لي جفن. لقد مرّ شهر على الأقلّ أو عام، ولا أذكر متى نمتُ آخر مرّة».

وقف في الممرّ. فالغرفة لم تُهَوَّ زمنا طويلا لأنّ أمّه كانت تخشى الهواء المنعش.

«لماذا لا تجلس؟».

فسألها: «هل أنت جائعة؟».

«كلّا. ذلك الرجل كان هنا البارحة أيضا وقدّم لي الطعام».

«ماذا تناولت؟».

فقالت أمّه: «لا أعرف. لا أذكر. لم يعد بإمكاني تذكّر أيّ شيء. هيّا اجلس لكن ليس في ذلك الكرسيّ ذي الذراعين».

«لمَ لا؟».

«ثمّة ديدان داخله».

«أووه يا أمّاه!».

«لقد رأيتها».

«لا شكّ أنّك كنت تحلمين».

«كلّا، بالأمس عندما جاء ذاك الرجل إلى هنا لرؤيتي، فاعل الخير ذاك، رآها أيضا وقال إنّ الكرسيّ يجب أن يُرمى في القمامة».

«سأجلس على الكرسيّ هناك».

مدّت أمّه يدها إلى المنضدة بجانب السرير، والتقطت المشط ومرّرته داخل شعرها الخفيف. أصبح هذا نشاطها الوحيد في الآونة الأخير. فقد كانت تفقد شيئا فشيئا صلتها بالواقع وحتّى قوّتها على الكلام، كانت أحيانا تبحث بلا جدوى عن الكلمات الأكثر اعتياديّة. وضعت المشط جانبا وأغمضت عينيها.

بعد فترة وجيزة قرّر أن يحصل على عنوان «آلبينا». فقد انتقلت إلى بلدة صغيرة وصارت تعمل في بيت لرعاية المسنّين. كان من المريح أن يعلم أنّ بإمكانه العثور عليها عندما يرغب في رؤيتها. لكنّه لم يذهب إلى زيارتها ولا راسلها قطّ.

بعد ذلك صوّر اجتماعا في مصنع كبير للأسلحة. وعندما انتهى من العمل، أدرك أنّه قريب من البلدة التي تقطن بها وأنّ في إمكانه المرور بها في طريق عودته إلى المدينة دون أن يغيّر مساره. كانت دار المسنّين تقع في قصر باروكي صغير على تخوم البلدة. وكان بإمكانه الدخول والسؤال عنها لكنّه لم يقوَ على فعل ذلك. فذهب في جولة داخل حديقة بجوار القصر.

كان يوما خريفيّا مشمسا ودافئا، وكان المسنّون رجالا ونساء يجلسون على المقاعد ويرتدون بذلات رياضيّة ونعال تارتان ووجوههم موجّهة صوب الشمس الخفيفة. عثر على مقعد فارغ فجلس وسحب صحيفة من جيبه وأخذ يتظاهر بالقراءة.

لم يكن يعرف ما إذا كانت «آلبينا» تعمل أو حتّى ما إذا كانت لا تزال تعمل هناك. عليه أن يسأل. فأيّ واحد من هؤلاء المسنّين سيكون مسرورا بمساعدته، لكنّه جلس وظلّ ينتظر عوض أن يسأل.

ثمّ رآها عند بوّابة القصر الخلفيّة تدفع كرسيّا متحرّكا عليه امرأة مسنّة ملفوفة في بطّانيّة ذات ألوان زاهية. وعلى الفور تعرّف على جسدها الصغير رغم أنّ ملامحها لاتزال غير واضحة بسبب بُعد المسافة بينهما. كانت تسير على طول الممرّ الذي يؤدّي إليه. هل كان

نذير شؤم؟ لا شكّ أنّ هذا ما قالته .

شعر بالتوتّر ثمّ بالحماس كما لو كان في انتظار موعد رومانسيّ.

لكنّها لم تواصل السير حتّى تصل إليه، بل جلست على أحد المقاعد وركنت الكرسيّ المتحرّك إلى جوارها. انحنت على المرأة المسنّة مُعيدة ترتيب بطّانيّتها وقالت لها شيئا لكنّه كان لا يزال بعيدا عنها ليسمع صوتها. بعد ذلك وقفت بشكل مستقيم ونظرت باتّجاه سطح دار المسنّين الذي طار من فوقه للتوّ سرب من الغربان. لم تنظر في اتّجاهه مطلقا. هل كان نذير شؤم أنّها لم تشعر حتّى بوجوده، وأن لا شيء دفعها إلى الالتفات نحوه حتّى يتسنّى لها رؤيته؟ لا شكّ أنّ هذا ما كانت ستقوله.

كان بإمكانه السير نحوها والتكلّم معها! 'آلبينا، لا أستطيع نسيانك. أنت أملي الوحيد'.

لكنّه لم يتحرّك، بل ظلّ ينتظر ويراقبها فحسب، فقد بدأ يميّز ملامحها حتّى على بعد تلك المسافة. مازالت كما هي، مازالت فاتنة. وكان من حين إلى آخر يمرّ أمامها رجل أو امرأة مسنّة فيبدو أنّها تلقي عليهم التحيّة، لأنّها كانت تومئ برأسها، فكان واثقا أنّه تعرّف على ابتسامتها المألوفة.

لم تكن لديه أيّ فكرة كم من الوقت مرّ وهما جالسان هناك، لا تفصلهما سوى بضع عشرات من الخطوات. ثمّ نهضت وأدارت ظهرها إليه ودفعت بالكرسيّ المتحرّك بعيدا في الاتّجاه المقابل. مكث في مقعده فترة وجيزة لكنّه أدرك أنّه لن يراها بعد الآن أبدا وأنّها لن

تعود.

قالت أمّه بغتة: «لماذا أنت صامت هكذا؟» ثمّ مدّت يدها من جديد إلى المشط ومرّرته داخل شعرها.

«ماذا هناك لنتحدّث بشأنه؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

«ما الذي يثير اهتمامك؟».

«أنا مهتمّة بكلّ شيء. مهتمّة بما تفعله».

«لقد انفصلت عن إيفا».

«هل هي تلك التي وجدتها في الغابة؟».

«في الغابة؟».

«حسنا لقد قرّرت الهرب من أمّك وذهبت إلى الغابة، وهكذا عثرت على تلك المرأة الألمانيّة دون أن تفكّر بي قطّ».

فاستمع إليها لكنّه لم يحر جوابا.

واصلت قائلة: «ثمّ جئت وبدأت تلتقط---ماذا تسمّيها؟ --- الصور».

«الأفلام؟».

«أجل، حول فاعل الخير الكبير ذاك».

«هل تعنين الرئيس؟».

«أجل! وعن تلك الزواحف. هل مازال على قيد الحياة؟».

«من؟».

«ذاك الرجل، السيّد الذي يفعل الخير».

«إنّه حيّ لكنّه لم يعد رئيسا».

«لا أفهم ذلك».

«هناك رئيس آخر الآن».

«لا أفهم كيف كان رئيسا وكيف لم يعد كذلك. ماذا ستفعل الآن والحال أنّه لم يعد رئيسا؟».

«سأصوّر الأفلام».

«لا أعرف---لا أعرف إن كنت ستفعل ذلك أم لا، لكنّني أحبّك في كلّ الحالات، يا بافل... أنت... من أنت بالضبط؟... أنت...؟».

«ابنك».

«أعتقد أنّك السامري الصالح. وكنت زوجي في السابق. وربّما لم تكن كذلك. ومن أنا؟ أنا...؟».

«أنت أمّي».

فقالت ضاحكة: «أووه هيّا كفّ عن قول هذا، كان ذلك منذ زمن طويل».

سرّحت شعرها ثمّ أغمضت عينيها قائلة: «أرغب في أكل شيء مّا،

فأنا لم أتناول شيئا منذ أيّام».

«سأعدّ لك بعض البطاطس المهروسة».

«هل ستعدّ لي بطاطس مهروسة؟ لن تهرب منّي، إلى الغابة؟ أنت ولد جيّد يا بافل. وأنا أحبّك جدّا».

ذهب إلى المطبخ وأخذ بعض حبّات البطاطس من حجرة المؤن. كانت في المطبخ أشياء متنوّعة متبقّية من الإعلانات التجاريّة، علكة وبعض الآلات لفرم اللحم ومجموعة من السكاكين التي من المفترض أنّها حادّة على الدوام .أخذ واحدة منها واستخدمها في تقشير حبّات البطاطس ثمّ وضعها على الموقد. كان يمكن أن يعود إلى أمّه لكنّ الحديث معها أرهقه. ففضّل الجلوس في المطبخ المظلم ومراقبة اللهيب الأزرق للغاز.

قبل أيّام عديدة، جاء روبن لرؤيته وجلب معه الكلب وحقيبةً كبيرة بداخلها كثير من القمصان والمنامات المكويّة بعناية وقال: «هذه من أمّي، قالت إنّك قد تحتاج إليها».

«شكرا».

تمسّح «أرغوس» به، ثمّ وقف على قدميه الخلفيّتين ووضع مخالب قدميه الأماميّتين على صدره وأخذ يلعق وجهه.

فقال «روبن»: «إنّه يفتقدك. وينتظرك كلّ يوم».

أجابه بإيماءة من رأسه، فلطالما كان يتّفق مع الكلاب أكثر من اتّفاقه مع البشر. أو بالأحرى هي من تتّفق معه. إنّه لا يحبّ أن ينسب

الصفات البشريّة إلى الحيوانات لكنّها على الأقلّ لا تحاول امتلاك الناس، أو معاقبتهم لكونهم أقلّ مثاليّة.

تردّد الفتى لحظةً، قبل أن يقول: «لا تغضب من أمّي، إنّ نيّتها حسنة. وهي تظنّ أنّني يجب أن أكون مع والدي».

«لست غاضبا منها».

فقال الفتى: «كنت دائما طيّبا معي. صدقا، يسوؤني الشعور بأنّني قد لا أراك من جديد».

«يمكنك دائما المجيء لزيارتي كلّما شئت ذلك».

«شكرا! لكن قد لا يعجبهما ذلك».

«أنا على يقين من أنّنا سنلتقي مجدّدا»، شعر أنّه ينبغي أن يضيف شيئا آخر، لكنّه، عوضا عن ذلك اكتفى بسؤاله: «هل كلّ شيء يسير على ما يرام في المدرسة؟».

فجأة انفرجت أساريره وابتهج قائلا: «بخير، كانت المدرسة دومًا كومة من الهراء لكنّهم الآن يدرّسوننا أشياء لم تكن موجودة في الكتب المدرسيّة القديمة. ثمّ إنّه لم يعد علينا مناداة المعلّم بـ «الرفيق» بعد الآن».

«هل هكذا أفضل؟».

«بالتأكيد!».

داعب شعر «روبن» حتّى بعثره، ثمّ ناوله قبضة من العلكة قبل أن

يغادر. فقد لا يراه بعد الآن من جديد.

لم يولد ابنه قطّ، وفقد ابنه البديل، وكان محاطا بأشخاص غرباء تماما، وأمّه لم تكد تتعرّف عليه.

أفرغ الماء من البطاطس وأضاف الحليب وهَرَسها. ثمّ قلى بعض البيض ووضعه على طبق إلى جانب البطاطس المهروسة.

كانت أمّه قد غطّت في النوم مرّة أخرى وشاب وجنتيها المتورّمتين شحوبٌ مائل إلى اللون الرماديّ وكانتا تطلقان زفيرا بشكل طفيف مع كلّ نفس تأخذه. فكان صوت الشخير الضعيف ينبعث من بين شفتيها المشقّقتين.

وضع الطبق على المنضدة المجاورة للسرير وقال: «ها هو عشاؤك يا أمّي».

لكنّها لم تتحرّك.

كلّمها مرّة أخرى، وهذه المرّة بصوت أقوى، ثمّ لمس كتفها بيده وناداها: «أمّي!».

جاءت الطبيبة في أقلّ من نصف ساعة. قاست نبض أمّه وضغط دمها ونظرت أسفل جفنيها. ثمّ جلست إلى الطاولة وطرحت عليه بعض أسئلة ودوّنت بسرعة أجوبته. ثمّ قالت: «سنأخذ أمّك إلى المستشفى. هذه قسيمة سيّارة الإسعاف. لكن يؤسفني إبلاغك أنّه ليس هناك الكثير لفعله».

«ألا تعتقدين ذلك؟».

«إنّها في الثمانين من عمرها».

فقال: «لم تكن على ما يرام في الآونة الأخيرة. لقد أضحت الحياة عبئا ثقيلا على عاتقها».

غادرت الطبيبة واتّصل هو بسيّارة الإسعاف، ثمّ جلس على الكرسيّ ذي الذراعين ونظر إلى أمّه. كانت لا تزال تتنفّس بانتظام، ورأسها يرتاح على زاوية غريبة من الوسادة. فنهض ومرّر المشط عبر شعرها الخفيف مداعبا جبينها.

ما الموت؟

إنّك تعيش إلى الحدّ الذي لا تزال ترى فيه معنًى مّا للبقاء على قيد الحياة. يمكنك أن تعيش أقلّ من الوقت المقدّر لك، لكن ليس أكثر. وليس مهمّا إن كنت لا تزال تتنفّس أم لا.

الموت هو اللحظة التي يسقط فيها شخص غريب وسط غرباء آخرين فيحيطون به مثل طبقة لاصقة من الأرض الرطبة.

فجأة شعر بكلّ ثقل الوحدة التي كانت تشعر بها أمّه. لقد كان مقلّا جدّا في زيارتها في الأسابيع والشهور الأخيرة وحتّى عندما كان يزورها ويقضي الليل في شقّتها، لم يكن يطيل البقاء معها. والآن في هذه اللّحظة ها هو يتمنّى لو كان بوسعه تعويضها عن ذلك الغياب، غير أنّه كالمعتاد أدرك ذلك في وقت متأخّر جدّا.

(3)

توقّف عند متجر صغير في القرية قبل أن ينطلق نحو القصر. إنّه

الآن ملك للخواصّ وأصبح يبيع أنواعا مختلفة من النبيذ والشوكولا. في القصر، علم أنّ «آليس» انتقلت إلى مكان آخر منذ شهرين. ربّما خطر له أنّها لن تبقى هناك بمفردها بعد رحيل «بيتر». لكن من حسن الحظّ أنّها انتقلت إلى بلدة مجاورة حيث عثرت لها السلطات المحلّيّة عن شقّة. فقد كانوا في أمسّ الحاجة إلى ممرّضة في المركز الصحّيّ التابع لهم.

أخبره الحارس الجديد: «إنّ الممرّضين يهاجرون إلى الخارج بأعداد هائلة. فهناك يمكنهم الحصول على خمسة أضعاف رواتبهم التي يحصلون عليها هنا».

كان المساء قد حلّ عندما وصل إلى البيت الصغير الذي تعيش فيه. فُتحت نافذة في الطابق الثاني عندما دقّ الجرس: «بافل، هل هذا أنت؟» ثمّ ركضت إلى الأسفل، وعانقته ورفعت وجهها نحوه حتّى يقبّلها. فخطر له أنّها قد تكون مسرورة حقّا برؤيته.

كانت شقّتها الجديدة صغيرة ومؤثّثة بشكل متواضع.

فقال: «سمعت أنّك بدأت تعملين من جديد».

«أجل، لقد كبر الأطفال ويجب أن يكون لي مورد رزق، بالإضافة إلى أنّني أحتاج إلى مكان أعيش فيه».

«هل أنت مستمتعة به؟».

«ثمّة الكثير للقيام به، والحياة صارت أكثر إثارة للاهتمام الآن»، قالت متجنّبة إجابة مباشرة. أخذته إلى حجرة صغيرة توجد بداخلها

أريكة وكرسيّ بذراعين وطاولة وبعض الرفوف على الجدار. رغم قلّة أثاثها، بدت الغرفة مكتظّة. وكان ثمّة أصيص نافذة تنبثق منه أزهار غرنوقي يانعة.

«وماذا تفعل الآن؟ هل مازلت تعمل في التلفزيون؟».

فقال لها: «أنا على وشك أن أغادر. لقد انفصلت عن إيفا وتوفّيت أمّي الشهر الفارط».



«أنا آسفة لسماع هذا».

«هذا أفضل».

«لقد قلت الكثير من الأشياء دفعة واحدة. أريدك أن تخبرني بكلّ شيء إذا لم تكن على عجلٍ».

«كلّا، لم أعجّل إلّا للمجيء إلى هنا ورؤيتك».

«مازال عليّ أن أُخلد الرضيع إلى النوم. فالآخران يمكنهما الاعتماد على نفسيهما. ثمّ سيكون ثمّة وقت من أجلنا».

كان يتمنّى مرافقتها لكنّه قد يشغلها عمّا تقوم به. كانت على الرفوف كتب عديدة، قاموس طبّيّ مختصر ونصوص من معهد التمريض.

نزيف دماغيّ.

ضيق التنفّس المزمن.

كان هناك أيضا ديوان شعر عن الحبّ.

كانت تنبعث من أزهار الغرنوقي رائحة عفن طفيفة، فشعر كما لو أنّه يختنق. نهض وفتح النافذة على مصراعيها ثمّ وارب الباب قليلًا. وبينما كان يفعل ذلك لمحها تنحني على طفل صغير بشعر فاتح في غرفة الحمّام. رغم أنّها أنجبت ثلاثة أطفال فجسدها لا يزال يبدو جسد فتاة.

لاحظت أنّه ينظر إليها فقالت: «لا تحدّق بي، فشعري غير مرتّب وملابسي قديمة ومريعة».

«تبدين لي جميلة».

ضحكت ورفعت الفتى الصغير عن الأرض وأغلقت الباب.

الطفل الرابع، أو الأوّل في الحقيقة -ابنه- لم يولد قطّ.

كانت على الطاولة صحيفة ملقاة. فالتقطها لكنّه لم يستطع التركيز على العناوين. فقد كانت ترتجف بين يديه. وضعها جانبا ومدّ أصابعه يتأمّلها مفكّرا: إمّا أنّني أفرط في الشرب كثيرا أو أنّ فكرة وجودي معها هنا بمفردنا تشعرني بالانفعال الشديد.

عادت أخيرا وهي ترتدي ثوبا أزرق فاتحا بياقة من الدانتيل المصنوعة باليد. عندما رأته ينظر إليها باهتمام شديد، قالت: «إنّ الياقة لجدّتي».

«لست أنظر إلى الياقة، بل إليك. لقد تغيّرت قليلا لكنّك أجمل بكثير ممّا كنت عليه في السابق».

«شكرا لك. أنت تجاملني لكنّ هذا لن يفيدك في شيء لأنّي لا

أصدّقك».

إمّا أنّ الأطفال كانوا نائمين أو أنّهم بقوا هادئين. فرشت شرشفا على الطاولة ووضعت وعاء من التفّاح فوقها. ثمّ أحضرت بعض السندويتشات وقنّينة نبيذ. ابتسمت له دون أن تقول شيئا فشعر فجأة أنّه لا يقوى على قول شيء هو أيضا.

سألته أخيرا: «كيف توفّيت والدتك؟».

«في نومها. لقد غلبها النعاس فحسب، ولم تستيقظ قطّ، فقد أصيبت بجلطة».

«لقد حظيتْ بموتة جميلة، إذا كان من الممكن أن يكون الموت شيئا جميلا».

«عندما كنت في المكسيك، سألت هنديّا عن سنّه فقال: قريبا ستكون قد مرّت خمس وستّون سنة قبل أن أشرع في الموت. لم أفهم ما كان يقصد بذلك. فقال إنّها الطريقة التي يعبّر بواسطتها الجميع هناك عن سنّهم. فموت الإنسان يبدأ منذ اللحظة التي يولد بها». بدا صوته غير طبيعيّ، فلم يكن في وسعه السيطرة على الرعشة في صوته. مدّ يده ليتناول كأسا وصبّ بعض النبيذ لنفسه ولها.

قالت: «يوما مّا سترى والدتك من جديد».

«هل تظنّين ذلك؟ أين سيجد كلّ أولئك الأموات مكانا يلائمهم؟».

«في مساحة بحجم تلك التي تحتاج إليها تفّاحة واحدة. فالأرواح

لا تحتاج إلى حيّز كبير والموت ليس نهاية كلّ شيء».

كان يرغب في الاعتراض وقول إنّ كلّ شيء لا فقط يمكن له أن ينتهي وإنّما ينبغي له ذلك، وإنّه حتّى النجوم ستنطفئ ذات يوم، وإنّ الزمن وحده سيبقى خالدا. لكنّه لم يأتِ إلى هنا ليجادلها بشأن الحياة الخالدة.

قالت: «أنت تعلم أنّك كنت دومًا مدلّلا نسبيّا، فقد كانت أمّك تفعل لك كلّ شيء».

فاعترض: «لم تفعل ذلك حقّا».

«هاتفتني ذات مساء وقلت إنّك تشعر بألم في قلبك، لكنّ قلبك كان على ما يرام، كنت قد أفرطت في الأكل فحسب».

«آنذاك، كانت أمّي في منتجع صحّيّ وكنت أشعر بالحزن والوحدة وأردتك أن تأتي فتظاهرت بوجود ألم في صدري».

فضحكت قائلة: «على ما أذكر أنّك تعافيت بسرعة كبيرة».

حدث كلّ ذلك منذ زمن طويل، منذ عشرين سنة، عليه ألّا ينسى ذلك.

سألها: «ماذا عنك؟ ألم يحدث قَطّ أن شعرت بالوحدة أو الحزن؟».

فاتّخذت وضعا دفاعيّا قائلة: «يشعر الجميع بالوحدة والحزن أحيانا. لكنّني على قيد الحياة وسأكون سعيدة جدّا لو...». رفعت كتفيها واستمرّت تقول: «لو كنت فقط أملك المزيد من الوقت. لديّ

شعور بأنّ أشياء كثيرة من تلك التي تحدث الآن تتجاوزني لأنّ عملي... والأمراض هي نفسها دائما. لكنّ ما يحدث الآن لا يمكن أن يتكرّر».

«لا شيء يتكرّر أبدا».

«أجل لكن في السابق، كان يبدو لي دومًا أنّ الأيّام كلّها متشابهة. أمّا الآن فالأمر مختلف».

«هل تظنّين حقّا أنّ كلّ شيء تغيّر الآن؟».

«ألا يبدو لك ذلك؟».

«حسنا، ربّما تكون نسخة جديدة من الحرب القديمة فحسب، حرب حول من يحافظ على عمله ومن لا يحافظ عليه ومن يستفيد منها أكثر ما يمكن».

«لم تتغيّر يا بافل. أنت دائما ترى الجانب الأسوأ من كلّ شيء. لطالما كنت أعتقد أنّ الناس يتغيّرون إلى الأفضل. إنّهم كذلك هنا على الأقلّ، أمّا بخصوص المكان الذي تعمل به فلا أعرف. قد تكون أزعجت أحدهم؟».

«كلّا، لقد أزعجت نفسي فحسب».

«لقد فعلت ذلك طوال حياتك».

«هل يعرف أحدٌ الطريقة التي يحبّ أن يعيش بها؟».

«أنت محقّ. فلست أفضل منك. كنت أظنّ -من أجل الأطفال

وليس من أجلي- أنّ ما حدث لزيجات كثيرة لن يحدث لنا أبدًا».

«لا يمكن أن يكون خطأك».

«لا أعلم. لقد فكّرت كثيرا، لوقت طويل أحاول معرفة من المخطئ، ثمّ قلت في نفسي لا يمكنني أن أكون أنا من يحكم على ذلك وأنّ الأمر غير مهمّ أصلا. فالمهمّ أنّه حصل. وكان أمرا لم أتوقّعه ولا أظنّ أنّ بيتر أيضا كان يتوقّعه. فغالبا يفعل الإنسان أشياء لا يرغب في فعلها أو على الأقلّ ينتهي في مكان لم يرغب مطلقا في أن يكون فيه».

«ربّما سيعود».

«لن يعود، وحتّى لو فعل، فما كان لي أن أرغب في ذلك».

«لماذا حدث ذلك؟».

هزّت كتفيها وقالت: «ربّما كانت تلك السنوات التي عشناها في الداخل هي السبب. لم يكن قادرا على فعل ما يريده أو العيش بالطريقة التي يرغب فيها. أو ربّما كان الشعور بالاستياء جزءا منه، أو الحاجة إلى تدمير ما يحبّه وربّما لم أكن عنده مثيرة للاهتمام بالشكل الكافي، أو ربّما وقع في الحبّ ببساطة». نهضت وخطَت باتّجاه النافذة حتّى لا يرى الدموع في عينيها.

قالت: «إنّه يأتي أحيانا للزيارة. في الواقع هو يأتي لرؤية الأطفال ويطلعني على أخباره، طبعا، لكنّه لم يذكرك قطّ ولم يخبرني بتاتًا بأنّك ستغادر العمل».

«أسّست مجموعة منّا أستوديو وسنصوّر أفلاما خاصّة بنا، سنكون

أكثر حرّيّة لنفعل ما نرغب فيه».

«هل ستصوّر فعلا أفلامك الخاصّة؟».

فاجأه سؤالها. كان ينبغي أن يتركها تفكّر هكذا، حتّى يحافظ على وهج الفكرة بأنّه يتصرّف بحرّيّة أكبر. لكنّه أخبرها الحقيقة: «حتّى الآن نحن نصوّر الإعلانات فقط».

«إعلانات؟ لا شكّ أنّك غير جادٍّ». عادت إلى الطاولة، وقد بدا عليها الشعور بالراحة لأنّ الحديث لم يعد عنها .

«حتّى أُنجز فيلما مستقلّا لا يتلاعب بمحتواه أحدٌ، أحتاج إلى مالٍ. والإعلانات إحدى الطرق لجمع المال».

«أظنّ أنّني لم أفهم. اعتقدت أنّك عندما يحين الوقت وتكون قادرا... ستفعل شيئا رائعا حقّا».

«هل فكّرت بهذا فعلا؟».

«ألم تفكّر بهذا أيضا؟».

«الجميع تقريبا يفكّرون هكذا في أنفسهم. فليس ثمّة ما هو أسهل من إقناع نفسك بأنّك تستطيع حقّا فعل شيء مّا إذا حاولت، مادمت تعلم أنّهم لن يمنحوك الفرصة لذلك قطّ. النظام لن يسمح لك بذلك أبدا، وهكذا فهو ينقذك من الهزيمة أيضا».

«أخبرتني أنّك كنت تكتب سيناريو».

«نعم».

«هل كتبته؟».

«أجل».

«ما عنوانه؟».

«في انتظار العتمة، في انتظار النّور».

«في انتظار العتمة»، كرّرت وراءه.

«أجل».

«وفي انتظار النّور. وما الذي أنت في انتظاره الآن؟».

«كان لتصوير فيلم معنًى عندما لم يكن بالإمكان فعل ذلك. لكن لم يعد لذلك أيّ معنًى الآن».

«إذا كنت قد كتبت سيناريو جيّدا، فلمَ لا يكون لذلك معنًى الآن؟».

«أنا لا أعرف حتّى إذا ما كان جيّدا أم لا. ولا أعرف إن كان سيعجبك. ربّما لا. إنّه جنون».

«أحبّ الجنون».

«كتبته كردّة فعل على ما كنت أفعله. كان نوعا من الهروب».

فقالت: «أجل، لقد أردت الهروب دائما. هل تذكر أنّك وعدتني بأخذي معك إلى مكسيكو؟ كان ذلك كما لو أنّك وعدتني برحلة إلى القمر. وعندما وصلت إلى هناك، لم ترسل إليّ حتّى بطاقة بريديّة».

«لكنّني فكّرت بك عندما كنت هناك».

«وهل يُفتَرض أن أصدّقك؟».

«في سوق كبير مليء بالبضائع المتنوّعة على مقربة من طولا اشتريت لك أسورة فيروزيّة اللون حتّى أقدّمها لك يوما مّا عندما نلتقي من جديد، لكنّني فكّرت بعد ذلك أنّه لن يكون من اللّائق فعل هذا. مازلت أحتفظ بها في البيت».

«ألم تقدّمها لإيفا؟».

«إنّها لك أنت».

قالت متجاهلة تأكيده على ذلك: «لماذا تركت إيفا؟».

«على امتداد فترة طويلة، لم تكن الأمور على أحسن ما يرام بيننا. فقد أزعجها شربي الكحول».

«لا ألومها البتّة».

«كان من الأسباب التي تدفعني إلى الشرب أنّه لم يكن لديّ من أحبّ».

«لديك دائما تفسير لكلّ شيء».

«كنّا معا بدافع الضرورة، وقد انتهت تلك الضرورة. على الأقلّ في ما يخصّها. لقد عادت إلى زوجها».

«حسنا، هنيئا لها». فكّر أنّه سمع نبرة من العصبيّة في صوتها، وربّما مسحة غيرة فشجّعه ذلك.

«هل سمحت لها بقراءة السيناريو؟» سألته بسرعة كما لو أنّها كانت تريد تحاشي موضوع إمكان الصلح بينهما.

«كلّا، لم أسمح لأحد بقراءته. إنّه شخصيّ جدّا لكي أسمح لأيّ كان بقراءته، حتّى لو كان قريبا منّي».

«شخصيّ؟ هل كان عنها هي؟».

فهزّ كتفيه غير عابئ.

«أو عنك أنت؟».

«كان شخصيّا فحسب».

«لكن أليس فيه أيّ شيء عنّي؟».

فلاذ بالصمت.

«من الذي في انتظار العتمة ومن الذي في انتظار الضوء؟».

«تنتظر البطلة شيئا لا يستطيع البطل منحَها إيّاه. إنّه عن الكثير من الأشياء الأخرى أيضا».

«أنت تثير اهتمامي، ما اسم البطلة؟».

فقال: «هذا ليس مهمّا، اسمها آلبينا، إنّه ليس عنك. لقد اخترعتها لكنّي اخترعتها بطريقة تذكّرني قليلا بك».

«لماذا أنا؟».

«أعتقد أنّك ربّما تستطيعين التخمين».

«يبدو الأمر غريبا. ففي مهنة كمهنتك، أنت محاط بالكثير من النساء. أم هل كتبته بسبب الطفل؟ أخبرني، هل فيه ما يتعلّق بهذا أيضا؟».

«إنّه لا يتعلّق بنا، أخبرتك بأنّه لا يتعلّق بنا، فقد غيّرت كلّ شيء».

«لكن لا يمكنك تغيير ذلك».

«يمكن تغيير أيّ شيء في فيلم»، ثمّ قال بهدوء: «في الواقع ثمّة شيء يتعلّق بالطفل في الفيلم».

«هل تعتبرني إذَن قاتلة مريعة حتّى تخشى إخباري بصراحة عن موضوع الفيلم الذي ترغب في إعداده؟».

«على العكس من ذلك».

«ماذا تعني ب «على العكس من ذلك»؟».

«ستكتشفين، إذا قرأته، أنّك الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي أهتمّ لأمره».

«ها قد بدأت الآن تجعل الموضوع شخصيّا حقّا».

«من أجل هذا جئت».

«لقد توفيّت أمّك وانفصلت عن إيفا وأتيت تخبرني أنّني الشخص الوحيد الذي تركته؟».

«أجل».

«من المؤسف أنّك شعرت بهذا متأخّرا يا بافل، فقد تزوّجتُ في

الأثناء وأنجبت ثلاثة أطفال».

«أنا ليس لديّ أيّ طفل يا آليس».

«لكن كان يمكن أن تحصل على ذلك».

«أَلَم تسامحيني على ذلك بعدُ؟».

«لقد سامحتك منذ زمن طويل. فقد كان خطئي بقدر ما كان خطأك».

«كلّا، أنا من أقنعتك بفعل ذلك. ولم تكن فكرة إنجاب طفل من ضمن مخطّطاتنا في ذاك الوقت، فلم تكوني قد بلغت السابعة عشرة بعدُ وكنت... حسنا فكّرت أنّ لي أشياء كثيرة أقوم بها قبل أن أمنح نفسي ترف الأبوّة. الآن أدرك أنّ ذلك أسوأ شيء فعلته في حياتي، فقد كان ذلك سببا لكلّ ما حدث بعده».

«ماذا بوسعي أن أقول لك يا بافل؟».

«ليتني وجدتُ طريقة أستطيع بها التعويض عن ذلك».

«لا يمكنك التعويض عن ذلك، يا بافل. فلا يمكنك إحياء ذلك الحلم. لقد مات، وأجهزنا عليه قبل أن يولد».

«أريد أن أنجب منك طفلا يا آليس».

«فات الأوان يا بافل».

«فكّرت----هل تذكرين عندما التقينا آخر مرّة في تلك المظاهرة الكبيرة وعندما دخلنا تلك الحانة الصغيرة وكان التلفزيون

يشتغل؟...».

«طبعا، أذكر».

«يومها فاجأتني بتلك القبلة وقد بدا لي... بدا لي أنّنا أقرب في ذلك الوقت من كلّ تلك السنوات الماضية».

«كانت اللحظة التاريخيّة هي ما جعلنا كذلك، يا بافل، إنّه الزمن. فآنذاك كنّا كلّنا قريبين بعضنا من بعض».

«وهل انتهى ذلك الزمن الآن؟».

«زمن كذلك الزمن لا يمكن أن يستمرّ طويلا».

«هل فات الأوان إذَن يا آلي؟».

«لا يمكنني أن أبدأ معك كلّ شيء من جديد. فلا أعرف إن كان لازال بإمكاني العيش مع أحد آخر من جديد، لكنّني أعرف أنّي أنا وأنت لا يمكننا البدء من جديد. لقد قلت بنفسك أن لا شيء يعيد نفسه».

«تماما. لم يكن لي أن أرغب في إعادة أيّ شيء».

«هل ترغب في البداية بشيء مختلف تماما؟».

فأومأ برأسه إيجابًا.

«هذا مستحيل. فلسنا مختلفين تماما. أنت حزين ووحيد، ربّما حزين جدّا ووحيد. وأنا حقّا آسفة من أجلك، يا بافل. لكنّ ذلك ليس كافيا». ثمّ مالت نحوه وداعبت شعره مثلما تداعب أطفالها.

(4)

مرّت سنة على تأسيس شركتهم التي سُمّيت باسمٍ يبدو وقعُه يابانيّا لكلّ من لا دراية له بذلك. فاقترح محاسب الشركة، وهو أحد الغرباء الذين اقتحموا حياته، أن يحتفلوا بالذكرى الأولى لها بإقامة حفل يدعون إليه أكبر عددٍ ممكن من أصحاب المشاريع الذين قد يصبحون زبائن محتملين. وينبغي أن يقام الحفل، طبعا، في واحد من أفخم النزل.

لم يعترض بافل على ذلك، فلم يكن يتدخّل في الجانب التجاريّ، لأنّ ذلك لا يثير اهتمامه. لقد كان يحاول أداء عمله على أكمل وجه فحسب إلى حدّ أنّه كان يشاهد أفلام إعلانات لحقبة ما قبل الحرب وهي موجودة في الأرشيف. كانت تبدو أكثر طرافة من الإعلانات الحاليّة. لكنّه فعل ذلك من باب العادة المهنيّة، فلم يكن راضيًا عن العمل ولا مستمتعا به. وإلّا كيف كان له أن يقضي وقته؟

عندما يفرط قليلا في الشرب، يؤلمه رأسه، والآن صار يشعر بشكل أكثر تواترا بضغط يسبّب له الألم في صدره. ورغم أنّه كان خائفا من الوحدة، غالبا ما يجد نفسه وحيدا أكثر فأكثر. فتزداد الفراغات التي لا يمكن ملؤها في حياته يومًا بعد يوم، فراغات تركتها أمّه وآلبينا وحتّى إيفا رغم أنّ في وسعه ملء ذلك الفراغ بالذات متى شعر بالرغبة في ذلك. شغلت كتابة سيناريو فيلمه وقته لكن للأسف لم يتبقّ له سوى كتابة آخر مشهدَين أو ثلاثة مشاهد. فتوقّف عن الاشتغال عليها، فما الذي سيفعله عندما يفرغ من ذلك؟

اشترى سيّارة مرسيدس جديدة رغم أنّه اضطرّ إلى بيع لوحة باروك من بيته الريفيّ حتّى يجمع المال. أغضب ذلك سوكول، فقد كان يعتبر ممتلكاتهما الخاصّة جزءًا من الملكيّة المشتركة للشركة. وكان يخطّط لشراء محلّ في موقع جيّد عندما تشرع الدولة في بيع تلك المحلّات في المزاد، وهناك سيفتح متجرا كبيرا للبضائع الإلكترونيّة. ألا يفهم بافل أنّه سيكون هناك سعر احتياطيّ مرتفع وأنّه ثمّة أطراف أخرى مهتمّة سيتمّ رشوتها كي تخرج من المزاد؟ من أين سيأتي المال إذا بدّد ما يملكه على السيّارات؟

لكنّه لا يحتاج إلى متجر كبير، وإنّما إلى سيّارة جديدة.

«من أجل ماذا؟».

«من أجل الحياة».

«إنّك لا تفهم، فإمّا أن تنمو الشركة وإمّا أن تموت».

«ها أنا أحتضر لسبع وأربعين سنة الآن».

كانت السيّارة قرمزيّة اللّون وكلّ شيء فيها يعمل بشكل آليّ ويظهر عدّاد السرعة، سرعة تصل إلى أكثر من ثلاث مائة كيلومتر في الساعة.

قاد سيّارته الجديدة إلى داخل بهو الاستقبال، متعمّدا القدوم متأخّرا قدر الإمكان. كانت هناك وجوه مألوفة أكثر ممّا توقّع، ووجوه يتذكّرها من اجتماعات ومؤتمرات سابقة. فقد تقلّد أصحابها مناصب حكم في وزارات ووكالات إعلام وإدارة شؤون الموظّفين وشبكة التلفزيون، وكانوا يحكمونه هو أيضا. كان هالاما هناك. فهو يملك الآن محطّة

راديو خاصّة به تذيع الأغاني الناجحة نفسها، أي تلك التي حظرها هو نفسه في الآونة الأخيرة. رأى أيضا شاعرا كان قد صوّر معه فيلما ذات مرّة عن منحوتات شعبيّة لمشاهد ميلاد المسيح. وكان قد أحرز على اعتراف رسميّ من خلال كتابة أبيات تعبّر عن حبّ النساء والوطن الأمّ والحزب. أمّا الآن، ودون الإفصاح عن هويته، فقد صار يكتب إعلانات تعبّر عن حبّه لسكاكين المطبخ الحادّة وللكاتش أب والعلكة. كذلك، وبعد لحظة لم يكن فيها متأكّدا، تعرّف بافل على الشقراء ذات الشعر المائل إلى لون الفراولة، الشقراء التي كانت تمعن النظر في اتّجاهه. لم يعرف قطّ اسمها لكنّه منذ سنوات مارس معها الحبّ في الحفلة قرب مصنع المتفجّرات. تساءل عمّا إذا كانت قد عادت إلى زوجها المليئة جيوبه بصكوك من الشيوخ والإرهابيّين فيها مبالغ لا يمكنه حتّى تخيّلها. حتّى إيفان الصغير هنا صحبة فريق تصوير لإنجاز فيلم وثائقيّ عن أصحاب المشاريع الجدد. لقد أخذ إيفان الصغير الآن مكانه لكن لا داعي إلى شعوره بالاستياء حيال ذلك لأنّه تنازل عن عمله بإرادته.

لم تكن لديه رغبة في الشعور بالاستياء تجاه أيّ كان.

أخذ طبقا من السندويتشات وعاد بذاكرته إلى المساء الذي قضّاه في كلّيّة المسرح. تذكّر الغرفة التي تعجّ بالناس النائمين على الأرض، والفتاة التي قدّمت له بطّانيّتها وشعور الحميميّة الذي انتابه تجاه طلبة لم يكن يعرفهم بالاسم لكن كان يمكن بسهولة أن يكونوا أبناءه. في النهاية وزّعوا ملصقات يدويّة بالسيّارة. ما كان اسم الطالبَين اللذَين

رافقاه؟ لا يمكنه تذكّر ذلك رغم أنّه سيعرفهما إذا حدث والتقاهما مرّة أخرى. لم يخطر له دعوة الطالب الذي يريد أن يصبح كاميرا مان إلى هنا. فكيف يمكنه ذلك إذا كان لا يعرف اسمه؟

اعتراه شعور مفاجئ بعدم الارتياح كما لو كان قد ارتكب خطأ وعاد فجأة ليطارده.

كان عليه دعوة الطالب الذي كان يمكن بسهولة أن يكون ابنه. لم يكن من الصعب معرفة اسمه لكنّه ربّما كان سيشعر بالحرج أمامه الآن.

احتسى بعض الكونياك وذهب يبحث عن بيتر، فهو الذي دعاه. فوجده في نقاش مع هالاما.

بالتأكيد، هذا هو دور الأبناء في حياة آبائهم، أن يذكّروهم بأفعالهم التي تدعو إلى الخجل.

قال عندما أخذ بيتر جانبا: «لم أكن أعرف أنّكما على معرفة سابقة».

«طبعا نعرف بعضنا، فمنذ سنوات حاول أن يثنيني عن أن أصبح حارسا للقصر».

«لماذا؟».

«كان يعرفني منذ أيّام الجامعة ويعتبرني عنصرا تخريبيّا».

«والآن يتحدّث إليك؟».

«لمَ ليس عليه أن يتحدّث إليّ؟ لقد انتهى كلّ شيء الآن. وهو الآن

ضيفك مثلي تماما. إنّه يقترح عليّ مكانا في فريق إنتاجه لأنّه لا يظنّ أنّني سأواصل العمل في التلفزيون فترةً أطول من هذه».

«أهذا ما يظنّه؟ لكن لا أحد سيطردك».

«ولا أنت سيطردك أحد».

«لكنّي أملك أسبابا للرحيل».

فقال بيتر: «ما هي؟ لطالما كنت تزعم أنّك تنتظر الحرّيّة. يبدو لي أنّك تستطيع استغلالها في شيء أفضل من هذا».

«ربّما، لكنّني لا أنوي فعل هذا حتّى آخر حياتي».

«آمل أنّك لست بصدد اختلاق الأعذار. لكنّ قرارك أمر يخصّك. ربّما كنت سأفعل الشيء ذاته لو كنت مكانك».

لكنّ «بيتر» ليس في مكانه وكان يتصرّف دومًا بشكل مغاير. ربّما ليس دائما ولكن عادة. أمّا في ما يخصّ «آليس»، فقد انتهى بهما الحال إلى الشيء نفسه.

قال بيتر: «لا أحد سيلقي بي خارجا، لكن من المحتمل ألّا أبقى هناك فترةً أطول. لا أعرف الذين يعملون في الإذاعة ولا هم يعرفونني. فقد بقيت خارج الصورة فترةً طويلة جدّا. إنّهم لا يعتبرونني شخصا يفهم عملهم. بل شخصا أُرسل ليحلّ الأمور».

«هل تشعر بعدم التقدير؟».

«الآن، أشعر بالوحدة».

«وهل ستعمل لحسابه، لحساب هالاما أقصد؟».

فتحمّس «بيتر» قائلا: «أبدا! ربّما أعود إلى عملي حارسا للقصر».

«وهل ستعود إلى آليس؟».

«توجد قصور كثيرة، وفي بعض الحالات يستعيدها المالكون السابقون. قد أستمرّ في العمل مع بعضهم».

«ما الذي يجعلك تظنّ هذا؟».

«لأنّهم فقدوا صلتهم بالأشياء زمنًا طويلا أيضا».

ضحك وقال: «لا شكّ أنّك لا تعني أيًّا من هذه الأشياء بجديّة».

بدأت الموسيقى تشتغل وذهب ليأخذ مشروبا آخر. فخطر له أن لا أحد ولا شيء ظلّ على حاله، مثلما كان.

أوقفه «إيفان الصغير» وسأله: «هل تريد أن تقول شيئا للكاميرا عن العمل يا بافل؟ وهكذا أستطيع مساعدة أصدقائي القدامى في ربح المنافسة قبل بدئها؟» وابتسم له ابتسامة واسعة بأقصى ما يستطيع من لطف.

سأله بافل: «وكيف تسير الأمور معك؟».

«أووه، إنّها جيّدة – تعرف كيف هي الأمور. لازال العمل كما هو. ثمّة مساحة صغيرة للعمل ولكن ليس بالقدر الكبير. فقد تعوّدت على أن تراقب نفسك ولا تتجاوز حدودك».

«لكن ليس عليك مراقبة نفسك».

فاعترف قائلا: «ربّما لا، لكن كما قلت، إنّه في دمي فأنا دائما أعمل جاهدا لإرضاء أصحاب القرار. أظنّ أنّه الشيء نفسه في جميع أنحاء العالم».

فقال بافل في نفسه، أو ربّما تغيّر العالم المحيط بنا، والآن نحن بصدد إعادة خلقه على شاكلته القديمة.

مرّة أخرى لمح الشقراء ذات الشعر المائل إلى لون الفراولة، فتساءل عمّن دعاها إلى هنا وعن سبب ذلك. خطا نحوها، انحنى قليلا ودعاها إلى الرقص. أومأت موافقة ورمقته بفضول ثمّ سألته: «هل جمعتنا معرفة سابقة؟».

«لقد التقينا منذ مدّة وحدّثتني عن زوجك وعن رحلاته».

«بإمكان أيّ أحد السفر هذه الأيّام».

«هل توقّفت عن السفر؟».

فحرّكت رأسها قائلة: «لقد دخل زوجي إلى السياسة وهو يعمل في الوزارة».

ربّما هذا سبب وجودها هنا فسألها: «التجارة الخارجيّة؟».

«كلّا، الخصخصة. لكنّها تجارة خارجيّة أيضا». ضحكت دون أن تتفوّه بكلمة عن تلك الصكوك التي تحمل مبالغ خياليّة. فإمّا أنّها متّفقة مع زوجها أو أنّها لم تثمل بالقدر الذي ثملت به آخر مرّة التقيا فيها. كان على يقين من أنّ مبالغ المال الهائلة لا تزال تتبادلها الأيدي تحت الطاولة.

«هل انتقلت؟».

«كلّا، فلديّ ما يكفي للقيام به في... مكان سكني حيث التقينا».

ربّما نجحت في توجيهه فقال :

«في التجارة؟».

رمقته بنظرة حذرة وقالت: «شيء من هذا القبيل». ولم تقل المزيد كما لو كانت ترغب في التركيز بشكل تامٍّ على الرقص.

لم ينتهيا بعد من الرقص عندما جاء «سوكول» وسحبه جانبا بعد أن اعتذر منها. «أريد أن أعرّفك على أحدهم. هذا الرجل يعتقد أنّ الفيديوهات الإيروتيكيّة ستحقّق مبيعات جيّدة جدّا. إنّه يملك المال، وإذا كنّا مهتمّين سينضمّ إلينا ويعمل معنا».

«تعلم أنّني لا أتحمّل الفيديوهات، حتّى عندما لا تكون إيروتيكيّة».

«كما تشاء، لكن عليك أن تلتقي به. يبدو أنّه عمل عظيم وإذا لم نستغلّ الفرصة، فسيذهب إلى أحد آخر».

«لا يهمّني البتّة، لن أفعل ذلك».

«أريدك أن تتحدّث إليه».

«هنا؟».

«هل تعرف مكانا أفضل؟ لسنا ملزمين بأيّ شيء».

«لن أتحدّث معه، لست في مزاج يسمح لي بفعل ذلك وسأفسد

الصفقة».

«إذَن ستترك الأمر لي؟ جيّد. لكن آمل ألّا تفاجئني بتصرّف غير مقبول إذا وصلت إلى اتّفاق معه». ثمّ مشى مباشرة نحو شابّ ذي شعر أصفر مربوط على شكل ذيل حصان وكان يضع قرطا ويرتدي جاكيت بنفسجيّ اللون. ربّما يملك صالة للتدليك أو شيئا من هذا القبيل.

كانت الشقراء صاحبة الشعر المائل إلى لون الفراولة بانتظاره. هل ستمارس معه الحبّ مرّة أخرى في حجرة فارغة؟ لن يكون ذلك ممكنا هنا. سيكون عليهما الذهاب إلى مكان آخر. ثمّ إنّه لا يعرف حتّى إن كانت هنا بمفردها أم لا.

شعر الآن باضطراب في التنفّس، وبدأت الأرض بالتأرجح تحت قدميه. لقد حان الوقت كي يغادر. نظر إلى المرأة التي ذهبت لتحضر مشروبا، وهو ما يزال يجهل اسمها. ربّما أتت إلى هنا بمفردها، يمكنه دائما أن يسألها، لكن لا رغبة له في السؤال، لا عن ذلك ولا عن أيّ شيء آخر. فهو لا يتوقّع إجابات من أيّ كان بعد الآن، ولا حتّى من نفسه.

أراد أن يغادر بمفرده ويذهب إلى أبعد ما يستطيع، إلى حيث لا يعرف أحدا، إلى حيث يكون الغرباء غرباء حقّا، إلى مكان لا يوجد فيه أحد مطلقا، مكان ليس فيه سوى الصخور والطيور.

الفيلم

كان «فوكا» يتجوّل حول طاولات الطعام في اتّجاه باب الخروج. مرّ أمام البار حيث لا يزالون يقدّمون المشروبات. فمدّ يده ليأخذ كوبا مليئا بالشراب، وقلَبَه في جوفه ثمّ واصل طريقه.

كانت سيّارات الليموزين السوداء مركونة في الخارج بانتظار الضيوف. أمّا الليموزين التي أحضرته فلم تعد هناك. مرّ من أمامها محاولا ألّا ينظر إليها، بل نظر إلى أعلى يرمق النجوم الساطعة عبر الأشجار. عندما خرج عبر البوّابة وأمام الحارس، كاد أن ينطلق راكضا. أوقف سيّارة تاكسي، فقد كان عليه الذهاب إلى بيت إيلا لكنّه الآن يفكّر بها كجزء من العالم الغريب الذي يحكمه ذلك العجوز المخبول والغريب الأطوار.

عندما وصل إلى الأستوديو كان الضوء قد تسلّل إلى السماء فوق قمم الأسطح. جلس على الكرسيّ وحدّق أمامه مباشرة. وكان لا يزال يستطيع رؤية العجوز والنقّالة.

بعد وقت قصير نهض وذهب إلى الهاتف وطلب رقما. قال لإيلا: «هذا أنا، لقد عدت».

«من أيّ مكان تتّصل؟».

«من بيتي».

«لِمَ لَمْ تأت إلى هنا؟».

«لم أشأ إيقاظك».

«ماذا حدث؟ ماذا قال لك؟».

«لا شيء، لقد منحني العفو».

«هيّا، أخبرني ماذا حدث».

قال: «لا شيء، لم يحدث شيء. لم يعرف من أكون. وربّما هو لا يعرف من يكون».

«هذا مستحيل! ماذا تقصد بأنّه منحك العفو؟».

«كلّ شيء ممكن. هذا الشيء الوحيد الذي تعلّمته، هذا الشيء الوحيد الذي فهمته، أنّ كلّ شيء ممكن».

أغلق الخطّ ومزّق السلك الهاتفيّ، ثمّ ذهب إلى الخزانة وسحب صندوقا مُفتّشًا في الصور حتّى عثر على صورة «آلبينا». كان وجهها الحزين وابتسامتها الباهتة ينظران إليه بحبّ كما لو كانا يودّان إخباره بشيء مّا. لكنّها لن تعفو عنه.

سرعان ما كان يجوب بسيّارته الرياضيّة الشوارع الخاوية، ثمّ يسرع على طول الطرقات الريفيّة. توقّف في بلدة صغيرة أمام محلّ للوجبات الخفيفة واقتنى قهوة وساندويتش وعاد بهما إلى السيّارة. كان في عجلة من أمره، فقاد السيّارة خارج البلدة، مارّا بقصر إقطاعيّ باروكيّ حُوِّل إلى ملجإ للمسنّات والمسنّين الذين تخلّت عنهم عائلاتهم، وبمنتزه

ومستشفى ومصنع للخمور.

ابتعد عن الطريق الرئيسيّة وتوقّف في زاوية الشارع، ثمّ خرج ودخل إلى مجمّع سكنيّ وتثبّت من الأسماء حتّى عثر على الاسم الذي يبحث عنه. لم يكن المصعد يعمل، لذلك فقد صعد الدرج راكضا حتّى وصل الطابق الثالث وتوقّف أمام باب شقّة «آلينا». كان على وشك أن يدقّ الجرس، عندما لاحظ الختم حول الباب. حدّق به وهو في حال من الصدمة، ثمّ دقّ جرس الشقّة المجاورة. فتحت امرأة الباب فورًا وكانت ترتدي ثوب نوم. كان من الواضح أنّها كانت تراقبه من كوّة الباب.

سألته: «هل أتيت لرؤيتها؟».

فأومأ برأسه.

«هل أنت صديقها؟».

«ماذا حدث لها؟».

«ألا تعلم؟ ألست من مكان مّا بالجوار؟».

«كلّا، ماذا حدث لها؟»

«ذلك الوحش، ذاك الذي حاول إطلاق النار على جميع الأطفال في الباص على الحدود... قتلها». ثمّ اختنق صوت المرأة بالبكاء واستمرّت قائلة: «لقد حدث ذلك ليلة أمس، لقد رأيتها عندما حملوها خارجا. لا أحد يعلم لماذا فعل ذلك أو كيف دخل. لكنّهم طاردوه بالكلاب. حدثت ضجّة كبيرة، ثمّ قفز خارج النافذة لكنّه لم

يمت وأخذوه في سيّارة الإسعاف».

«هل ماتت حقّا؟» سألها لكنّه لم ينتظر حتّى ليسمع ردّها، فقد كان يرغب في الحفاظ على بصيص من الأمل. شكرها ونزل الدرج.

في ذلك الوقت كان الصباح قد حلّ، وكان الأطفال يغادرون بيوتهم في اتّجاه المدرسة .

صعد إلى سيّارته وأدار المحرّك ثمّ أطفأه من جديدٍ وأراح رأسه على المقود، وقد بدأت كتفاه ترتجفان بشكل متقطّع .

قاد السيّارة من جديد، لكنّه لم يكن يعرف إلى أين يذهب. لعلّه لم يكن يقودها أصلا، ولعلّ السيّارة كانت تقود نفسها. لقد صار ظلّا. ولو هبّت الريح الآن، فستخترقه كما تفعل بشقّةٍ تُركت أبوابها ونوافذها مفتوحة، لكن لا يمكن للريح أن تهبّ هنا .كان يقود وسط الفراغ، الفراغ المطلق، وسط اللّاشيء، وسط البياض الذي يشقّه الخطّ الأسود المشدود إلى الأفق.

بدأ ضوء أحمر يومض في لوحة القيادة والأفق يترنّح وتحوّل الفضاء أمامه إلى لون أصفر تلاشى وسط أعشاب طويلة تنعكس صورتها في الماء.

قاد السيّارة حتّى حافّة البحيرة، وتوقّف. كانت الشمس في كبد السماء والضباب يتدحرج على قمم الجبال.

ترك كلّ شيء في السيّارة، وثائقه وحقيبة الكاميرا والكاميرا. خلع الجاكيت الرسميّ التي كان ما يزال يلبسها منذ الليلة الفارطة،

وسحب كنزته السوداء القديمة التي يأخذها معه أينما ذهب. أقفل أبواب السيّارة بعناية وألقى بالمفاتيح في البحيرة. تعرّج أمامه ممرّ ضيّق وسط الأعشاب العالية والضارب لونها إلى البنّيّ، أعشاب يمكن أن تكون سيقان سارغاسو .

انبثق أمامه بغتة عدد كبير من الجروف العارية والمسنّنة ترتفع نحو السماء. إنّه بلد آخر.

أشرقت الشمس وارتفع سرب غربان سوداء من بين الأعشاب وانطلق في الهواء. فبدت الطيور مثل صلبان سوداء تحلّق عبر السماء.

لا تزال الجروف تبدو بعيدة، لكنّ ذلك غير مهمّ فهو ليس في عجلة من أمره للوصول إلى هناك، ولا إلى أيّ مكان آخر. مسح حبّات العرق المتصبّب على جبينه وكان يشعر بالعطش فمزّق بعض سيقان العشب ومضى يمضغها ببطء. كان طعمها مرّا فتغيّرت تعابير وجهه.

وصل إلى جدول، كان الماء ضحلا وشفّافا ونظيفا فشرب ثمّ واصل طريقه عبر الممرّ على حافّة الجدول. لكن كلّما ازدادت حدّة الممرّ بدا الجدول أقرب والمياه تهدر وتندفع بقوّة نحو الأعماق.

عثر على منبع الجدول، كان هناك تماما أسفل قمّة صخريّة. شرب مرّة أخرى، ثمّ وجد صخرة مسطّحة فنزع كنزته ولفّها في شكل كرة وتمدّد واضعا إيّاها تحت رأسه.

على الطرف الآخر من الجبال، في الأسفل، كان بوسعه أن يلمح

قمم أسطح في قرية نائية ودخانا متصاعدا من نار في مكان مّا قريب رغم أنّه لا يعرف أين، لكنّه في مكان غريب تمامًا.

بدت السماء زرقاء داكنة تغطّيها الجبال وتعلوها سحب بيضاء تبحر عبرها. كان قد التقط لها صورا في السابق.

أيْدٍ وغيوم.

رفع بصره إلى الفراغ الجاثم فوقه.

ما تزال الشمس مشرقةً. انبعث صوت خرير المياه المتموّجة على الصخور، وعَبْرَها صفّرت الريح بصوت عالٍ. وسط هذه الأصوات التي كانت تكثّف من الصمت، سمع فجأة صوتا قادما من بعيد ينادي باسمه. قفز وانحنى قليلا، ثمّ نظر إلى أسفل.

«هل هذا أنت يا آلي؟»، ثمّ رآها تركض عبر الممرّ الضيّق. توقّفت ورفعت بصرها نحوه.

فسألها بهدوء شديد وهو على يقين أنّها لا تستطيع سماعه: «هل عليّ أن آتي إليك؟»، لكنّها سمعته لأنّها أومأت وفتحت ذراعيها. كان يقف على الهاوية متخيّلا أنّه طيرٌ، غراب أسود وطير مفترس وضخم، نسر أمريكيّ. وطأ بخفّة حافّة الجرف وانزلق في شكل دوائر كبيرة نحو الأعماق.

خاتمة

انتهى العمل بالنسبة إلى هذا اليوم. أُطفأت الأنوار ووضعت العارضة ملابسها من جديد. كانت ثملة قليلا بعد أدائها مشهدًا جنسيّا مع شريك عُيِّن لذلك الدور. كانت تملك جسدا جميلا ووجها متناسقا بل ربّما جذّابا أيضا، مادمتَ لا تحاول العثور فيه على دليل للذكاء. بينما كانت تنهي ارتداء ملابسها، شعر بافل بالاهتياج عند رؤيتها.

سألها: «هل تودّين أن أوصلك إلى البيت؟».

«سيكون من لطفك، سيّد فوكا».

«يمكنك أن تناديني بافل».

كانت سيّارته الرياضيّة الجديدة مركونة في الخارج. فتح لها الباب.

«يا إلهي، لم يسبق لي أن ركبت في واحدة مثل هذه قطّ».

«هل ترغبين في تناول العشاء؟».

«إذا دعوتني إلى ذلك».

انطلق بالسيّارة وكان لا يزال يوجَد بعض الوقت المتبقّي قبل حلول المساء فشعر برغبة في الذهاب في جولة.

«هل تمانعين في الذهاب خارج البلدة؟».

«لِمَ لا! أنا متفرّغة الآن بما أنّنا انتهينا من العمل».

«هل لديك جواز سفرك معك؟».

«جواز سفري؟ فيمَ سأحتاج إلى جواز السفر؟».

«المسافة إلى الحدود ليست بعيدة جدّا وهكذا سنكون هناك خلال فترة قصيرة من الزمن».

«هل تريد أن تبتعد حتّى هناك؟».

«ربّما، سنرى».

«عليّ أن أعود إلى البيت لآخذه».

عندما غادرا المدينة قال لها: «حين كنت في سنّك، كنت أريد بشدّة السفر إلى خارج البلاد».

«طبعا، ألم يرغب الجميع في ذلك؟» يبدو أنّها لم تفهم لماذا يخبرها بهذا.

«لكن في تلك الأيّام، كان الأمر مستحيلا».

«أحبّ التسوّق فقط هناك، عندما أملك الإمكانات الكافية».

«إذا بقينا هناك حتّى الغد يمكنك الحصول على المال الكافي».

أدارت رأسها نصف استدارة، ومالت نحوه وقبّلته. اندفع هواء دافئ عبر النافذة المفتوحة. وبدت مشاهد الريف من خلالها أشبه بوميض البرق لسرعة مرورها، حتّى صارت الأشياء غير واضحة المعالم.

أراحت رأسها على كتفه وتنهّدت بسعادة. وبعد وقت قصير قالت: «أرجو أنّك لا تنظر إليّ بدونيّة. لقد وافقتُ على العمل فقط لأنّهم وعدوني بالحصول على مساحة أكبر في المرّة القادمة، فالتمثيل هو ما أتوق إلى فعله حقًّا».

«ربّما ستسير الأمور على ما يرام بالنسبة إليك».

«أودّ الدخول إلى معهد المسرح، لكنّهم لن يقبلوني. فلا علاقات لديّ، ولا حتّى والد أحد أعرفه».

«الكثير من الممثّلات العظيمات لم يدخلن معهد المسرح مطلقا».

«سيبدأ الأسوأ، قبل أن يكتشف موهبتك أحدهم».

ربّما كانت تفكّر أنّ هذه هي فرصتها الكبيرة الآن وقد انتبه إليها.

عندما كانا يقتربان من الحدود، بدأت الطريق ترتفع نحو الجبال. قاد نحو ممرٍّ يؤدّي إلى حقل وتوقّف. ثمّ أعلن قائلا: «حان وقت الراحة، ما رأيك في الذهاب في نزهة صغيرة؟».

«أفضّل الجولة بالسيّارة». لكنّها نزلت من السيّارة.

نزع جاكيته ووضع كنزة يحملها معه دائما. أخرج كاميرته وأقفل

الباب بحذرٍ وحشر مفاتيحه في جيب بنطاله.

«هل ستلتقط لي صورا؟».

حرّك رأسه نافيا: «لا أرغب في ترك أيّ شيء بالداخل».

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

«ليس إلى مكان محدّد».

ينتهي الممرّ الضيّق عند قمّة تلّة. كان وقت الغسق قد حلّ في الغابة، فطوّق خصرها بذراعه.

قالت لاهثة: «لا أريد أن أصعد التلّة. لنعد الآن، أو بوسعنا البقاء هنا إن شئت».

عثر على بقعة يغطّيها العشب بين الأشجار فنزع كنزته وافترشها.

فسألته: «هل أعجبك المكان هنا؟».

فقال: «تعجبينني أنت».

«أنت أيضا تعجبني». نزعت تنّورتها وبسطتها إلى جوار كنزته. عندما أخذها بين ذراعيه، تأوّهت بطريقة متمرّسة.

كان الظلام قد حلّ الآن، ولم يكد يتبيّن ملامحها، ومن الغريب أنّه لا يستطيع تذكّرها. كانت غريبة تماما إلى حدّ أنّها لو انزلقت من حضنه في تلك اللحظة وأخذت مكانها امرأة أخرى لما لاحظ ذلك.

عندما عبرا الحدود، قالت له: «ها أنت خارج البلاد الآن!».

«أجل». كان يجب أن يشرح لها أنّه عاش وتنقّل بين الأجانب زمنًا طويلًا، لكن ما كان لها أن تفهمه أو تهتمّ له أصلا.

تناولا العشاء في نزل صغير خارج الحدود، واستأجرا غرفة لقضاء تلك الليلة. ثملت وغلبها النعاس حالما تمدّدت على السرير. كان هو أيضا ثملا قليلا. وشعر بثقل في معدته، فكان كلّ نفس يسحبه ترافقه وخزة ألم في صدره.

تمدّد إلى جانب الغريبة، وحدّق في الفراغ فانتابه القلق. لم يشعر بالنعاس، وكان متأكّدا من أنّه لن يشعر به. فكان عليه القيام بشيء مّا أو الذهاب إلى مكان مّا أو البدء في شيء مّا أو إنهاء شيء مّا. نهض رغم معرفته بأن لا مكان لديه يركض إليه. هرع إلى جانب الستائر ونظر عبر النافذة إلى الخارج. كان مرآب السيّارات المضاء بشكل خافت مليئا بالسيّارات. فبدا لون سيّارته الرياضيّة الحمراء متغيّرًا. ارتدى ملابسه بسرعة، وشرب كوبا من الماء في غرفة الحمّام، ثمّ انسلّ خارج الباب. كان هواء الليل منعشًا ويعبق برائحة الياسمين. وكانت النجوم متوهّجة في سماء خالية من السحب وعلامة النزل الضوئيّة تشعّ باللون الأحمر خلفه. كان خارج البلاد، إنّه أخيرا في المكان الذي كان في السابق يتوق إليه ولديه سيّارة باهظة الثمن وعشيقة. عليه الآن أن يشعر بنوع من الرضا، غير أنّ أكثر ما لاحظه هو الألم الذي في صدره والفراغ أعلاه.

صعد إلى سيّارته وكان يستطيع سماع صوت موسيقى الجاز ينبعث من حانة قريبة. سيعود إلى الغريبة في الصباح. أدار المحرّك وانطلق إلى

الخارج عبر بوّابة مرآب السيّارات.

كان المدعوّون إلى حفل الزفاف يتجمّعون عبر البوّابة المفتوحة. وكان «فوكا» بنحافته وقامته الطويلة يرتدي بذلة سوداء مهترئة قليلا و«آلينا» ملتصقة به وهي تضع عليها فستانا أزرق فاتحا بياقة وكُمَّين من الدانتيل الأبيض. قبّلها، ثمّ رفعها إلى أعلى برفق قدر الإمكان، وحملها بين ذراعيه على الشريط الذي مدّده أصدقاؤه عبر الممرّ. كوّن المدعوّون صفّين، وبينما كانا يمشيان بينهما نحو عربة مربوطة إلى زوج من الأحصنة السمراء، أمطرهما المدعوّون بالأزهار. وحرّك الحوذيّ الذي يرتدي قبّعة على رأسه اللجامَ، فانطلقت العربة.

قالت «آلينا» وهي لا تزال متشبّثة بذراعه: «إلى أين ستأخذني؟»

«غير مهمّ، سنكون في البيت متى شئنا ذلك».

فضحكت قائلة: «يا إلهي، ينبغي أن تعرف أين سنعيش».

قال: «لا أملك شيئا، غير أنّي اشتريت خيمة كبيرة».

«هل سنعيش هناك؟».

«لمَ لا؟».

«أجل، لمَ لا! أنا أتطلّع إلى العيش في خيمتك الكبيرة».

فكّر أنّ هذه قد تكون بداية جيّدة للسيناريو الجديد الذي سيكتبه.

لم تعد تفصله عن الطريق السريعة، التي كانت خالية تقريبا في هذه الساعة من الليل، سوى مسافة قصيرة. قاد بسرعة عبر الريف

الغريب، وكان كلّما زاد في السرعة ازداد شعوره بالارتياح.

فجأةً لمح خيمة ضخمة ملقاة أمامه مباشرة في منتصف الطريق. وفي انعكاس ضوء المصابيح الأماميّة للسيّارة كان يستطيع رؤية القماش المخطّط باللونين الأحمر والأبيض. كان الحصانان يصهلان بنفاد صبر. كبح اللجام بشكل طفيف، وفي تلك اللحظة لم تعد عروسه الجالسة إلى جانبه ترتدي الأزرق الفاتح وإنّما ثوبا أبيض تماما. «هل هذه أنت يا آلي؟».

التصقت به وعانقته وقبّلته مرّتين.

من حسن حظّهما أنّ المدخل إلى بيتهما كان مفتوحا على اتّساعه. فعبر المدخل، لكنّ الحصانين لم يتوقّفا بل اندفعا إلى الأمام بِهَيَجان متزايد.

شعر فجأة بالقلق، فمدّ يده اليمنى يتحسّس المكان إلى جواره، لكنّ أصابعه قبضت على الفراغ. لقد اختفت عروسه. وربّما ابتلعتها زوبعة. وحتّى الريف يبدو كما لو أنّه تلاشى.

لا شيء سيلهيه الآن، إنّه يشعر أنّ بإمكانه الارتفاع فوق سطح الأرض، وفوق حياته كما لو أنّها تنتمي إلى شخص آخر.

ما الحياة؟

وأيّة حياة هي حياتي حقّا؟



إيفان كليما

في انتظار العتمة
في انتظار النور

«في مناخ قمعي خانق كان بافل يعمل كاميرا مان في التلفزيون الذي يسمّيه «مصنع الأكاذيب» وكان يحلم ببلد حرّ ينجز فيه فيلما عن محاولته المجهضة للفرار منذ عشرين سنة عبر الأسلاك الشائكة التي تتطوّق البلد وتفصلها عن بقيّة العالم. ظلّ يحلم بذلك الفيلم كأمل أخير في اجتراح شيء حقيقيّ وأصيل من حياة العقم واللا جدوى والضجر والاغتراب والعزلة والحزن العميق. مع اندلاع ثورة المخمل سنة ١٩٨٩ والتي أطاحت بالنظام الشموليّ والشيوعيّ بجمهورية التشيك، سقط بافل في مأزق حقيقيّ، فانتهاء الكابوس لم يقده خارج نفق العتمة نحو النور. على العكس من ذلك بدا مناخ الحرية جديدا وغريبا فوجد نفسه في مواجهة سؤال أساسيّ: هل بدّد الجمود والعجز والعطالة التي أصابت روحه زمن القمع أيّ قدرة على الإنجاز والفعل؟ فقد حوّلته الثورة من حالم بالحب والفن والحريّة والتغيير إلى مدير لشركة رأسمالية مدرّة للأرباح للإعلانات والبورنوغرافيا. فكما لو أنّه لم يعد للبطولة من معنى زمن المتاح والممكن وكما لو أنّه قام باستبطان وتمثّل ذلك العبث والعجز السائدين قبل الثورة فشعر بالضياع بعد وقوعها وظلّ عالقا بينهما فأجهض حلمه بأيّ تغيير ممكن».

فائزة بودبوس


9 786039 155119

WWW.PAGE-7.COM

